كلاسيكيات كلمات

كينيث غرام

ريحٌ على الصَفصَافُ

رواية

ترجمة:
أماني لازار

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق - متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

ريحٌ على الصفصاف

رواية.. (١٩٠٨)

كينيث غرام

ترجمة: أماني لازار

عن الرواية..

يظهر في الرواية مزيج رائع، بين المغامرة المثيرة، والأخلاق، والصداقة الحميمة.
هذه الرواية تعيش في ذاكرة القراء، إلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول
ضفَّة النَّـهر

كان الخلد يعمل بجدٍّ ونشاط طيلة الصَّباح، وينظف بيته الصَّغير تنظيفًا شاملًا مع حلول فصل الربيع. ابتدأ بالكنس، ثمَّ نفض الغبار، بعد ذلك راح يطلي البيت مستعينًا بفرشاة ودلو فيها محلول الجير المبيِّض، صعودًا على السَّلالم والأدراج والكراسي، إلى أن نفذ الغبار إلى حلقه وعينيه، وانتشرت بقع من الجير على جميع أنحاء فرائه الأسود، وآلمه ظهره وأرهقت ذراعاه. كان الربيع ينساب في الهواء من فوقه وفي الأرض من تحته ومن حوله، وولج بلهفة وشوق في منزله الصَّغير المظلم والمتواضع. لم يكن تصرفه باعثًا على الكثير من الاستغراب عندما رمى فجأة فرشاته على الأرض، وقال: «لقد ضقت ذرعًا بحملة التنظيف الشَّامل! إنها كارثة! سأوقفها!» وانسحب مغادرًا المنزل غير مكترث حتى لارتداء معطفه. كان هناك شيء ما في الأعلى يناديه بإلحاح، فاتَّجه نحو النَّفق الصَّغير المنحدر الشبيه بالطرق الفرعية المؤدية إلى بيوت الحيوانات التي تعيش في مساكن أقرب إلى الشَّمس والهواء. وراح يحفر ويخمش ويحك ويدفع نفسه إلى الأمام، ثم يدفع نفسه ثانية ويحك ويخمش ويحفر بهمَّة وبنشاط معملًا كفيه الصَّغيرتين ومتمتمًا بينه وبين نفسه: «هيَّا إلى الأعلى! هيا إلى الأعلى!» إلى أن خرج أنفه إلى ضوء الشَّمس أخيرًا محدثًا صوت فرقعة، ووجد نفسه يتدحرج على العشب الدافئ للمرج الفسيح.

قال لنفسه: «هذا ممتاز! هذا أفضل من التبييض!» ضربت أشعة الشَّمس الحارة فراءه، داعبت أنسام رقيقة جبينه الملتهب، وبعد عزلة عاشها في جحره، هبطت ترانيم الطيور السَّعيدة على مسمعه الكليل كالصراخ تقريبًا. قفز على قوائمه الأربعة مرة واحدة من فرحة الحياة وبهجة الربيع دون أن ينظف شيئًا. واصل طريقه عبر المرج إلى أن بلغ السِّياج على الجانب الآخر.

قال له أرنب عجوز عند الفُرجة: «توقَّف! ينبغي أن تدفع نصف شلن رسمًا لعبور الطريق الخاص!» طرحه الخلد أرضًا في الحال بتبرم وازدراء، وهرول على طول جانب السِّياج ممازحًا الأرانب الأخرى عندما اختلسوا النَّظر على عجل من جحورهم ليعرفوا سبب هذه الجلبة، قال ساخرًا: «صلصة البصل! صلصة البصل!» واختفى قبل أن تسنح لهم الفرصة للتفكير في رد مناسب. ثم أخذ الجميع يتبرم بعضهم من بعض: «يا لك من أحمق! لماذا لم تخبره...» «حسنًا، لمَ لم تقل...» «كان عليك أن تذكِّره...» وهكذا استمرّوا في التناحر كالمعتاد، لكن بالتأكيد كان الأوان قد فات حينذاك كما يحدث دومًا.

بدا كل ما رآه غاية في الحسن إلى درجة يصعب تصديقها. تجول بنشاط هنا وهناك عبر المروج، على طول الأسيجة، عبر الأجمات، ليجد في كل مكان طيور تبني أعشاشها، أزهار تتفتح براعمها، والأوراق تنبثق من عروق الأشجار؛ كل شيء سعيد منتعش وفي تحسن منشغل بحياته. وبدلًا من أن يسمع وخز الضَّمير المضطرب يهمس له: «بيِّض!» وبطريقة ما لم يشعر سوى ببهجة أن تكون

الشخص الوحيد المتبطل بين جميع هؤلاء الأشخاص المنشغلين. في النهاية ربما أفضل ما في العطلة ليس فقط أن تكون مرتاحًا، بقدر ما أن ترى الآخرين جميعًا منشغلين بالعمل.

اعتقد وهو يتجول على غير هدى على طول الطريق أن سعادته قد اكتملت، عندما وقف فجأة عند حافة نهر فيَّاض. لم يرَ في حياته نهرًا قط، فراح هذا الحيوان الأملس المتجعد النشيط يطارد الأشياء ويقهقه بفرح، ثم يمسكها وهو يبقبق في الماء ثم يتركها وهو يضحك. ترك لنفسه فرصة الاستمتاع مع أصدقائه الجدد الذين كانوا يفلتون من قبضته ليعود فيمسكهم مرة أخرى. كان كل شيء يهتز ويرتعش لمعانًا وشررًا، حفيفًا وتدويمًا، ثرثرة وبقبقة. كان الخلد مسحورًا ومدوَّخًا ومفتونًا. هرول على ضفة النهر كهرولة المرء في صغر سنه إلى جانب رجل يسحره بقصص غريبة، وعندما تعب أخيرًا جلس على الضِّفة فيما لا يزال النهر يثرثر له، موكبًا هاذيًا من أفضل القصص في العالم، مرسلة من قلب الأرض لتُروى أخيرًا للبحر النَّهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما كان جالسًا على العشب ينظر إلى عرض النهر، لفت نظره جحر معتم في الضِّفة المقابلة، فوق حافَّة الماء مباشرة، فراح يفكر فيه ويحلم أنه يمكن أن يكون مسكنًا لطيفًا ودافئًا لحيوان غير متطلب ومولع ببيت صغير على ضفَّة النهر يرتفع عن مستوى الفيضان، بعيدًا عن الضوضاء والغبار، وبينما كان يحدق بدا أن شيئًا ساطعًا وصغيرًا يتلألأ في قلبه، تلاشى، ثم تلألأ مرة ثانية مثل نجم متناءٍ في الصِّغر. لكن لا يمكن أن يكون نجمًا في مثل هذا المكان المستبعد، وكان شديد اللمعان وأصغر من أن يكون حشرة سراج الليل. ثم عندما نظر غمزه وهكذا أفصح عن كونه عينًا وبدأ وجه صغير ينمو تدريجًا من حولها، مثل إطار يحيط بصورة.

وجه بني صغير ذو شارب.

وجه مدوَّر وقور وفي عينيه البريق نفسه الذي لفت انتباهه في البداية.

أذنان صغيرتان متناسقتان وشعر غزير أملس.

كان جرذ الماء!

ثم وقف الحيوانان يحدق بعضهما إلى بعض باحتراس.

قال جرذ الماء: «مرحبًا أيها الخلد!».

قال الخلد: «مرحبًا بك أيها الجرذ».

استفسر الجرذ حالًا: «هل تود المجيء لزيارتي؟».

قال الخلد بحدَّة بعض الشَّيء: «أوه، من الجيد أن تتحدث». فقد كان جديدًا على النهر وعلى سبل الحياة على ضفَّته.

لم ينطق الجرذ بكلمة، لكنه انحنى وفك حبلًا وسحبه، ثم درج بخفة نحو قارب صغير لم يره الخلد. كان مطليًا باللون الأزرق من الخارج وباللون الأبيض من الداخل، ويتسع لحيوانين اثنين بالضبط، شعر الخلد بالحماسة له في الحال، مع أنه لم يكن قد فهم استعمالاته بعد تمامًا.

جذَّف الجرذ ببراعة نحو الضِّفة وربط القارب. ثم مدَّ كفه الأمامية فيما كان الخلد يدرج بحذر شديد. قال: «استند إلى هذه! الآن، اخط برشاقة!» وفوجئ الخلد وابتهج عندما وجد نفسه جالسًا بالفعل في مؤخرة قارب حقيقي.

قال عندما دفع الجرذ القارب بعيدًا عن الشَّاطئ وأمسك المجذافين ثانية: «كان هذا يومًا رائعًا. هل تعلم أني لم أركب قاربًا طوال حياتي».

صرخ الجرذ بفم فاغر من شدَّة الدَّهشة: «ماذا! لم تركب قاربًا طوال حياتك؟ -حسنًا، ماذا كنت تفعل إذن؟»

«هل هو أمر ممتع مثل كل شيء آخر؟» سأل الخلد على استحياء ولو أنه كان على استعداد تام كي يصدق الأمر عندما استند إلى الوراء في مقعده وعاين الوسائد والمجذافين ومسنديهما وجميع المعدات الآسرة، وأحس بالقارب يتمايل من تحته بخفَّة.

«ممتع؟ إنه الأمر الوحيد الممتع»، قال جرذ الماء بوقار وهو ينحني إلى الأمام في أثناء التجذيف. «صدقني يا صديقي الصَّغير، ليس هناك شيء -لا شيء على الإطلاق- يعادل ولو نصف ما ستحظى به من متعة من ركوب أحد القوارب». وتابع على نحو حالم: «في... ركوب... أحد... القوارب».

صرخ الخلد محذِّرا: «انظر أمامك أيها الجرذ!»

كان الأوان قد فات. اصطدم القارب بالضِّفة بقوة خارقة. استلقى المجذِّف الحالم المسرور على ظهره وقد وقع في قعر القارب وعقباه في الهواء.

«على متن أحد القوارب-أو في أحد القوارب»، واصل الجرذ برباطة جأش وهو يلتقط أنفاسه بضحكة صافية. «فيها أو خارجها، لا يهم. لا شيء يبدو أنه يهم حقًا، وهنا مكمن السحر. سواء كنت ذاهبًا أم لم تكن، سواء كنت تتحرك إلى وجهتكم أم إلى مكان آخر، أو حتى لو لم تتحرك إلى أي مكان على الإطلاق، أنت مشغول دومًا، ولا تفعل شيئًا خاصًّا، وعندما تنجزه، هناك أمر آخر تفعله دومًا، ويمكنك فعله إن شئت، لكن ربما تفضِّل ألا تفعل. انظر هنا! إذا لم يكن لديك شيء آخر عليك فعله حقًا هذا الصباح، هب أننا نهبط في النهر معًا، ونحظى بيوم طويل فيه؟»

هزَّ الخلد أصابع قدميه من فرط السَّعادة وتنفَّس الصُّعداء وهو يشعر بكامل الرضا، واستند إلى الوراء سعيدًا على الوسائد الوثيرة.

قال: «يا له من يوم! لننطلق في الحال!»

قال الجرذ: «تمسَّك بشدَّة لدقيقة إذن». طوق حبل توثيق المركب عبر حلقة في رصيف مرساه الخاص، صعد إلى جحره في الأعلى وعاود الظهور بعد حين

مترنحًا تحت وطأة سلة غداء ضخمة من الخيزران.

«ضع هذه تحت قدميك»، قال للخلد عندما مررها إلى القارب ثم فكَّ الحبل وتناول المجذافين ثانية.

سأل الخلد وهو يتلوَّى من شدَّة الفضول: «ماذا يوجد في داخلها؟»

أجاب الجرذ باقتضاب: «فيها لحم دجاج بارد، وألسنة باردة، ولحم عجل بارد، وزنجبيل وليمونادة وماء وسلطة ومخللات وشطائر ولفائف فرنسية».

صرخ الخلد من فرط السُّرور: «كفى، كفى! هذا كثير جدًا».

استفهم الجرذ بجدية: «هل تعتقد ذلك حقًا؟ هذا فقط ما أحمله دومًا في مثل هذه النزهات الصَّغيرة، والحيوانات الأخرى تصفني دومًا بالحيوان البخيل قائلين إني لا أستعد لمثل هذه الرحلات كما ينبغي!»

لم يعِ الخلد كلمة مما كان الجرذ يقوله. كان منهمكًا في الحياة الجديدة التي كان يدخلها، نشوانًا بالبريق والتموج والروائح والأصوات وضوء الشَّمس، غمس كفًا في الماء وتداعت له أحلام يقظة طويلة. جذَّف جرذ الماء بثبات، وهو رفيق صغير طيب، وامتنع عن مضايقته. قال بعد مرور قرابة نصف ساعة: «تعجبني ثيابك كثيرًا أيها الشَّاب، سوف أشتري ذات يوم بدلة رسمية مخملية سوداء اللون، حالما يتوفَّر لي ثمنها»

قال الخلد وهو يستعيد رباطة جأشه بجهد: «أستميحك عذرًا، لا بد أنك تظن أني فظ جدًّا، لكن كلُّ هذا جديد عليَّ. إذن-هذا-نهر!»

صحح الجرذ: «النَّهر».

«وأنت حقًا تعيش بمحاذاة النهر؟ يا لها من حياة بهيجة!»

قال الجرذ: «إلى النهر ومعه وعليه وفيه، إنه أخ لي وأخت وعمَّات ورفاق وطعام وشراب و-بطبيعة الحال- اغتسال. إنه عالمي، ولا أرغب في أي عالم آخر. ما لا يوجد فيه لا يستحق الامتلاك، وما لا يعرفه لا يستحق المعرفة. يا رب! يا لها من أوقات تلك التي قضيناها معًا! سواء في الشِّتاء أم في الصَّيف، في الربيع أم الخريف، لطالما حظيت فيه بالتَّسلية والإثارة. في وقت الفيضان في شهر شباط، وسراديبي وقبوي مترعة كلها بالشراب الذي لا حاجة لي إليه، والماء الموحل يجري في مستوى نافذة أفضل غرف نومي، أو ثانية عندما يجف كل شيء وتظهر رقع من الوحل تفوح برائحة تشبه رائحة كعكة البرقوق، والأسل والأعشاب الضَّارة تسد القنوات، ويمكنني أن أتسكَّع جافًا على معظم مساحة قاعه وأجد طعامًا طازجًا آكله وأشياء رماها أناس مهملون من القوارب!»

تجرأ الخلد على السُّؤال: «لكن أليس الجو كئيبًا بعض الشَّيء أحيانًا؟ أنت والنهر ولا أحد سواكما لتتبادل معه ولو كلمة واحدة؟»

«لا أحد سوانا... حسنًا، لا يجدر بي أن أقسو عليك»، قال الجرذ بهوادة. «أنت جديد هنا، وبالتأكيد لا تعرف. الضِّفة مزدحمة جدًّا في هذه الأيام حتى أن الكثير من الناس ينتقلون بالجملة. لا، هي ليست على عهدي بها على الإطلاق. ثعالب الماء، طيور القاوند، الغطَّاس الصَّغير، دجاج الماء، جميعهم حاضرون طوال اليوم ودومًا يطلبون منك فعل شيء، كما لو أن المرء ليس لديه ما يفعله!»

«ماذا يكمن هناك؟» سأل الخلد ملوحًا بكفه نحو خلفية أرض مشجرة أحاطت معتمة المروج المائية على إحدى ضفتي النهر.

قال الجرذ باختصار: «تلك؟ تلك غابة برية، لا نذهب إلى هناك كثيرًا نحن سكان ضفَّة النهر».

قال الخلد مضطربًا: «أليس الناس هناك لطفاء جدًا؟».

أجاب الخلد: «حسنًا، دعني أرى. لا بأس بالسَّناجب. وبعض الأرانب، لكن الأرانب متنوعون كثيرًا. ثم هناك الغرير بالطبع. يعيش في قلبها تمامًا، ولن يقيم في أي مكان آخر حتى لو دفعت له مقابل ذلك. عزيزي الغرير العجوز! لا أحد يصطدم معه. يفضلون ألا يفعلوا»، أضاف ملفتًا للانتباه.

سأل الخلد: «عجبًا، من يمكن أن يصطدم معه؟»

شرح الجرذ مترددًا: «حسنًا، بالطبع هناك آخرون؛ هناك حيوانات ابن عرس والقواقم والثَّعالب وغيرهم الكثير. إنهم لطفاء نوعًا ما؛ تربطني بهم علاقة جيدة، ننفق حينًا من اليوم عندما نلتقي، وكل ذلك. لكن يندفعون أحيانًا، لا سبيل لإنكار ذلك، وعندئذٍ... حسنًا، لا يمكنك حقًا أن تثق بهم وهذه هي الحقيقة».

عرف الخلد جيدًا أن الإمعان في النظر إلى المشكلات المحتملة الحدوث مستقبلًا، أو حتى أن يلمح المرء إليها مخالف تمامًا لآداب السلوك الحيواني، لذا تغاضى عن الموضوع.

سأل: «وخلف الغابة البرية ثانية؟ حيث كل شيء أزرق ومعتم، ويرى المرء ما يمكن أن تكون تلالًا أو ربما لا تكون، أو أنها شيء مثل دخان البلدات، أو مجرد كتلة من السُّحب؟»

قال الجرذ: «بعد الغابة البريَّة يوجد العالم الفسيح، وهذا أمر لا يهم، سواء لك أم لي. لم أذهب إلى هناك من قبل، ولن أذهب على الإطلاق، ولا أنت ستفعل أيضًا، إذا كنت تملك ذرة عقل. لا تأتِ على ذكره ثانية أبدًا، من فضلك. الآن إذن! ها هي مياهنا المرتدة أخيرًا، حيث سنتناول طعام الغداء».

بعد مغادرة التيار الرئيس، عبرا الآن نحو ما بدا من النظرة الأولى مثل بحيرة صغيرة محاطة باليابسة. تحدَّر مرج أخضر نحو كلا الحافتين، ومضت جذور أشجار بنية متموجة تحت سطح المياه الهادئة، بينما إلى الأمام منهما الكتف الفضية والسقطة الرغوية للسدّ، ذراعًا بذراع مع عجلة طاحونة متقطّرة لا تهدأ، رفع بدوره طاحونة رمادية جملونية الشَّكل، ملأ الهواء بصوت همهمة مسكن ومخنوق، لكن

تعلو منها القليل من الأصوات الواضحة تتحدث بابتهاج بين حين وآخر. كان جميلًا إلى درجة أنه لم يكن من الخلد إلا أن رفع كفيه الأماميتين لاهثًا وقال: «يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي!»

قرَّب الجرذ القارب من الضفة وأوثقه، وساعد الخلد الأخرق على النزول بأمان على الشَّط، وأخرج سلَّة الغداء. طلب إليه الخلد أن يسديه معروفًا بالسَّماح له بإفراغ محتوياتها بنفسه، وكان الجرذ مسرورًا لمسايرته، وللتمدد بطوله على العشب ليستريح، فيما نفض صديقه المتحمس مفرش الطاولة وبسطه، أخرج جميع العلب الغامضة واحدة تلو الأخرى ورتب محتوياتها ترتيبًا مناسبًا وهو لا يزال يلهث مع كل اكتشاف جديد قائلًا: «يا إلهي! يا إلهي!». قال الجرذ عندما كان كل شيء جاهزًا: «الآن شاركني الطعام أيها الرفيق الكبير!» وكان الخلد بالفعل مسرورًا جدًا بالامتثال لأنه كان قد بدأ التنظيف في ساعة مبكرة جدًّا ذلك الصَّباح، كما يفعل الناس عادة، ولم يتوقف ولو لتناول لقمة طعام أو لشرب شيء، وكان قد مر بأشياء كثيرة جدًا منذ ذلك الوقت البعيد الذي بدا الآن كما لو أنه مضت عليه عدة أيام.

قال الجرذ: «إلام تنظر؟» حالما أسكتا جوعهما قليلًا وكان بوسع عيني الخلد أن تبتعدا عن مفرش الطاولة قليلًا.

قال الخلد: «أنظر إلى شريط من الفقاعات أراه يسير على سطح المياه. أجد أنه أمر مسلٍ».

قال الجرذ وزقزق بابتهاج على نحو جذَّاب: «فقاعات؟ أوهو!»

تبدى خطم لماع عريض فوق حافة الضِّفة، وسحب ثعلب الماء نفسه ونفض الماء عن معطفه.

قال وهو يتقدَّم صوب الطعام: «يا لكم من متسولين جشعين، لماذا لم تدعوني يا جرذون؟»

شرح الجرذ: «لم يكن هذا أمرًا مخططًا له، بالمناسبة أعرِّفك على صديقي السَّيد خُلد».

قال ثعلب الماء: «مغرور، أنا واثق»، وتصادق الحيوانان على الفور.

واصل ثعلب الماء: «يا لها من ضوضاء في كل مكان! يبدو كما لو أن العالم كله خرج إلى النهر اليوم. لقد جئت إلى هذه المنطقة النائية في محاولة مني كي أحظى بلحظة سلام ثم تعثرت بكما يا رفاق! -على الأقل -أستمحيكما عذرًا- لا أعني ذلك بالضبط كما تعلمان».

سمع صوت حفيف من خلفهم منبعث من سياج كانت أوراق الأشجار من السَّنة الفائتة لا تزال ملتصقة بكثافة، ورأس مخطط ومن خلفه أكتاف عالية يسترق النظر نحوهم.

صرخ الجرذ: «تعال أيها الغرير العجوز!»

هرول الغرير قدمًا خطوة أو خطوتين ثم نعر: «هم! صحبة»، وأدار ظهره متواريًا عن الأنظار.

«إنه تمامًا هذا النوع من الأشخاص!» علَّق الجرذ بخيبة. «ببساطة يكره المجتمع! الآن لن نراه اليوم بعد الآن. حسنًا، أخبرنا مَن على النهر؟»

أجاب ثعلب الماء: «العلجوم هناك، في قاربه الجديد الخاص بالسباقات، ملابس جديدة وكل شيء جديد!»

تبادل الحيوانان النظر بعضهما إلى بعض وضحكا.

«سابقًا لم يكن هناك شيء سوى الإبحار بالقوارب الشِّراعية»، قال الجرذ. «ثم تعب من ذلك وبدأ السفر بقارب البنط. لم يكن من شيء يرضيه سوى أن يقود القارب طوال النهار يوميًا، ولقد صنع منه فوضى جميلة. السنة الماضية كان هناك المنزل العائم، وجميعنا وجب علينا الذهاب والإقامة معه في منزله العائم، وتظاهرنا بإعجابنا به. كان سينفق بقية حياته في منزل عائم. الأمر سيان مع أي شيء يشتريه، يسأم منه ويبدأ بشيء جديد».

«إنه شخص طيب أيضًا»، أشار ثعلب الماء متفكرًا، «لكن ما من استقرار، لا سيما في قارب!»

من مكان جلوسهم استطاعوا أن يلقوا نظرة خاطفة إلى التيار الرئيس في الجهة الأخرى من الجزيرة التي فصلتهم وحينها تمامًا ظهر للعيان قارب سباق، المجذف -شخص قصير بدين-يطرطش على نحو سيئ ويتمايل كثيرًا جدًا لكنه يعمل بجد. وقف الجرذ وهتف له، لكن العلجوم هزَّ رأسه واستقر في عمله بصرامة، وكان ذلك طبعه.

قال الجرذ وهو يعاود الجلوس: «سيكون خارج القارب خلال دقيقة لو استمر يتأرجح بتلك الطريقة».

قهقه ثعلب الماء: «بالطبع سيفعل، هل أخبرتك يومًا تلك القصَّة الجيدة عن العلجوم وحارس النهر؟ لقد حدثت على هذا النحو. العلجوم...»

انحرفت ذبابة أيَّار ضالة بغير ثبات عكس التيار بهيئة منتشية متأثرة بالدماء الفتية التي تسري في ذبابات أيار عندما ترى الحياة. دوامة مياه و«هوب!» وتوارت الذبابة عن الأنظار.

وأيضًا ثعلب الماء.

نظر الخلد إلى الأسفل. كان الصَّوت لا يزال في أذنيه، لكن المضمار الذي تمدد عليه كان خاليًا بوضوح. لم يكن يرى أي ثعلب ماء حتى حدود خط الأفق البعيد.

لكن مجددًا كان هناك شريط من الفقاعات على سطح النهر.

دندن الجرذ لحنًا، وتذكَّر الخلد أن أصول اللباقة لدى الحيوانات تمنع إبداء أي نوع من التعليقات على اختفاء مفاجئ لأصدقاء المرء في أي لحظة لأي سبب أو دون

سبب مهما كان.

قال الجرذ: «حسنًا، حسنًا، أفترض أنه ينبغي أن نتحرك. أتساءل: أي واحد منا يمكنه أن يحزم سلة الغداء حزمًا أفضل؟» لم يتحدث كما لو أنه كان حريصًا تمامًا على الضِّيافة.

قال الخلد: «أوه، من فضلك اسمح لي»، وهكذا سمح له الجرذ بالطبع.

لم يكن حزم السَّلة عملًا سارًا تمامًا كما هو حال إفراغها. لن يكون كذلك على الإطلاق. لكن الخلد كان عازمًا على الاستمتاع بكل شيء، ومع أنه عندما أنهى تعبئة السَّلة وربطها بإحكام رأى طبقًا يحدق به من العشب، وعندما أنجز العمل ثانية أشار الجرذ إلى شوكة كان يمكن لأي شخص رؤيتها. وأخيرًا، انظر! قدر الخردل الذي كان جالسًا دون أن يعرف. مع ذلك بطريقة ما انتهى الأمر أخيرًا دون الكثير من الغضب.

كانت شمس الأصيل تنخفض عندما جذَّف الجرذ برفق نحو البيت بمزاج حالم، يتمتم لنفسه بكلمات شعرية ولا يمنح انتباهًا كبيرًا للخلد. لكن الخلد كان متخمًا من الغداء وراضيًا عن نفسه ومتفاخرًا ويشعر بالفعل كما لو أنه في بيته في قارب (هكذا فكَّر)، وكان قد بدأ يشعر ببعض الضجر زيادة على ذلك، وقال في الحال: «يا جرذون، من فضلك أريد أن أجذِّف الآن!»

هز الجرذ رأسه بابتسامة. «ليس بعد يا صديقي الصغير»، قال، «انتظر حتى تحصل على عدة دروس. التجذيف ليس سهلًا كما يبدو».

لبث الخلد هادئًا لدقيقة أو اثنتين. لكن شعورًا بالغيرة بدأ يتعاظم تجاه الجرذ الذي كان يجذف بقوة وبسهولة كبيرتين، وبدأ تكبره يهمس له أنه يستطيع فعل كل شيء أيضًا. قفز وأمسك المجذافين فجأة حتى أن الجرذ الذي كان شاخصًا نحو المياه وهو يتلو المزيد من الأشعار لنفسه، أخذ على حين غرة، وانقلب عن مقعده وساقاه في الهواء للمرة الثانية، فيما أخذ الخلد المنتصر مكانه وأمسك المجذافين بثقة تامة.

صاح الجرذ من قعر القارب: «توقَّف أيها الأحمق! لا يمكنك فعلها! ستقلب القارب بنا!»

طوَّح الخلد بمجذافيه إلى الوراء ملوحًا وشق طريقه في المياه. نسي أمر السَّطح، حلقت ساقاه فوق رأسه، ووجد نفسه ممددًا فوق الجرذ المنبطح. وهو في ذعر كبير تمسك بجانب القارب وفي اللحظة التالية... هوب!

انقلب القارب ووجد نفسه يصارع في النهر.

يا إلهي كم كانت المياه باردة وياه كم بدا مبللًا! كيف غنت المياه في أذنيه وهو يغرق نحو الأسفل، يغرق، يغرق! وكم كانت الشَّمس ساطعة ومرحِّبة عندما صعد إلى السَّطح يسعل ويبقبق! كم كان يأسه حالك السَّواد عندما شعر بنفسه يغرق ثانية! ثم أمسكت نقرته كفٌّ قوية العزم. كان ذلك الجرذ، وكان من الواضح أنه يضحك، شعر الخلد به يضحك تحت ذراعه تمامًا وعبر كفه وهكذا في عنقه، عنق الخلد.

أمسك الجرذ أحد المجذافين وأقحمه تحت ذراع الخلد، ثم أقحم المجذاف الآخر تحت ذراعه الأخرى، سبح راجعًا ودفع الحيوان الضَّعيف إلى الشَّط، جرَّه ووضعه على الضِّفة، كتلة ضخمة رخوة وطرية من البؤس.

عندما فركه الجرذ قليلًا وعصر منه بعض البلل قال: «الآن إذن أيها الرفيق الكبير! هرول جيئة وذهابًا على طول مسار السحب بأقصى استطاعتك إلى أن تشعر بالدفء وتجف ثانية، وأنا أغطس لجلب سلَّة الغداء».

وهكذا هرول الخلد الكئيب مبللًا من الخارج وخجلًا من الدَّاخل، إلى أن جفَّ إلى حدٍّ ما، فيما اندفع الجرذ في الماء ثانية واسترجع القارب، قوّمه وثبته ثم جلب أشياءه العائمة إلى الشَّاطئ شيئًا فشيئًا، وأخيرًا غطس بنجاح لجلب سلَّة الغداء وكافح ليحط بها على البر.

عندما كان كل شيء جاهزًا للانطلاق مرة جديدة، اتخذ الخلد المرتخي والواهن العزيمة له مقعدًا في مؤخرة القارب، وعندما انطلقا قال بصوت خافت ممزوج بالعاطفة: «يا جرذون يا صديقي الكريم! أنا آسف بالفعل على سلوكي الأحمق والجاحد. يتوقف قلبي عن الخفقان عندما أفكر كيف كنت سأفقد سلَّة الغداء الجميلة تلك. بالفعل كنت أحمق وأعرف ذلك. هل ستتغاضى هذه المرة وتسامحني وتدع الأمور تسير كما في السابق؟»

«لا بأس، ليباركك الله!» أجاب الجرذ بابتهاج. «ما الذي يشكله بعض البلل لجرذ الماء؟ أنا أمضي في الماء وقتًا أطول من الوقت الذي أمضيه خارجه معظم الأيام. لا تفكر فيه بعد الآن وانظر هنا! أنا حقًا أفكر في أنه من الأفضل أن تأتي وتبقى معي بعض الوقت. إنه مزدحم جدًّا وخطر كما تعلم، ليس مثل منزل علجوم على الإطلاق، لكن لم ترَ ذلك بعد، يمكنني أن أؤَمن لك الراحة مع ذلك. وسوف أعلّمك التجذيف والسِّباحة، وسرعان ما ستكون بارعًا في الماء مثل أي واحد منّا».

من شدَّة تأثر الخلد بأسلوبه اللطيف في الحديث لم يستطِع أن يردّ عليه، ووجب عليه أن يمسح دمعة أو دمعتين بظاهر كفِّه، لكن الجرذ أشاح بنظره بلطف، وانشرحت نفس الخلد في الحال من جديد، حتى أنه استطاع على الفور التَّفوه برد على عدد من دجاجات الماء كنَّ يسخرن من مظهره الرثّ.

عندما وصلا إلى البيت، أوقد الجرذ نارًا ساطعة في الردهة وأجلس الخلد على كرسي ذي مسندين أمامها بعد أن جلب له ثوبًا للنوم وأخفافًا، وروى له قصصًا عن النهر حتى وقت العشاء. كانت قصصًا مثيرة أيضًا لحيوان يسكن تحت الأرض مثل الخلد. قصصٌ عن سدود، وفيضانات مفاجئة، وعن السَّمك الوثّاب، وبواخر ترمي قوارير صلبة، على الأقل كان مؤكدًا أن القوارير رُميت عن متن بواخر، وعن طيور مالك الحزين، ومدى تميز من تحدثوا إليهم، وعن مغامرات في مصارف المياه والصَّيد الليلي مع ثعلب الماء أو النزهات مع الغرير بعيدًا عن الحقول. كان العشاء وجبة مبهجة إلى أبعد حد، لكن بعد ذلك بوقت قصير جدًا، كان لا بدَّ من اصطحاب المضيف المتفهم ضيفه الخلد الغارق في النعاس إلى أفضل غرفة نوم في

الطابق الأعلى، حيث سرعان ما وضع رأسه على وسادته في سلام وسرور عظيمين، عالمًا أن صديقه الجديد، النهر، يحضن عتبة نافذته.

كان هذا فقط اليوم الأول من بين أيام مشابهة عديدة عاشها الخلد المتحرر، وكان كل واحد منها يزداد طولًا وإثارة مع تقدم فصل الصَّيف النَّاضج. تعلَّم السِّباحة والتَّجذيف، ودخل في فرحة المياه الجارية، وسمع بين الحين والآخر، فيما كانت أذنه تصغي إلى سيقان القصب، شيئًا مما همسته الريح بينها باستمرار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

الطريق السَّريع

ذات صباح صيفي صافٍ قال الخلد على حين غرة: «يا جرذون، من فضلك أريد أن أطلب منك معروفًا».

كان الجرذ جالسًا على ضفَّة النهر يغني أغنية صغيرة. كان قد ألَّفها بنفسه للتو، لذا كان مستغرقًا بها كثيرًا، ولم يكن يولي اهتمامًا مناسبًا للخلد أو لأي شيء آخر. كان منذ الصَّباح الباكر يسبح في النهر بصحبة أصدقائه البط. وعندما يقف البط على رؤوسهم فجأة كما جرت عادتهم، كان يغطس ويدغدغ أعناقهم أسفل ذقونهم تمامًا، لو كان للبط ذقون، إلى أن يضطروا إلى صعود السطح ثانية على عجل، يهمهمون غاضبين وينفضون ريشهم المشبع بالماء عليه، لأنه من المستحيل أن تعبر عن شعورك تمامًا عندما يكون رأسك تحت الماء. ناشدوه أخيرًا أن يبتعد وأن يعتني بأموره ويدعهم يهتمون بشؤونهم. وهكذا ابتعد الجرذ وجلس على ضفَّة النهر في الشَّمس وألَّف أغنية عنهم وسماها «أنشودة البط»:

على طول المياه الراكدة،

عبر أغصان الأسل الطويلة،

يخوض البط في المياه

وذيولهم جميعًا نحو الأعلى!

ذيول البط، ذيول ذكور البط،

قدم صفراء مرتعشة،

مناقير صفراء متوارية عن الأنظار

منشغلة في النهر!

شجيرات خضراء موحلة

حيث يسبح سمك الروش،

هنا نحفظ لحومنا،

باردة ومليئة ومعتمة.

كل امرئ وما يهوى!

نحن نهوى أن تكون

رؤوسنا إلى الأسفل، وذيولنا إلى الأعلى،

نخوض في الماء بحرية،

تدوِّم طيور السُّمامة عاليًا

في السَّماء الزرقاء وتغرد،

أما نحن في الأسفل فنخوض في الماء

رافعين ذيولنا إلى الأعلى جميعًا.

قال الخلد باحتراس: «لا أعتقد أن تلك الأغنية الصَّغيرة تروقني كثيرًا أيها الجرذ». هو لم يكن شاعرًا ولم يضيره لو عرف أحد بذلك، وكان صريحًا بطبعه.

أجاب الجرذ بابتهاج: «والبط أيضًا، يتساءلون لماذا لا يسمح للرفاق أن يفعلوا ما يحلو لهم عندما يودون ذلك وكما يشاؤون، بدلًا من أن يجلس الآخرون إلى الضِّفاف يراقبونهم طوال الوقت ويبدون الملاحظات وينظمون الأشعار والأشياء عنهم؟ يا له من كلام فارغ هذا كله! هذا ما يقوله البط».

قال الخلد بحماسة عظيمة: «وهو كذلك، وهو كذلك».

صرخ الجرذ ساخطًا: «لا، إنه ليس كذلك».

أجاب الخلد بهدوء: «حسنًا إذن، هو ليس كذلك، ليس كذلك، لكن ما أردت أن أطلبه منك هو تصحبني لزيارة السَّيد علجوم؟ لقد سمعت الكثير عنه وأريد أن أتعرف إليه».

قال الجرذ الطيب وقفز على قدميه في الحال وصرف تفكيره عن الشِّعر لبقية اليوم: «عجبًا، بالتأكيد، أخرج القارب وسنجذِّف إلى هناك في الحال. إن الوقت مناسب دومًا لزيارة العلجوم. سواء كان مبكرًا أم متأخرًا، هو لا يتغير على الإطلاق، إنه في مزاج جيد دومًا، وتسره رؤيتك ويحزن لمغادرتك على الدوام».

قال الخلد عندما ركب في القارب وأخذ المجذافين: «لا بدَّ أن يكون حيوانًا على قدر كبير من اللطف»، فيما اتخذ الجرذ لنفسه مقعدًا مريحًا في الخلف.

أجاب الجرذ: «هو بالفعل أحسن الحيوانات، بسيط جدًّا، طيب الخلق ومحبٌّ. ربما هو ليس شديد الذَّكاء، لا يمكن أن نكون جميعًا عباقرة، وربما يكون متفاخرًا ومختالًا على حدٍّ سواء. لكنه يتمتع ببعض الخصال العظيمة، العلجوم يتمتع بهذه الخصال حقًا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبينما كانا يدوران حول منعطف في النهر أبصرا منزلًا قديمًا، مرموقًا وفارهًا، مبنيًا من القرميد الأحمر المصقول، ومروجه معتنى بها جيدًا وتصل إلى حافة المياه.

قال الجرذ: «ذاك هو قصر العلجوم الريفي، وذلك الجدول الصَّغير إلى جهة اليسار، حيث توجد لافتة كتب عليها: «ملكية خاصة. لا يسمح برسو القوارب»، يؤدي إلى مرأب القوارب، حيث سنودع القارب. هناك تقع الإسطبلات إلى اليمين. تلك هي

قاعة الولائم التي تنظر إليها الآن، قديمة جدًا كذلك. كما تعلم العلجوم ثري إلى حدٍّ ما، وهذا حقًا واحد من أجمل المنازل في هذه الأنحاء، ولو أننا لا نعترف بهذا القدر للعلجوم».

انزلقا على الجدول ورفع الخلد مجذافيه عندما عبرا نحو ظلال مرأب قوارب كبير. هنا شاهدا الكثير من القوارب الفارهة تتدلى من العوارض المتقاطعة أو مسحوبة إلى الأعلى على مزلق، لكن لم يكن أي واحد منها في المياه، وكان يشيع في المكان جو وحي بأنه مهجور وغير مستخدم.

نظر الجرذ حوله. قال: «لقد فهمت، لقد انتهى من ركوب القوارب. لقد سئم وانتهى منه. أتساءل بأي بدعة جديدة يشغل نفسه الآن؟ تعال ودعنا نعثر عليه. سنسمع كل شيء عن ذلك خلال وقت قصير تمامًا».

نزلا إلى البر وطافا عبر المروج الخضراء المزينة بالزهور الزاهية بحثًا عن العلجوم الذي سرعان ما التقيا به مصادفة، يستريح على كرسي من الأملود وتبدو على وجهه تعابير انشغال الفكر وخريطة كبيرة مفرودة على ركبتيه.

هتف قائلًا وقفز لدى رؤيتهما: «مرحى! هذا مبهج!» صافحهما بحرارة ولم ينتظر قط أن يتم تقديم الخلد له. واصل وهو يتراقص من حولهما: «كم أنت لطيف! كنت سأرسل قاربًا عبر النهر من أجلك يا جرذون، مع أوامر صارمة بجلبك إلى هنا في الحال، مهما كنت تفعل. أنا بحاجة ماسَّة إليك -إلى كليكما. الآن ماذا تودان أن تتناولا؟ ادخلا وتناولا شيئًا! لا تعلمان مدى سعادتي بقدومكما الآن تمامًا!»

قال الجرذ وهو يرمي بنفسه على كرسي مريح: «لنجلس بهدوء قليلًا أيها العلجوم!»، بينما جلس الخلد على كرسي آخر إلى جانبه وعلق بلطف مبديًا إعجابه بـ «قصر العلجوم المبهج».

صاح العلجوم صاخبًا: «أفضل منزل في النهر كله»، ولم يستطع أن يمنع نفسه من إضافة: «أو في أي مكان آخر على الإطلاق».

هنا دفع الجرذ الخلد بمرفقه. للأسف رآه العلجوم يفعل ذلك وشعر بخجل شديد. مرت لحظة صمت مؤلمة. ثم انفجر العلجوم بالضَّحك قائلًا: «لا بأس يا جرذون، حسبه أنه أسلوبي كما تعلم. وهو ليس منزلًا سيئًا جدًّا، ألا تظن ذلك؟ أنت بنفسك معجب به كما تعلم. الآن، انظر هنا. لنكن متعقلين. أنتما الحيوانان اللذان أردتهما بالتحديد. ينبغي لكما مساعدتي. إنه أمر على قدر كبير من الأهمية!»

قال الجرذ في جو من البراءة: «أخال أن الأمر يتعلَّق بالتجذيف، أنت تجذِّف جيدًا، ولو أنك ترش الكثير من المياه من حولك في أثناء ذلك. لكن بقدر كبير من الصَّبر ومقدار من التمرين، فسيمكنك فعل ذلك...»

قاطعه العلجوم متذمرًا: «أوف! ركوب القوارب! يا له من لهو سخيف صبياني. لقد تخليت عن ذلك منذ زمن طويل. إنه ليس سوى مضيعة للوقت وحسب، هذا ما هو عليه حقًا. إن رؤيتكما تنفقان ما لديكما من طاقة على هذا النحو العشوائي تجعلني صرِاحة أشعر بالأسف عليكما أيها الرفيقان، أنتما اللذان يفترض أن تكونا أكثر

تعقلًا. لا، لقد اكتشفت الأمر الحقيقي، الانشغال الوحيد الأصيل مدى الحياة. سأكرس له ما بقي من عمري، ولا يسعني سوى النَّدم على السَّنوات الضَّائعة التي صارت خلفي، وقد أفنيتها في التفاهات. تعال معي يا عزيزي الجرذون وصديقك اللطيف أيضًا، لو يتفضَّل، حتى ساحة الإسطبل فقط، وسترى ما قصدته!»

شقَّ الطريق نحو ساحة الإسطبلات، يتبعه الجرذ وعلامات الريبة مرتسمة على وجهه، وهناك شاهدا مقطورة غجرية جديدة تلمع، مطلية بلون أصفر مثل لون طائر الكناري منتقى مع الأخضر، بعجلات حمراء اللون، في الخلاء أمام مرأب العربات.

صاح العلجوم مباعدًا بين ساقيه ومضخمًا نفسه: «ها أنتما! هناك حياة حقيقية من أجلكما، مجسدة في تلك المقطورة الصَّغيرة. الطريق المفتوح، الطريق السَّريع المغبر، المرج، الأرض المشاع، أسيجة الأشجار، التلال المتدحرجة! مخيمات، قرى، بلدات، مدن! اليوم هنا، والانطلاق إلى مكان آخر غدًا! سفر، تغيير، اهتمام، إثارة! العالم كله أمامكما، وذلك الأفق المتبدل دومًا! وانتبها، هذه هي أفخر العربات المصنوعة من نوعها على الدَّوام دون استثناء. ادخلا وشاهدا الترتيبات التي خططتها جميعًا بنفسي، لقد فعلت ذلك حقًا!»

كان الخلد مهتمًا جدًا ومتحمسًا، وتبعه بلهفة على الدَّرج وإلى داخل المقطورة. اكتفى الجرذ بأن شخر وأقحم يديه عميقًا في جيوبه ولبث في مكانه.

كانت بالفعل مريحة ومدمجة جدًّا؛ أسرَّة مبيت صغيرة، وطاولة صغيرة مطوية على الحائط، وموقد للطبخ، وخزائن، ورفوف للكتب، وقفص عصفور فيه طائر، وقدور، ومقالي، وأباريق، وغلايات من كل حجم ونوع.

قال العلجوم بانتصار وهو يفتح إحدى الخزائن: «كاملة من كل شيء! كما ترى -بسكويت وكركند مطهو وسردين- كل ما يمكن أن تشتهيه؛ مياه غازية هنا، وتبغ هناك، وورق رسائل، ولحم مقدد، مربى، وأوراق لعب، وأحجار دومينو، كل ما سبق ستجده هنا»، واصل في أثناء هبوطهم الدرج ثانية، «عندما ننطلق هذا المساء ستجد أنه لا ينقصنا شيء مهما كان».

قال الجرذ ببطء وهو يمضغ قشَّة: «أستميحك عذرًا، لكن هل سمعتك مصادفة تقول شيئًا من قبيل «نحن» و«نبدأ» و«هذا المساء»؟»

قال العلجوم متوسلًا: «الآن يا عزيزي الجرذ الكبير الطيِّب، لا تبدأ الكلام بهذه الطريقة القاسية والمتكبرة، لأنك تعرف أنه كان عليك أن تأتي. لا يمكنني تدبر الأمر دونك، لذا من فضلك اعتبر الأمر محسومًا ولا تجادل، إنه الأمر الوحيد الذي لا أستطيع تحمله. أنت بالتأكيد لا تقصد المكوث في نهرك القديم الكئيب العفن طوال حياتك، وتكتفي بالعيش فقط في جحر على ضفة وقارب؟ أريد أن أريك العالم! سوف أجعل منك حيوانًا يا فتاي!»

قال الجرذ بإصرار: «لا أهتم، أنا لست بقادم، وهذا قرار لا رجعة فيه. سوف أمكث في نهري القديم وأعيش في جحر وقارب كما فعلت على الدَّوام. أضف إلى ذلك،

سوف يمكث الخلد معي ويفعل ما أفعل، أليس صحيحًا أيها الخلد؟»

قال الخلد بإخلاص: «بالطبع سأفعل، سأبقى معك على الدَّوام أيها الجرذ، وما تقوله سيحدث، يجب أن يحدث». وأضاف بحزن: «مع ذلك، يبدو كما لو أنه كان-حسنًا، مسليًا إلى حد ما، كما تعلم!». الخلد المسكين! كانت حياة المغامرات جديدة عليه كثيرًا ومثيرة جدًّا، وهذا الجانب الجديد منها كان مغويًا، وكان قد وقع في حب المقطورة الصفراء وكل تجهيزاتها الصَّغيرة من أول نظرة.

أدرك الجرذ ما كان يفكِّر فيه وتردَّد. كان يكره أن يتسبب بالإحباط للنَّاس، وكان مولعًا بالخلد وسيفعل كل ما يمكن ليرضيه. كان العلجوم يشاهد كلًا منهما من كثب.

قال بدبلوماسية: «ادخلا وتناولا الغداء وسنتحدَّث في الأمر. لسنا في عجلة من أمرنا للبت في أمر أي شيء. بالطبع، أنا لا أهتم حقًا. أنا فقط أريد أن أمنحكما المتعة أيها الرفيقين. «عِش من أجل الآخرين»! هذا شعاري في الحياة.

في أثناء مأدبة الغداء الصَّغيرة -التي كانت ممتازة بالطبع مثل كل شيء في بيت العلجوم الريفي دومًا- أطلق العلجوم العنان لنفسه ببساطة، متجاهلًا الجرذ، شرع يعزف على وتر الخلد عديم الخبرة كما لو أنه يعزف على قيثارة. كان بطبيعته حيوانًا طلق اللسان ودومًا تسيطر عليه تخيلاته، رسم تطلعات الرحلة ومباهج الحياة المفتوحة وجانب الطريق بالألوان المتوهجة، حتى أن الخلد لم يستطع الجلوس على كرسيه من شدَّة الإثارة إلا بصعوبة. بطريقة ما سرعان ما اعتبر ثلاثتهم أن أمر الرحلة محسوم لا محالة، ولو أنَّ الجرذ لم يكن مقتنعًا في قرارة نفسه إلا أنه سمح لطبيعته الطيبة بتجاوز اعتراضاته الشَّخصية. لم يستطع احتمال أن يخيب أمل صديقيه الاثنين اللذين كانا غارقين في الخطط والتَّوقعات، يضعان الخطط لكل يوم على حدة عدة أسابيع قادمة.

عندما كانوا على أهبة الاستعداد، قاد العلجوم المنتصر الآن صاحبيه إلى مرعى الخيل، وطلب منهما الإمساك بالحصان الرمادي العجوز الذي أعده العلجوم لأكثر الأعمال إثارة للغبار في هذه الحملة المتربة، دون أن تتم استشارته، ما جعله ينزعج انزعاجًا كبيرًا. فضَّل المرعى بصراحة واستغرق منهم وقتًا طويلًا قبل أن يتمكنوا من إمساكه. في هذه الأثناء رص العلجوم الخزائن بالحاجيات رصًا محكمًا وعلق أكياس العلف، وأكياس البصل، وحزمًا من القش، وسلالًا من قعر العربة. أخيرًا قبض على الحصان وأسرجه وانطلقوا يتحدثون جميعًا في الوقت نفسه، كل حيوان إما يسير مجهدًا على قدميه إلى جانب العربة أو يجلس على محور العربة إذا استولى عليه حس الدعابة. كانت أمسية من ذهب. كانت رائحة الغبار الذي أثاروه غنية ومرضية، من البساتين الكثيفة على جانبي الطريق، زقزقت الطيور وغردت لهم بابتهاج، تمنى لهم عابرو سبيل طيبون يومًا طيبًا، أو توقفوا ليبدوا إعجابهم بعبارات لطيفة عن عربتهم الجميلة، وأرانب جالسون على أبوابهم الرئيسة في سياج الأشجار رفعوا كفوفهم الأمامية وقالوا: «يا إلهي! يا إلهي!».

في وقت متأخر من المساء، متعبين وسعداء وعلى بعد أميال عن البيت، توقفوا عند أرض مشاع نائية عن المساكن، وأطلقوا سراح الحصان كي يرعى العشب،

وتناولوا عشاءهم البسيط جالسين على العشب إلى جانب العربة. تحدّث العلجوم كثيرًا عن كل ما كان ينوي فعله في الأيام المقبلة، فيما برزت النُّجوم وازداد حجمها في كل مكان من حولهم، وظهر قمر أصفر فجأة وبصمت من العدم، ليبقى بصحبتهم ويستمع إلى حديثهم. أخيرًا اتجهوا إلى أسرتهم الصَّغيرة في العربة. قال العلجوم وهو يحرك ساقيه نعسانًا: «حسنًا، ليلة سعيدة أيها الرفيقان، هذه هي الحياة الحقيقية للرجل الشَّريف، تحدثا عن نهركما القديم!»

أجاب الجرذ الصَّبور: «أنت تعرف أيها العلجوم أني لا أتحدَّث عن نهري، لكن أفكر فيه»، أضاف بنبرة منخفضة مثيرة للشفقة: «أفكر فيه، طوال الوقت!»

مدَّ الخلد يده من تحت غطائه، تلمَّس كفَّ الجرذ في الظلمة وعصرها وهمس: «سأفعل ما تريد يا جرذون، هل نرحل صباح الغد، في وقت مبكر جدًا، مبكر جدًا، ونعود إلى جحرنا العزيز القديم في النهر؟»

ردَّ الجرذ عليه همسًا: «لا، لا، سنرى ما نفعل بشأن هذا، أشكرك جزيل الشُّكر، لكن عليَّ أن أبقى مع العلجوم حتى انتهاء هذه الرحلة. لن يكون آمنًا له أن يترك وحده لن تستغرق وقتًا طويلًا. لم تطل تقليعاته يومًا. ليلة سعيدة!»

كانت النهاية بالفعل أقرب حتى مما توقع الجرذ.

بعد الكثير من الإثارة ومضي وقت طويل في الهواء الطلق، نام العلجوم نومًا عميقًا، ولم تفلح جميع المحاولات على حمله للنهوض من السَّرير في صباح اليوم التالي. لذا باشر كل من الخلد والجرذ العمل بهدوء وبسالة، وبينما اهتم الجرذ بأمر الحصان وأشعل النَّار وغسل الفناجين والأطباق من الليلة السَّابقة، وأعدَّ وجبة الفطور، مشى الخلد مجهدًا إلى القرية القريبة قاطعًا طريقًا طويلًا لجلب الحليب والبيض وحاجيات كثيرة كان العلجوم قد نسي تأمينها بالطبع. أنجز العمل الشَّاق كله وكان الحيوانان يستريحان منهكين إنهاكًا تامًا، عندما ظهر العلجوم في المشهد نضرًا ومرحًا يتحدَّث عن الحياة الممتعة والهنية تلك اللحظة، بعد هموم ومتاعب وقلق الأعمال المنزلية في البيت.

ذهبوا ذلك اليوم في نزهة ممتعة إلى التلال المعشوشبة وعلى طول الممرات الجانبية الضَّيقة، وخيَّموا -كما في السَّابق- على أرض مشاع، لكن هذه المرة حرص الضَّيفان على أن يؤدي العلجوم نصيبه العادل من العمل. في النتيجة عندما حان الوقت لبدء صباح اليوم التالي، لم يكن العلجوم متحمسًا بتاتًا بخصوص بساطة الحياة البدائية. وبالفعل، حاول استعادة مكانه في سريره، حيث سحب منه بالقوة. كان طريقهم -كما في السابق- عبر الريف، في ممرات ضيقة. وما إن حل الأصيل حتى خرجوا إلى الطريق السَّريع، أول طريق سريع يخرجون إليه، وهناك حلت بهم كارثة سريعة وغير متوقعة، كارثة خطيرة بالفعل لرحلتهم، وساحقة بوضوح في أثرها على مجرى حياة العلجوم اللاحقة.

كانوا يتجولون على طول الطريق العام بيسر، يتحدث الخلد إلى الحصان الموجود إلى جانب رأسه، بما أن الحصان كان قد اشتكى من أنه متروك بصورة مريعة ولم

يفكر أحد فيه ولو قليلًا، العلجوم وجرذ الماء يسيران خلف العربة ويتحدثان معًا، على الأقل كان العلجوم يتحدث، وكان الجرذ يقول بين حين وآخر: «نعم، بالضبط، وماذا قلت له؟» مفكرًا طوال الوقت في شيء مختلف تمامًا، عندما سمعوا من مكان بعيد عنهم في الخلف طنينًا تحذيريًا خافتًا مثل طنين نحلة بعيدة. نظروا إلى الخلف ورأوا سحابة صغيرة من الغبار، فيها مركز مظلم من الطاقة، تتقدم نحوهم بسرعة لا تصدق، فيما ينتحب صوت من خارج الغبار: «بوب-بوب!» خافت كما لو أن حيوانًا يتألم بجزع.

غير عابئين بشأنها إلا بالكاد، التفتوا لاستئناف محادثتهم عندما تغير المشهد المسالم في لحظة (كما بدت) ومع عصفة من ريح وصوت مدوٍّ جعلهم يقفزون إلى أقرب خندق. كان صوت «بوب بوب» يرن في آذانهم بصخب صارخ، واستطاعوا أن يروا بلمحة خاطفة الجزء الداخلي من لوح زجاجي براق وجلد طري ناعم، سيطرت السَّيارة الرائعة الهائلة التي تخطف الأنفاس وتتجاوز حدود العقل، وسائقها المتوتر يعانق مقوده، على كامل الأرض والجو لجزء من الثانية، وطوحت بسحابة مغلفة من الغبار أعمت أبصارهم وأحاقت بهم تمامًا، ثم تضاءلت حتى صارت بقعة بعيدة جدًّا، وسمع صوتها كطنين نحلة مرة أخرى.

الحصان العجوز الرمادي وقد كان يتهادى في مشيته حالمًا بمرعاه الهادئ، استسلم ببساطة لمشاعره الطبيعية، في هذا الوضع الجديد الفج، وشب وانثنى وانكفأ باطراد، على الرغم من كل ما بذله الخلد من مجهود، وكل ما قاله الخلد بحيوية قاصدًا أن يهدئ من روعه، قاد العربة إلى الخلف نحو الخندق العميق عند جانب الطريق. ترنحت للحظة، ثم سمع صوت تحطم فاجع، وسقطت العربة الملونة بلون الكناري، فخرهم وفرحهم، مقلوبة على جنبها في الخندق، وغدت حطامًا لا يرجى إصلاحه.

قفز الجرذ في الطريق جيئة وذهابًا، مشحونًا بانفعال شديد وصاح وهو يهز كلتا قبضتيه: «أيها الأوغاد! أيها الأنذال، أنتم يا قطاع الطرق، أنتم -أنتم- أيها الأشرار! سوف أقاضيكم! سوف أشتكيكم! سوف أنال منكم في المحاكم!» كان حنينه إلى البيت قد انفلت منه تمامًا، وفي هذه اللحظة كان ربان السَّفينة المطلية بلون الكناري، المدفوعة نحو مياه ضحلة بسبب الاحتيال الطائش من بحارين منافسين، يحاول تذكُّر جميع الأشياء المنمَّقة واللاذعة التي اعتاد قولها لأصحاب القوارب البخارية عندما تغمر المياه، التي يرشونها في أثناء جنوحهم نحو الضِّفة، سجادته في البيت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس العلجوم في وسط الطريق المترب تمامًا، يمد ساقيه أمامه، ويحدّق بثبات نحو السَّيارة المختفية. مقطوع الأنفاس، رابط الجأش، ترتسم على وجهه علامات الرضا ويتمتم بين الفينة والأخرى بصوت خافت: «بوب! بوب!».

انهمك الخلد في محاولة منه لتهدئة الحصان نجحت بعد حين. ثم مضى لينظر في أمر العربة الملقاة على جانبها في الخندق. كان بالفعل منظرًا يدعو إلى الأسف. ألواح ونوافذ محطمة، محاور محنية بشكل ميئوس منه، إحدى العجلات مفقودة،

تناثرت علب السَّردين في العالم الواسع، وكان الطائر في القفص ينتحب بشكل يثير الشفقة وينادي لكي يُخرج.

جاء الجرذ لمساعدته لكن جهودهم المشتركة لم تكن كافية لتقويم العربة.

صرخا: «هيه! أيها العلجوم! تعال وساعدنا، ألا تستطيع؟!»

لم ينبس العلجوم بكلمة ولم يتزحزح من مجلسه في الطريق، لذا ذهبوا ليروا ما ألمَّ به من خطب. وجدوه في شبه غيبوبة، يفتر ثغره عن ابتسامة سعيدة، لا تزال عيناه شاخصتين نحو الأثر المترب لعربته المدمرة. كان لا يزال يسمع بين حين وآخر متمتمًا: «بوب-بوب!»

هزَّه الجرذ من كتفه وسأله بقسوة: «هل ستأتي لمساعدتنا أيها العلجوم؟»

تمتم العلجوم دون أن يأتي بنأمة على الإطلاق: «يا له من مشهد مؤثر ومثير! شِعْرُ الحركة! الطريقة الأجدى للسفر! الطريقة الوحيدة للسفر! هنا، اليوم، في الأسبوع المقبل، غدًا! قرى طافرة، بلدات ومدن قافزة، دومًا أفق شخص آخر! أوه يا للسعادة! أوه بوب بوب! يا إلهي! يا إلهي!»

صرخ الخلد يائسًا: «كفَّ عن الحماقة أيها العلجوم!».

تابع العلجوم بنبرة حالمة رتيبة: «وتخيل أني لم أعرف مطلقًا! طوال تلك السَّنوات الضائعة التي تمتد خلفي، لم أعرف مطلقًا، ولم أحلم مطلقًا! لكن الآن... لكن الآن أنا أعرف، الآن أنا مدرك تمامًا! يا له من مسار مزهر يمتد أمامي، من الآن فصاعدًا! يا لها من سحب مغبرَّة سوف تقفز خلفي عندما أسرع في طريقي الطائش! أي عربات سوف أطوِّح بها في الخندق بغير اكتراث في أعقاب بدايتي الرائعة! عربات صغيرة بشعة، عربات عادية، عربات ملونة بلون الكناري!»

سأل الخلد جرذ الماء: «ماذا سنفعل معه؟»

أجاب الجرذ بحزم: «لا شيء على الإطلاق، لأنه لا يوجد حقًا شيء يمكن فعله. كما ترى، أعرفه منذ زمن طويل. هو ممسوس الآن. لقد أصيب بجنون جديد، وهو يتملكه دومًا بتلك الطريقة، في مرحلته الأولى. سوف يستمر على هذا النحو أيامًا، مثل حيوان يسير في حلم سعيد، لا ينفع لأي من الأغراض العملية على الإطلاق. لا تهتم لأمره. لنذهب ونرى ماذا يمكننا أن نفعل بشأن العربة».

أظهر لهم فحص دقيق أنهم حتى لو نجحوا في تقويم العربة بأنفسهم، فإن العربة لن تسير بعد الآن. كانت المحاور في حالة ميئوس منها والعجلة المفقودة تحطمت إلى أجزاء.

عقد الجرذ مقاليد الحصان على ظهره وقاده من رأسه، حاملًا قفص الطائر وساكنه الهستيري باليد الأخرى. «هيا!» قال بكآبة للخلد. «تفصلنا مسافة خمسة أو ستة أميال إلى أقرب بلدة، وعلينا أن نمشيها. كلما أسرعنا بالانطلاق كان ذلك أفضل».

سأل الخلد بقلق فيما هما ينطلقان معًا: «لكن ماذا عن العلجوم؟ لا يمكننا أن نتركه هنا، جالسًا في وسط الطريق بمفرده، في الحالة الذاهلة التي هو فيها! إنه ليس آمنًا. ماذا لو حدث شيء آخر؟»

قال الجرذ بشراسة: «أوه لا تهتم لأمر العلجوم، لقد انتهيت منه».

لم يكونا قد ابتعدا كثيرًا في طريقهما، مع ذلك كان هناك دمدمة أقدام خلفهما، ولحق العلجوم بهما وأنشب كفًا داخل مرفق كل واحد منهما وهو لا يزال ينهج ويحدِّق إلى الفراغ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال الجرذ بحدة: «الآن، انظر هنا، أيها العلجوم! حالما نصل إلى البلدة سيوجب عليك الذهاب مباشرة إلى قسم الشُّرطة لترى إذا كان لديهم أي معلومات عن تلك السَّيارة ومن يكون صاحبها، وتتقدم بشكوى ضدَّه. ثم سيوجب عليك الذَّهاب إلى حدَّاد أو صانع عجلات وترتب أمر جلب العربة وإصلاحها ووضعها في مكانها الصَّحيح. سوف يستغرق الأمر وقتًا، لكنه ليس تحطمًا لا يرجى إصلاحه تمامًا. في هذه الأثناء سأذهب أنا والخلد إلى نزل ونجد غرفًا مريحة يمكننا الإقامة فيها إلى أن تجهز العربة وإلى أن تتعافى أعصابك من أثر الصَّدمة».

تمتم العلجوم حالمًا: «قسم الشُّرطة؟! شكوى؟! أنا أشتكي من ذلك المشهد الجميل، ذلك المشهد المبارك الذي منح لي! أصلح العربة! لقد انتهيت من العربات إلى الأبد. أنا لا أريد أن أرى العربة مطلقًا، أو أن أسمع عنها ثانية. يا جرذون! لا تستطيع أن تتخيل مدى امتناني لك على تلبيتك دعوتي للقدوم إلى هذه الرحلة! ما كنت لأذهب دونك، ثم ما كنت لأرى ذلك أبدًا، تلك البجعة، ذلك الشُّعاع، تلك الصَّاعقة! ما كنت أبدًا سمعت ذلك الصَّوت الفتَّان، أو شممت تلك الرائحة السَّاحرة! أنا أدين بذلك كله لك يا خيرة أصدقائي».

انفضَّ الجرذ يائسًا عنه، وقال للخلد مخاطبًا إياه من فوق رأس العلجوم: «هل تفهم ما خطبه؟ إنه ميئوس منه تمامًا. لقد استسلمت، عندما نصل إلى البلدة سنذهب إلى محطة القطار وإذا حالفنا الحظ سوف نلحق بقطار يعيدنا إلى ضفَّة النهر الليلة. وإن حدث وعثرت عليَّ أنشد المتعة مع هذا الحيوان المستفز ثانية...» ثم نخَر متذمرًا، وخلال بقية تلك الرحلة المرهقة وجَّه كلامه إلى الخلد حصرًا.

لدى وصولهم إلى البلدة توجهوا مباشرة إلى المحطة وأودعا العلجوم في حجرة انتظار من الدَّرجة الثانية، مانحين الحارس مبلغًا من المال كي يراقبه بصرامة. ثم بعد ذلك أودعا الحصان في إسطبل تابع لأحد النزل، وأعطيا القائمين عليه قدر المستطاع من إرشادات عن مكان العربة ومحتوياتها. أخيرًا أنزلهما قطار بطيء عند محطة ليست بعيدة جدًا عن قصر العلجوم الريفي، رافقا العلجوم المسحور والمشدوه إلى بابه، وأدخلاه وأمرا مدبرة منزله بإطعامه وأن تبدل له ملابسه وتضعه في السَّرير. ثم أخرجا قاربهما من مرأب القوارب، جذَّفا في النهر إلى

البيت، وفي ساعة متأخرة جدًا جلسا لتناول العشاء في ردهتهما الدافئة والمريحة على الضِّفة، حيث شعر الجرذ بفرح عظيم ومسرة ورضا.

مساء اليوم التالي، كان الخلد الذي نهض متأخرًا وأمضى اليوم بطوله على رسله، جالسًا يصيد على الضِّفة، عندما تقدم الجرذ متهاديًا في مشيته وقد كان يبحث عن أصدقائه ويثرثر. قال: «هل سمعت آخر الأنباء؟ لا يوجد سواه حديث دائر على امتداد ضفَّة النهر. ذهب العلجوم إلى البلدة على متن قطار في الصباح الباكر، وطلب سيارة كبيرة وباهظة الثَّمن».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

الغابة البرية

لطالما أراد الخلد أن يتعرَّف إلى الغرير. لقد بدا أنه شخصية مهمة وفقًا لما أجمعت عليه الأخبار، ورغم أنه لا يُرى إلا نادرًا، استطاع أن يجعل أثره غير المرئي ملموسًا من قبل الجميع في أرجاء المكان. لكن كلما باح الخلد برغبته لجرذ الماء، لم يلق منه سوى الإرجاء والتأجيل على الدَّوام. كان الجرذ يقول: «كل شيء على ما يرام، سوف يظهر الغرير ذات يوم، هو يظهر دومًا، وحينئذٍ سوف أقدمك إليه. إنه أفضل الأصحاب، لكن ليس عليك أن تكتفي بالفكرة التي كونتها عنه، بل يجب أن تحكم عليه بنفسك حين تلتقي به».

قال الخلد: «ألا يمكنك أن تطلب منه المجيء إلى هنا لتناول العشاء أو ما شابه؟».

أجاب الجرذ ببساطة: «لن يأتي، يكره الغرير المجتمع والدعوات والعشاء وكل شيء من هذا القبيل».

اقترح الخلد: «حسنًا، ماذا لو أننا نذهب لزيارته؟»

قال الجرذ مذعورًا تمامًا: «أوه، أنا واثق من أن هذا لن يروقه على الإطلاق، إنه خجول جدًا، من المؤكَّد أنه سوف يشعر بالإهانة. أنا بنفسي لم أجرؤ مطلقًا على زيارته في بيته مع أني أعرفه جيدًا. إضافة إلى أننا لا نستطيع. إنه أمر متعذرٌ تمامًا، لأنه يعيش وسط الغابة البرية».

قال الخلد: «حسنًا، لنفترض أنه يسكن هناك، قلت لي أنه لا توجد مشكلة في الغابة البرية، كما تعلم».

أجاب الجرذ مراوغًا: «أوه، أعلم أعلم، وهذه حقيقة، لكني أظن أننا فقط لن نذهب إلى هناك الآن. ليس بعد. إن الطريق إليها طويل، ولن يكون في البيت في هذا الوقت من السَّنة بأي حال، وسوف يأتي ذات يوم لو تلزم الهدوء وتنتظر».

كان على الخلد أن يقنع بهذا. لكن الغرير لم يأتِ مطلقًا، وجلب كل يوم ملاهيه، وما كاد الصَّيف ينقضي حتى جعلهما البرد والصَّقيع والطرق الموحلة يلبثان داخل البيت معظم الوقت، والنهر الفيَّاض جرى بمحاذاة نوافذهم بسرعة سخرت من ركوب أي نوع أو ضرب من القوارب، حتى أنه وجد أن أفكاره تذهب ثانية بإصرار أكبر نحو الغرير الرمادي المنعزل الذي عاش حياته بمفرده في جحره في وسط الغابة البرية.

كان الجرذ ينام في فصل الشِّتاء وقتًا طويلًا، ينسحب مبكرًا وينهض متأخرًا. يقرض خلال نهاره القصير بعض الشِّعر أحيانًا أو يقوم بأعمال منزلية أخرى في أنحاء البيت، وبالطبع كانت الحيوانات تزوره دوما لتتجاذب أطراف الحديث. نتيجة ما سبق، كان هناك قدر كبير من سرد الحكايات وتبادل الرأي عن الصَّيف المنصرم وجميع أحداثه.

يرى المرء أنه كان فصلًا غنيًا، عندما يلتفت وينظر إليه برمته! برسوم توضيحية لا تعد ولا تحصى وملونة! كان مهرجان ضفة النهر قد تقدم بثبات إلى الأمام، يتكشف في صور مشهدية تتابعت في موكب جليل. ظهرت زهور اللوسيستريف الأرجوانية مبكرًا، ذؤابات متشابكة على طول حافة النهر، حيث تنعكس صورتها البديعة على صفحة الماء لترد ضحكة الأزهار المترفة. لم يكن شجر الصَّفصاف الرؤوم والحزين كسحابة غروب وردية، بطيئًا ليُتَّبع أثره. أما عشبة السنفيتون بأزهارها التي يختلط فيها اللون الأرجواني مع الأبيض، فقد تقدّمت إلى الأمام هي الأخرى لتستعرض جمالها. وذات صباح أحد الأيام، خطت زهرة النسرين الخجولة والمتمهلة بخفة على المنصة، كأنها لحن موسيقي وتري أعلنت انسجامها مع تمايل الراقصين ووقع أقدامهم، وحينها فقط يعرف المرء أن شهر حزيران قد حلّ أخيرًا. كان أحد أفراد الصحبة لا يزال منتظرًا، كالراعي الفتى الذي ينتظر حوريات الغابة ليتودد إليهن، كالفارس الذي انتظرته السَّيدات إلى النافذة، كالأمير الذي أزمع تقبيل فتاة الصيف النائمة ليعيدها إلى الحياة والحب. إنه نبات إكليلية المروج، الذي ما إن وصل أخيرًا، بأريج عطره الفواح ولونه العنبري، لينضم برشاقة إلى الجمع، حتى كانت المسرحية جاهزة للبدء.

ويا لها من مسرحية! تذكرت الحيوانات الناعسة، المستكنَّة في جحورها فيما كانت الريح مع المطر يطرقان على أبوابهم، صباحات لا تزال متوقدة، قبل طلوع الشَّمس بساعة، عندما كانت الغشاوة البيضاء التي لم تكن قد تبددت بعد، متشبثة بإحكام على طول سطح المياه، ثم صدمة الغطسة المبكرة، العدو على طول الضِّفة، والتحول المشرق للأرض والهواء والماء، عندما ظهرت الشَّمس فجأة وكانت معهم ثانية، والرمادي أضحى ذهبيًا، وولد اللون وانبثق من الأرض مرة أخرى. تذكروا القيلولة الواهنة في منتصف النهار الحار، في أعماق الشُّجيرات الخضراء، ترمي الشَّمس أعمدة صغيرة ذهبية في بقع من نور، ركوب القوارب والسِّباحة عند الأصيل، التسكع على طول الممرات الترابية وعبر حقول الذُّرة الصَّفراء، والمساء الطويل البارد أخيرًا، عندما اجتمعت الكثير من المواضيع، واكتملت الكثير من الصداقات، ووضعت خطط الكثير من المغامرات يوم الغد. كان هناك الكثير للتحدث عنه في تلك الأيام الشَّتوية القصيرة عندما وجدت الحيوانات نفسها حول النار، مع ذلك، كان لدى الخلد قدرًا كبيرًا من وقت الفراغ، وهكذا ذات أصيل عندما كان الجرذ جالسًا على كرسيه ذي المسندين أمام النار، بالتناوب يغفو ويحاول نظم الشِّعر المقفَّى فلا يعثر على القافية المناسبة، عزم الأمر على الخروج بنفسه واستكشاف الغابة البرية، على أمل أن يلتقي ويتعرف إلى السيد غرير.

كان الأصيل باردًا وهادئًا تعلوه سماء مكفهرّة وصلدة عندما تسلل من الردهة الدافئة إلى الهواء الطلق. امتد الريف من حوله قاحلًا وعاريًا تمامًا، واعتقد أنه لم ير مطلقًا هذا القدر الكبير والمفصل من دواخل الأشياء، كما رآها في ذلك اليوم الشتائي عندما كانت الطبيعة في سباتها السَّنوي العميق، وبدت أنها خلعت ملابسها. أجمات، وهاد، محاجر، وجميع الأماكن المخفية التي كانت مناجم غامضة للاستكشاف في الصيف المورق، أباحت الآن نفسها وأسرارها بوحًا مثيرًا للشفقة وبدت أنها تطلب

منه التغاضي عن هيئتها الرثة فترة من الزمن، إلى أن تتمكن من أن تشغب في حفلة تنكرية غنية كالسابق وتخدعه وتستهويه بالغوايات القديمة. كان الوضع مثيرًا للشفقة نوعًا ما ومع ذلك مبهجًا، بل منعشًا أيضًا. كان الخلد مسرورًا لأنه أعجب بالريف غير المزين، القاسي، والمجرد من كسوته المبهرجة. كان قد نزل إلى عناصره الأساسية وكانت ممتازة وقوية وبسيطة. هو لم يرغب في البرسيم الدافئ ومسرحية بذر الحشائش، حُجب الزعرور البري، بدت الستارة المتموجة من أشجار الزان والدردار أفضل وهي مبعدة، وبروح عظيمة الابتهاج اندفع نحو الغابة البرية التي امتدت أمامه منخفضة ومتوعدة مثل حيد مرجاني أسود في بحر جنوبي هادئ.

لم يكن هناك شيء يدعوه إلى الخوف عند أول دخول. طقطقت الغصينات تحت قدميه، تعثر بجذوع الأشجار، فُطورٌ على أرومات الأشجار حاكت رسومًا ساخرة، وأجفله تشابهها مع شيء مألوف وبعيد مؤقتًا، لكن كل ذلك كان ممتعًا ومثيرًا. دفعه للمضي قدمًا وتوغل إلى حيث شحب الضوء والأشجار انحنت أقرب وأقرب، وكشرت الجحور بفوهات قبيحة على جانبيه.

كان كل شيء هادئًا جدًا الآن. أقبل الغسق عليه بثبات وبسرعة يتجمع في الخلف وفي الأمام، وبدا أن الضوء ينضب مثل مياه الفيضان.

ثم بدأت الوجوه.

اعتقد أولًا أنه رأى وجهًا فوق كتفه غير واضح، وجه صغير شرير وتدي الشَّكل يناظره من جحر، وعندما التفت لمواجهته، اختفى.

حثَّ خطاه وأسر لنفسه مشجعًا ألا يبدأ بتخيل أشياء وإلا فلن يكون هناك نهاية لذلك. مر بفجوة أخرى وأخرى ثم أخرى ثم -نعم! - لا! - نعم! من المؤكد أن وجهًا صغيرًا ضيقًا بأعين قاسية ومض للحظة من الجحر ورحل. تردَّد-استجمع قواه وواصل السَّير بخطى واسعة. ثم فجأة، وكما لو أن الحال كان كذلك منذ البداية، بدا أن لكل جحر سواء كان بعيدًا أم قريبًا، وكان يوجد المئات منها، وجهًا يظهر ويختفي بسرعة، ترمقه جميعها بنظرات الحقد والكراهية، لجميعها أعين قاسية وشريرة وحادة.

فكر لو أنه يتمكن من فقط الإفلات من الجحور على كلا الجانبين، فلن يكون هناك المزيد من الوجوه. انحرف عن المسار واندفع مسرعًا في أماكن غير مطروقة من الغابة.

ثم بدأ الصَّفير.

عندما سمعه لأول مرة كان خافتًا جدًا وثاقبًا، ينبعث من مكان بعيد خلفه، لكن بطريقة ما دفعه إلى أن يحث السير قدمًا. ثم فيما كان لا يزال خافتًا جدًا وثاقبًا، بدا أنه قادم من مكان بعيد

أمامه، وأثار فيه التردد ورغب في أن يعود أدراجه. عندما توقَّف في حيرة من أمره اندلع من كلا الجانبين، وبدا أنه لحق به واجتاز مساحة الغابة كاملة حتى أبعد نقطة

فيها. كانوا يقظين ومستعدين، كما هو واضح، كائنًا من كانوا! وكان هو أعزل وبمفرده وبمنأى عن أي عون، كان الليل يرخي سدوله.

ثم بدأت الطقطقة.

اعتقد في البداية أنها ليست سوى الأوراق المتساقطة، كان صوتها خفيفًا جدًا ورقيقًا. ثم عندما تنامت اتخذت ايقاعًا منتظمًا وعرف أنها ليست سوى وقع قدمين صغيرتين، وإن كان من مسافة بعيدة جدًا. هل كان الصوت قادمًا من الأمام أم من الخلف؟ بدا أنه من الأمام، ثم بدا أنه من الخلف، ثم من كلا الجهتين. تنامى وتضاعف إلى أن بدا له أنه يقترب منه عندما أصغى بقلق، يميل إلى هذه الجهة وتلك، عندما وقف ساكنًا ليصيخ السَّمع، تقدم منه أرنب يعدو بسرعة كبيرة عبر الأشجار. توقع أنه سيبطئ الخطو أو أنه سينحرف عنه في اتجاه آخر. بدلًا من ذلك، حفَّ الحيوان به تقريبًا عندما أسرع متجاوزًا إياه، وجهه ثابت وقاس، عيناه محدقتان.

سمعه الخلد يتمتم عندما استدار من حول جذع واختفى في جحر أليف: «اخرج من هنا، أيها الأحمق، اخرج!»

تصاعدت الطقطقة حتى بدت مثل وابل مفاجئ من البرَد ينهمر على بساط الأوراق الجافة المفرود من حوله. بدت الغابة برمتها تجري الآن، تجري بشدة، تطارد، تلاحق، تطبق على شيء ما أو شخص ما؟ بدأ يجري في ذعر أيضًا على غير هدى، لم يعرف إلى أين. اصطدم بأشياء، وسقط على أشياء، وفي أشياء، ارتمى تحت أشياء، واستدار من حول أشياء لتفاديها. أخيرًا أوى في الفجوة العميقة المظلمة لشجرة زان معمِّرة وفرت له الملجأ، المخبأ، وربما الأمان أيضًا، لكن من يستطيع أن يعرف؟ بأي حال كان منهكًا جدًّا ليركض ولم يسعه إلا أن يستكنَّ في الأوراق الجافة التي انجرفت إلى الفجوة وأمل أنه في مأمن إلى حين. وبينما هو مستلق هناك يلهث ويرتجف، أصغى إلى الصَّفير والطقطقة في الخارج، عرفه أخيرًا في اكتماله، ذلك الشيء المخيف الذي يصادفه هنا الآخرون الصِّغار الذين يقيمون في الحقل وفي أسيجة الأشجار، ومعروف على أنه أحلك لحظاتهم، ذلك الشيء الذي حاول الجرذ عبثًا حمايته منه؛ رعب الغابة البرية!

في غضون ذلك غفا الجرذ إثر شعوره بالدفء والارتياح إلى جانب مدفأته. انزلقت عن ركبته أوراقه التي دوَّن عليها قصائده غير المكتملة بعد، وسقط رأسه إلى الوراء، وفغر فاه وتجول على ضفاف أنهار الأحلام المخضوضرة. ثم انزلقت فحمة وطقطقت النَّار مرسلة دفعة من اللهب، واستيقظ مجفلًا. مدَّ يده إلى الأرض ليتناول أوراقه وقد تذكر ما كان منكبًا عليه، وتأملها دقيقة ثم نظر من حوله باحثًا عن الخلد ليسأله إذا كان يعرف قافية جيدة لشيء أو سواه.

لكن الخلد لم يكن هناك.

أصغى إلى حين. بدا المنزل شديد الهدوء.

ثم نادى عدة مرات: «أيها الخلد!» ولما لم يلقَ أي جواب نهض وخرج إلى القاعة.

لم تكن قبَّعة الخلد معلقة على مشجبها المعتاد. كان حذاؤه المطاطي الموضوع دومًا إلى جانب حمَّالة المظلة قد اختفى أيضًا.

غادر الجرذ المنزل وتفحص باحتراس سطح الأرض الموحل في الخارج على أمل العثور على آثار الخلد. كان واثقًا من وجودها كفاية. كان الحذاء جديدًا ابتاعه للتو من أجل الشِّتاء وكانت النتوءات في نعله جديدة وحادة. استطاع أن يرى آثارها في الوحل، تسير إلى الأمام بشكل مستقيم وهادف في الاتجاه المؤدي إلى الغابة البرية.

بدا الجرذ متجهمًا جدًّا ووقف مستغرقًا في أفكاره دقيقة أو اثنتين. ثم عاد إلى المنزل، وربط حزامًا حول خصره، ودفع فيه زوجًا من المسدسات، أخذ هراوة غليظة كانت موضوعة في زاوية الردهة، وانطلق نحو الغابة البرية مسرع الخطى.

عندما بلغ أول حافَّة من الأشجار كان الوقت يقترب بالفعل من الغسق، واندفع دون تردد في الغابة وهو ينظر بقلق إلى كلا الجانبين، بحثًا عن أي علامة تشير إلى صديقه. خرجت من الجحور هنا وهناك وجوه صغيرة خبيثة لكنها تلاشت حالما رأت الحيوان الشُّجاع ومسدسيه والهراوة البغيضة الكبيرة في قبضته، وتبددت أصوات الصَّفير والطقطقة التي سمعها بوضوح تام لدى دخوله الأول، وتوقَّفت وعمَّ السُّكون التام كل شيء. شق طريقه ببسالة عبر امتداد الغابة إلى حافتها الأبعد، ثم عقد العزم على اجتيازها متخليًا عن كل الدُّروب، يمضي في جميع الأنحاء وينادي طوال الوقت بابتهاج: «أيها الخلد، يا خلد، يا خلد! أين أنت؟ إنه أنا، الجرذ العجوز!»

كان قد بحث بصبر في أرجاء الغابة طوال الساعة تقريبًا، عندما سمع أخيرًا صرخة صغيرة مجاوبة تهلِّل لسماعها. اهتدى بواسطة الصَّوت، شق طريقه في جنح الظلام إلى قدم شجرة زان معمِّرة مجوفة، خرج من الفجوة صوت واهن يقول: «يا جرذون! هل هذا أنت بالفعل؟»

زحف الجرذ داخل الفجوة وهناك وجد الخلد، منهكًا ولا يزال يرتجف.

«أوه أيها الجرذ!»، صرخ، «لا تستطيع أن تتخيل كم كنت مرعوبًا!»

«أوه أتفهَّم جيدًا»، قال الجرذ محاولًا تهدئته.. «لم يكن عليك أن تذهب حقًا وتفعل هذا، يا خلد. لقد بذلت قصارى جهدي لأبعدك عنها. نحن سكان ضفَّة النهر نادرًا ما نأتي إلى هنا بمفردنا. لو وجب علينا المجيء فإننا نأتي أزواجًا على الأقل، فنكون بخير عمومًا. عدا عن أن هناك مئات الأشياء على المرء أن يعرفها، ونحن نفهم كل شيء عنها وأنت لا تعرف بعد. أعني كلمات المرور، وإشارات، وأقوال لها قوة وتأثير، وأعشاب تحملها في جيبك، وأبيات من الشعر ترددها وخدع ومراوغات تتمرن عليها، كلها بسيطة عندما تعرفها لكنها يجب أن تكون معروفة إذا كنت صغيرًا وإلا ستجد نفسك في ورطة. بالتأكيد إذا كنت غريرًا أو ثعلب ماء قد تكون تمامًا مسألة أخرى».

استفسر الخلد: «بالتأكيد السَّيد الشُّجاع علجوم ما كان ليرفض المجيء إلى هنا بمفرده، أليس صحيحًا؟»

قال الجرذ ضاحكًا بحماسة: «العلجوم العجوز؟ هو غير قادر على المجيء هنا بمفرده ولو مقابل مبلغ كبير من الجنيهات الذهبية، إنه لا يقدر أبدًا على فعل ذلك!».

ابتهج الخلد إلى حد كبير لسماع صوت ضحك الجرذ الطائش، ولمرأى عصاه ومسدسيه البراقين، وتوقف عن الارتجاف وبدأ يشعر بجرأة أكبر ويستعيد طبيعته ثانية.

قال الجرذ في الحال: «الآن إذن، نحن حقًا علينا أن نستعيد رباطة جأشنا وننطلق إلى البيت فيما لا يزال هناك القليل من الضوء. لن نستطيع أن نمضي الليل هنا، كما تفهم. من جهة أن الطقس بارد جدًا».

قال الخلد المسكين: «عزيزي الجرذ، أنا آسف بشدَّة، لكني ببساطة مرهق جدًّا وتلك هي الحقيقة. لا بدَّ أن تدعني أرتاح هنا فترة أطول لأستعيد قوتي، إذا كان لي نصيب في العودة إلى البيت على الإطلاق».

قال الجرذ طيب النَّفس: «أوه، لا بأس، استرح. لقد حل الظلام الآن على أي حال، وسوف يسطع ضوء القمر قريبًا».

وهكذا اندفع الخلد عميقًا في الأوراق اليابسة ومدد جسده وغط في النَّوم على الفور، ولو أنه كان نومًا مضطربًا ومتقطعًا، فيما غطى الجرذ نفسه أيضًا بأفضل ما بوسعه كي يشعر بالدفء، واستلقى بصبر ينتظر ومسدس في كفه.

عندما استيقظ الخلد أخيرًا، أكثر انتعاشًا وفي مزاجه المعتاد قال الجرذ: «الآن إذن! سألقي بنظرة إلى الخارج لأرى إذا كان كل شيء هادئًا، ثم علينا حقًا أن ننطلق».

مضى إلى مدخل معتزلهما وأخرج رأسه. ثم سمعه الخلد يقول بهدوء لنفسه: «مرحبًا! مرحبًا! ها هو ذا!»

سأل الخلد: «ما الأمر يا جرذون؟»

أجاب الجرذ باختصار: «الثَّلج مرتفع، أو بالأحرى يهطل. إنها تثلج بغزارة».

جاء الخلد وجثم إلى جانبه، ورأى عندما نظر إلى خارج الغابة، التي كانت مخيفة جدًّا له، في هيئة مختلفة تمامًا. كانت الجحور والتجاويف والبرك والأوجرة وتهديدات سوداء أخرى لعابر السبيل تتلاشى سريعًا، وسجادة نيرة من الجن كانت تنبثق في كل مكان، بدت رقيقة جدًا كي تدوسها الأقدام الخشنة. ملأ مسحوق رقيق الهواء ولامس الخد بوخزه، وظهرت جذوع الأشجار السوداء في ضوء بدا أنه منبعث من الأسفل.

قال الجرذ بعد إمعان: «حسنًا، حسنًا، ليس باليد حيلة، أتخيل أننا يجب أن ننطلق ونجرب حظنا. أسوأ ما في الأمر أني لا أعرف أين نحن بالضبط. والآن هذا الثلج يجعل كل شيء يبدو مختلفًا تمامًا».

بالفعل، جعل الثلج كل شيء مختلفًا تمامًا؛ فما كان الخلد ليعرف أنها الغابة هي نفسها. ومع ذلك انطلقا بشجاعة، واتخذا المسار الذي بدا واعدًا إلى أقصى حد،

يمسك بعضهما بعضًا ويتظاهران بابتهاج منيع أنهما تعرفا إلى صديق قديم في كل شجرة يانعة حيّتهما بتجهم وبصمت، أو شاهدا فتحات، أخاديد، أو دروب فيها انعطاف مألوف، في رتابة الفضاء الأبيض وجذوع الأشجار السوداء التي أبت أن تتغير.

بعد ساعة أو ساعتين، كانا قد ضيعا كل حساب للزمن، توقفا مثبطي الهمة ومرهقين، وبيأس في حيرة من أمرهما، وجلسا إلى جذع شجرة منهار لالتقاط أنفاسهما وللتفكير في ما يجب القيام به. كانا يتألمان من شدَّة الإجهاد والرضوض الناجمة عن السقطات، كانا قد وقعا في عدة فجوات وتبللا تمامًا، كان الثلج يزداد عمقًا حتى أنهما بالكاد استطاعا جر أقدامهما الصَّغيرة عبره، وكانت الأشجار أكثر سماكة وأكثر تشابهًا من أي وقت مضى. بدا أنه لا يوجد لهذه الغابة نهاية ولا بداية، وما من تفاوت فيها وأسوأ من ذلك كله ما من مخرج.

قال الجرذ: «لا يمكننا أن نطيل الجلوس هنا كثيرًا، علينا مواصلة السَّير ونحاول فعل شيء ما. البرد قارس جدًّا وسرعان ما سيصبح الثلج سميكًا علينا فلا نستطيع الخوض فيه». حدَّق حوله وفكر ثم تابع: «اسمعني جيدًا، لقد خطرت لي فكرة؛ يوجد واد صغير هنا أمامنا، حيث تبدو الأرض كثيرة التلال والحدبات والربى. سوف نشق طريقنا نزولًا نحوه ونحاول العثور على مأوى، كهف أو فجوة جافة الأرضية في منأى عن الثَّلج والرياح، وهناك سوف نرتاح جيدًا قبل أن ننطلق ثانية، لأننا مرهقان كثيرًا. عدا عن أن الثلج قد يتوقف أو يحدث ما ليس في الحسبان».

لذا نهضا مرة ثانية على أقدامهما ونزلا إلى الوادي الصَّغير بصعوبة، حيث بحثا عن كهف أو ركن جاف يقيهما من الريح العاتية والثلج المتساقط. كانا يستقصيان في إحدى الروابي الصغيرة التي تحدَّث عنها الجرذ، عندما تعثر الخلد فجأة وسقط على وجهه مصدرًا صرخة حادة.

صاح: «أوه يا ساقي! أوه يا قصبة ساقي المسكينة!» وقعد على الثلج محتضنًا ساقه بكفيه الأماميتين.

قال الجرذ بلطف: «أيها الخلد المسكين، يبدو أن الحظ لا يحالفك كثيرًا اليوم، أليس كذلك؟ لننظر إلى السَّاق. نعم»، تابع وهو يستند على ركبتيه لينظر: «من المؤكد أنك جرحت قصبة ساقك. انتظر حتى آتي بمنديلي وسأضمدها به».

قال الخلد ببؤس: «لا بدَّ أني تعثَّرت بغصن مخفي أو بجذمور، أوه يا إلهي! يا إلهي!»

قال الجرذ متفحصًا إياه بلطف ثانية: «إنه جرح واضح المعالم، لم يتسبب به غصن أو جذع مطلقًا. يبدو كما لو أنه بحافة معدنية حادة. عجيب!» تأمَّل إلى حين وتفحَّص الروابي والمنحدرات المحيطة بهما.

قال الخلد وقد أنساه الألم قواعد اللغة: «حسنًا، لا عليك، لا تشغل بالك بما أحدث الجرح، فالألم لا يتغير بصرف النظر عما تسبب في حدوثه».

لكن الجرذ بعد أن ربط السَّاق بعناية بمنديله، تركه وانشغل في نبش الثلج. خدش وجرف واستكشف، تعمل قوائمه الأربعة جميعها بانهماك فيما انتظر الخلد بفارغ الصبر وراح يردد بين الحين والآخر: «أوه هيا أيها الجرذ!»

فجأة صرخ الجرذ: «مرحى!» ثم: «مرحى! مرحى!» وشرع يرقص في الثَّلج خائر القوى.

سأل الخلد وهو لا يزال محتضنًا ساقه: «ما الذي عثرت عليه يا جرذون؟»

قال الجرذ المبتهج وهو يتراقص سريعًا: «تعال وانظر!».

عرج الخلد نحو المكان وألقى بنظرة فاحصة.

قال أخيرًا ببطء: «حسنًا، رأيتها جيدًا. رأيت هذا النوع من الأشياء نفسه من قبلُ عدة مرات. أدعوها شيئًا مألوفًا. مكشطة الأحذية! حسنًا، ماذا عنها؟ لماذا التراقص فرحًا بمكشطة الأحذية؟»

صاح الجرذ نافد الصَّبر: «لكن ألا تفهم ما تعنيه، أنت... أنت أيها الحيوان البليد؟»

أجاب الخلد: «بالطبع أرى ما تعنيه، إنها تعني ببساطة أن ثمَّة شخصًا متهورًا وكثير النسيان ترك مكشطة الأحذية وسط الغابة البرية، تمامًا حيث من المؤكد أن يتعثر بها الجميع. تفكيره طائش. عندما أعود إلى البيت ينبغي أن أذهب للتقدم بشكوى بهذا الشأن، لشخص ما أو سواه، أعاهدك على ذلك!»

صاح الجرذ قانطًا من بلادته: «يا إلهي! يا إلهي! هيه، كفَّ عن الجدال وتعال واكشط!» وشرع في العمل ثانية وتطاير الثلج في كل اتجاه من حوله.

بعد مزيد من العمل كانت جهوده مثوبة، وانكشفت للعيان ممسحة أرجل رثَّة جدًّا.

هتف الجرذ بظفر عظيم: «هاك، ماذا قلت لك؟»

أجاب الخلد بمصداقية تامة: «قطعًا لا شيء مهما كان»، وتابع قائلًا: «حسنًا الآن، يبدو أنك وجدت قطعة أخرى من مخلفات منزلية مستهلكة ومرمية، وأفترض أنك سعيد كثيرًا. من الأفضل أن تتقدم وترقص رقصتك تلك إذا كان عليك أن تفعل، وتنتهي منها، ثم ربما يمكننا المضي وعدم تضييع المزيد من الوقت على أكوام القمامة. هل يمكننا أن نأكل ممسحة أرجل؟ أو ننام تحت ممسحة أرجل؟ أو نجلس على ممسحة أرجل ونتزلج على الثلج إلى البيت عليها أنت أيها القارض المغيظ؟»

صاح الجرذ الهائج: «هل تقصد القول أن ممسحة الأرجل هذه لا تعني شيئًا لك؟»

قال الخلد منفعلًا: «حقًا، أيها الجرذ، أظن أن الكيل قد طفح بهذه الحماقة. من سمع عن ممسحة أرجل تخبر أي شخص بأي شيء؟ إنها لا تفعل ذلك. إنها ليست ذلك النوع على الإطلاق. مماسح الأرجل تعرف مكانها».

أجاب الجرذ غاضبًا بالفعل: «الآن انظر هنا، أنت... أنت أيها البهيم المغفَّل، هذا يجب أن يتوقف. ولا تنطق بكلمة أخرى، فقط انبش واكشط واخدش واحفر وابحث،

لا سيما على جوانب النتوءات، إذا كنت تريد أن تنام جافًا ودافئًا الليلة، لأنها فرصتنا الأخيرة».

انقضَّ الجرذ على ركام ثلجي قربهما بحماسة، يجس بهراوته كل مكان ثم راح يحفر بضراوة، والخلد كشط بهمَّة أيضًا، إرضاء للجرذ وليس لأي سبب آخر، لأنه كان يرى أن صديقه بدأ يصبح طائشًا.

بعد قرابة عشر دقائق من العمل الشَّاق، ارتطم رأس هراوة الجرذ بشيء مجوف. راح يحفر إلى أن استطاع أن يدخل كفًا عبره وتحسسه، ثم نادى الخلد ليأتي لمساعدته. وبمشقَّة واصل الحيوانان العمل إلى أن كانت نتيجة عملهما بادية أخيرًا لعيني الخلد المذهول والمرتاب حتى الآن.

في جانب ما قد بدا أنه ركام ثلجي، انتصب باب صغير متين الهيئة، مطلي بالأخضر الداكن. تدلى حبل جرس حديدي جانبًا ومن تحته على لوحة صغيرة من النحاس نقش بأناقة بأحرف كبيرة تربيعية تمكنا من قراءتها بمساعدة ضوء القمر: «السيد غرير».

انقلب الخلد على ظهره على الثَّلج من هول المفاجأة والبهجة. بكى ندامةً: «أيها الجرذ! أنت أعجوبة! أعجوبة حقيقية، هذا ما أنت عليه. الآن فهمت كل شيء! لقد أنهيت مناقشة كل شيء، خطوة خطوة، في رأسك الحكيم ذاك، في نفس اللحظة عندما وقعت وجرحت ساقي، ونظرت إلى الجرح، وفي الحال حدث عقلك الجليل نفسه: «مكشطة أحذية!» ثم التفتّ ووجدت مكشطة الأحذية ذاتها التي تسببت بذلك! هل اكتفيت بذلك؟ لا. كان بعض الناس ليقنعوا تمامًا، لكن ليس أنت. استمر عقلك في التفكير، ثم قلت لنفسك: «دعني فقط أجد مكشطة الأحذية، وأثبت نظريتي!» وبالطبع وجدت مكشطة الأحذية. أنت بالغ الذَّكاء، أصدق أنك تستطيع أن تجد أي شيء تريد. تقول: «الآن، ذلك الباب موجود، واضح كما لو أني رأيته. يجب ألا أفعل شيئًا سوى أن أعثر عليه!» حسنًا، لقد قرأت عن ذلك النوع من الأمور في الكتب، لكني لم أصادفه مطلقًا من قبل في الحياة الواقعية. عليك أن تذهب حيث ستكون مقدرًا حقَّ قدرك على الأرجح. أنت ببساطة مهدور هنا بيننا نحن الرفاق. فقط لو كان لي رأسك أيها الجرذ».

قاطعه الجرذ بقسوة إلى حدٍّ ما: «ولكن، بما أنك لا تحظى بمثله أفترض أنك ستجلس على الثلج طوال الليل وتتحدث؟ انهض في الحال وتعلّق بحبل الجرس ذاك الذي تراه هناك ورن الجرس بشدَّة، قدر استطاعتك حينما أطرق!»

في حين انقضَّ الجرذ على الباب بعصاه، وثب الخلد نحو حبل الجرس، أمسكه وتأرجح، قدماه مرتفعتان عن الأرض، ثم سمعا صوتًا عميقًا خافتًا يجيب من بعيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الرابع
السَّيد غُرير

انتظرا بصبر فترة بدت طويلة جدًّا، يضربان الأرض المغطاة بالثَّلج بأقدامهما بغية بثِّ الدفء فيهما. تناهى أخيرًا إلى سمعهما صوت الخطوات البطيئة المتثاقلة تقترب من الباب من الداخل. أخبر الخلد الجرذ أن الأمر يبدو كما لو أن شخصًا يسير منتعلًا خفين واسعين جدًّا وواطئي الكعب، وهذا كان ذكاء من الخلد لأن هذا ما كان الأمر عليه بالضَّبط.

سمعت جلبة مزلاج يرفع، وانفتح الباب قليلًا بما يكفي لرؤية خطم طويل وعينين ناعستين تطرفان.

قال صوت مبحوح ومرتاب: «الآن، هذا يحدث للمرة الثانية، سأغضب غضبًا شديدًا. من هذا هذه المرة الذي يزعج الناس في مثل هذه الليلة؟ تحدَّث!»

صرخ الجرذ: «أوه أيها الغرير، دعنا ندخل من فضلك. إنه أنا الجرذ ومعي صديقي الخلد، وقد ضللنا طريقنا في الثَّلج».

هتف الغرير بصوت مختلف تمامًا: «ماذا، الجرذ، رجلي الصَّغير العزيز! ادخلا في الحال. عجبًا، لا بدَّ أن تكونا هالكين. حسنًا، يا إلهي! تائهان في الثَّلج! وفي الغابة البرية أيضًا وفي مثل هذه الساعة من الليل! ادخلا بسرعة».

تهافت الحيوانان بعضهما على بعض من شدَّة توقهما إلى الدخول، وسمعا الباب يغلق خلفهما بفرح عظيم وانشراح.

حمل الغرير الذي ارتدى رداء نوم طويل وكان لخفيه بالفعل كعبان واطئان جدًا، في كفِّه شمعدان مسطح، وكان على الأرجح في طريقه إلى الفراش عندما دوَّى صوتهما بالنِّداء. نظر نحوهما بلطف وربَّت على رأسيهما. قال بنبرة أبويَّة: «هذه الليلة ليست مناسبة لخروج الحيوانات الصَّغيرة، أخشى أنك كنت على وشك القيام ببعض مقالبك ثانية يا جرذون. لكن تعال، تعال إلى المطبخ. ففيه نار ممتازة، وعشاء وكل شيء».

تقدمهما متثاقلًا حاملًا الضوء، وتبعاه يدفع كل منهما الآخر بترقُّب على امتداد ممر طويل معتم، ولأصدقكم القول، رث بلا جدال، إلى ما يشبه قاعة مركزية، منها استطاعا أن يريا ممرات متشعبة أخرى، باهتة وطويلة، تشبه الأنفاق، ممرات غامضة دون نهاية ظاهرة. وكان هناك أبواب في القاعة أيضًا، أبواب متينة من خشب البلوط، مريحة المظهر. طوَّح الغرير أحدها فاتحًا إياه، وفي الحال وجدوا أنفسهم في توهج ودفء مطبخ كبير تضيئه النَّار.

كانت الأرضية من القرميد الأحمر المهترئ، وعلى الموقد العريض اتقدت نار من جذوع الأشجار، بين مقعدين جذابين مدسوسين في الجدار، أبعد ما يكونا عن أي أثر لتيار هوائي. وفَّر عددًا من المقاعد المرتفعة الظهر بعضها مقابل بعض على كل

جانب من جانبي الموقد، والمزيد من أماكن الجلوس التي توفر الراحة والألفة لهذه الجلسة الودودة.. انتصبت في وسط الغرفة طاولة طويلة مصنوعة من ألواح خشبية بسيطة مرفوعة على مساند ووضعت مقاعد على كل جانب من جوانبها. عند أحد طرفيها، حيث دُفع كرسي ذو مسندين إلى الوراء، ووضعت بقايا عشاء الغرير البسيط ولكن الوافر في الوقت نفسه. لمعت صفوف من أطباق نظيفة على رفوف الخزانة في طرف الغرفة القصي، ومن الروافد في الأعلى تدلى اللحم وحزم الأعشاب المجففة وشباك البصل وسلال البيض. بدا مكانًا يمكن للأبطال أن يحتفلوا فيه بعد الانتصار، حيث يمكن لحصَّادين مرهقين أن يتراصوا بالعشرات على امتداد الطاولة ويواصلون احتفاءهم باختتام موسم الحصاد وحمل المحصول إلى البيت بمرح وغناء، أو حيث يمكن لصديقين اثنين أو ثلاثة أصدقاء من ذوي الميول البسيطة، الجلوس كما يحلو لهم يتناولون الطعام ويدخنون ويتحدثون برغد وامتنان. ابتسمت الأرض القرميدية الحمراء للسقف الدخاني، تبادلت المقاعد البلوطية اللامعة العتيقة نظرات البهجة بعضها مع بعض. ابتسمت أطباق على الخزانة لقدور على الرف ابتسامة عريضة، وومض ضوء النار الجذل وتلاعب على كل شيء بغير تمييز.

دفعهما الغرير اللطيف على مقعد ليدفأا نفسيهما أمام النَّار، وأمرهما بخلع معطفيهما وأحذيتهما المبللة. ثمَّ جلب لهما ردائي نوم وأخفاف، وغسل بنفسه ساق الخلد بماء دافئ ورتق الجرح بضمادة لاصقة، حتى أصبح كل شيء جيدًا كما لو أنه جديد، إن لم يكن أفضل من ذلك. في الضّوء المحتضن والحرارة، صارا دافئين وجافين أخيرًا، بسيقانهما المرهقة المرفوعة أمامهما وخشخشة الأطباق الموحية التي رتبت على الطاولة في الخلف، بدا للحيوانين اللذين قادتهما العاصفة، وكانا الآن في مرسى آمن، أن الغابة البرية الباردة وغير المطروقة التي تركوها للتو في الخارج، على مسافة أميال وأميال وكل ما وجب عليهما معاناته فيها حلم شبه منسي.

عندما شعرا بالدفء كليًّا أخيرًا، دعاهما الغرير إلى المائدة، حيث كان منهمكًا في تقديم وجبة طعام. شعرا في السَّابق بجوع شديد، لكن عندما شاهدا العشاء أخيرًا مفروشًا من أجلهما بالفعل، أصابتهما الحيرة على ماذا يجب أن ينقضَّا أولًا؛ فقد كان كل شيء جذابًا، وفيما إذا كانت الأشياء الأخرى ستنتظرهما بلطف إلى أن يتسنى لهما الوقت لكي يمنحاها عنايتهما. استحالت المحادثة وقتًا طويلًا، وعندما استؤنفت ببطء، كانت محادثة من النَّوع المؤسف الذي ينجم عن التحدث بفم ملآن. لم يبالِ الغرير بذلك النَّوع من الأمور على الإطلاق، ولم تثر انتباهه قط المرافق المستندة إلى الطاولة، أو إذا ما تحدث الجميع في وقت واحد. بما أنه كان بنفسه عازفًا عن المناسبات الاجتماعية، كان يعتقد أن هذه الأمور تقع في فئة الأشياء غير المهمة حقًا. (نعرف بالطبع أنه كان مخطئًا، وكانت نظرته محدودة جدًّا لأنها مهمة كثيرًا ولو أن شرح السبب قد يستغرق وقتًا طويلًا). جلس على كرسيه ذي المسندين عند رأس الطاولة وأومأ بوقار بين الحين والآخر، فيما روى له الحيوانان قصتهما، ولم يبد متفاجئًا أو مصدومًا من أي شيء ولم يقل قط: «أخبرتكما بذلك»، أو «هذا تمامًا

ما رددته دائمًا»، أو أشار إلى أنه كان عليهما أن يفعلا كذا وكذا أو ألا يفعلا شيئًا آخر. بدأ الخلد يشعر تجاهه بألفة شديدة.

عندما انتهى العشاء أخيرًا حقًا، وشعر كلٌّ منهما بأنه محشوٌّ بالطعام حدَّ الامتلاء وأنه أصبح بأمان الآن، ومع حلول هذا الوقت لم يكن يهتم ولو قيد أنملة لشيء أو لشخص، تجمعوا حول الجمرات المتوهجة من نار الحطب العظيمة، وفكروا في أن السَّهر حتى وقت متأخر جدًا مبهج جدًّا، وشعروا بالتخمة وثقة كبيرة بالنفس، وبعد أن تسامروا إلى حين عن أمور عامَّة، قال الغرير بحماسة: «الآن إذن! هاتِ ما لديك من أخبار في جهتك من العالم. كيف يبلي العلجوم الكبير؟»

قال الجرذ برصانة: «أوه، من سيئ إلى أسوأ»، فيما حاول الخلد الذي جلس على سَرج حصان ينعم بضوء النار، كعباه في مستوى أعلى من رأسه، أن يظهر الحزن بلباقة. «حادث تصادم نهاية الأسبوع الماضي حادث مروع. كما ترى، سوف يصرّ على القيادة بنفسه، لكنه غير مؤهَّل لذلك بشكل ميئوس منه. لو أنه فقط يوظِّف حيوانًا مدربًا جيدًا وثابتًا ومحترمًا، ويدفع له مرتبًا جيدًا، ويترك كل شيء له، سيكون على خير ما يرام. لكن لا، هو مقتنع بأنه مولود بالفطرة سائقًا ولا أحد يستطيع تعليمه أي شيء وكل البقية تتبع».

استفسر الغرير بكآبة: «كم عددها؟».

ردّ الجرذ متسائلًا: تقصد عدد الحوادث أم السيارات؟ أوه حسنًا، في النهاية هو الأمر نفسه مع العلجوم. هذا هو السَّابع. أما الآخرون، أنت تعرف مرأب قاربه؟ حسنًا، إنه يزدحم... يزدحم حرفيًا بحطام السيارات حتى السَّقف، لا يزيد حجم واحد منها عن قبعتك! هذا ينطبق على الستة الأخرى، بقدر ما يمكن معرفته عنها».

تدخَّل الخلد: «لقد وجب نقله إلى المستشفى ثلاث مرات، أما الغرامات التي وجب عليه دفعها، فمن المروع التفكير فيها».

واصل الجرذ: «نعم، وهذا جزء من المشكلة، جميعنا نعلم أن العلجوم غني، لكنه ليس مليونيرًا. وهو سائق سيئ على نحو بائس، وغير عابئ بالقانون وبالنظام. قتيلًا أم محطمًا، سيكون مصيره واحدًا من الأمرين عاجلًا أم آجلًا. أيها الغرير! نحن أصدقاؤه، أليس علينا أن نفعل شيئًا؟»

استغرق الغرير في تفكير قاسٍ بعض الوقت، وقال أخيرًا بصرامة إلى حدٍّ ما: «الآن، انظرا هنا! بالطبع تعلمان أن ليس بوسعي فعل أي شيء الآن؟»

وافق صديقاه على كلامه متفهمين تمامًا وجهة نظره. لا ينتظر من أي حيوان وفقًا لآداب السلوك الحيوانية أن يقوم بأي عمل حماسي أو بطولي أو حتى نشط على نحو معتدل في فصل الشِّتاء الراكد. الجميع خاملون، البعض نيام بالفعل. يرتبط الجميع بحالة الطقس إلى حدٍّ ما، والجميع يرتاحون من الأيام الجهيدة والليالي التي اختبرت خلالها كل عضلة من عضلاتهم بقسوة، وحفظت كل طاقة في مداها الكامل.

واصل الغرير: «حسنًا إذن! لكن ما إن تنقلب السَّنة حقًا وتصبح الليالي أقصر حيث يستيقظ المرء في منتصفها ويشعر بتململ ويرغب في أن ينهض ويعمل مع شروق

الشمس إن لم يكن قبل ذلك كما تعلمان!»

أومأ الحيوانان بجدية، لقد كانا يعرفان!

تابع الغرير: «حسنًا إذن، سوف نتعامل -أقصد أنت وأنا وصديقك الخلد هنا- مع العلجوم بجدية. لن نقبل بأي حماقة مهما كانت. سوف نعيده إلى رشده بالقوة إذا استدعت الحاجة. سوف نحوله إلى علجوم متعقل. سوف... أنت نعسان أيها الجرذ!»

قال الجرذ وقد انتفض مستيقظًا: «ليس أنا!»

قال الخلد ضاحكًا: «لقد غفا مرتين أو ثلاث منذ العشاء». وقد كان يشعر بأنه صاح تمامًا بل وأنه نشيط حتى ولو أنه لم يدرك السَّبب. كان السبب بالطبع أنه بطبيعة الحال حيوان تحت أرضي بالولادة والتربية، ناسبته حالة منزل الغرير تمامًا وجعلته يشعر بالراحة، بينما الجرذ الذي نام كل ليلة في غرفة نوم نوافذها مفتوحة على نهر هفهاف، شعر -بطبيعة الحال- بالجو ساكنًا ومستبدًا.

قال الغرير وهو ينهض ليجلب الشمعدانات: «حسنًا، حان الوقت لأن نخلد جميعًا إلى النوم، تعالا معي أنتما الاثنان وسأريكما مأوى كل منكما. وانهضا متى شئتما غدًا صباحًا، وتناولا الفطور عندما يحلو لكما ذلك!»

أرشد الغرير الحيوانين إلى غرفة طويلة بدا نصفها حجرة نوم ونصفها الآخر كان مخزنًا. احتلت مخازن الغرير الشَّتوية التي كانت مرئية في كل مكان بالفعل نصف مساحة الغرفة. أكوام من التفاح واللفت والبطاطا، وسلال ملأى بالمكسرات، وجرار العسل، لكن بدا السريران الصَّغيران الأبيضان على بقية الأرض ناعمين وجذابين، ورغم خشونة البياضات عليهما إلا أنها كانت نظيفة تفوح برائحة الخزامى الزكية، وبعد أن خلع الخلد وجرذ الماء ملابسهما خلال ثلاثين ثانية، تخبطا بين الشَّراشف في فرح عظيم ومسرة.

تبعًا لتوصيات الغرير الكريم، نزل الحيوانان المتعبان لتناول طعام الفطور في وقت متأخر من صباح اليوم التالي، ووجدا نارًا متوهجة تتقد في المطبخ، وقنفذين شابين اثنين جالسين على مقعد إلى الطاولة، يأكلان عصيدة الشُّوفان في طبقين خشبيين. رمى القنفذان ملعقتيهما ونهضا على أقدامهما وأحنيا رأسيهما باحترام عندما دخل الاثنان.

قال الجرذ بلطف: «اجلسا اجلسا، وأكملا تناول العصيدة. من أين أتيتما أيها الشَّابين؟ يخيَّل لي أنكما ضعتما في الثَّلج؟»

قال أكبر القنفذين باحترام: «نعم، من فضلك سيدي. أنا وبيلي الصَّغير هنا، كنَّا نحاول أن نجد طريقنا إلى المدرسة، طلبت أمي منا الذَّهاب، كان الطقس رديئًا جدًا، وبالطبع ضللنا طريقنا يا سيدي، وأصيب بيلي بالذعر وبكى لأنه صغير ورقيق القلب. وأخيرًا وجدنا أنفسنا أمام باب منزل السيد غرير الخلفي وتجاسرنا يا سيدي على قرعه لأن السيد غرير نبيل طيب القلب كما يعرف الجميع».

«أتفهَّم»، قال الجرذ وهو يقطع بنفسه بعض شرائح من طرف قديد اللحم، فيما وضع الخلد عدة بيضات في قدر صغير. وأضاف: «وكيف حال الطقس في الخارج؟ لست مضطرًا إلى مخاطبتي بـ«سيدي» كثيرًا جدًا».

قال القنفذ: «أوه سيئ جدًّا يا سيدي، كثافة الثلج مخيفة، ليس الوقت مناسبًا لخروج أمثالكم أيها السَّادة اليوم».

استفسر الخلد وهو يسخِّن ركوة القهوة أمام النار: «أين السَّيد غرير؟»

أجاب القنفذ: «ذهب إلى مكتبه يا سيدي، وقال إنه سيكون هذا الصَّباح منشغلًا بصفة خاصة، ولا ينبغي إزعاجه مهما كانت الأسباب».

كان هذا التفسير مفهومًا كليًّا لدى جميع الحاضرين. الحقيقة، كما تبين بالفعل، أنك عندما تعيش حياة مفعمة بنشاط مكثَّف لستة أشهر في السَّنة، وتنام فعليًا أو نسبيًّا خلال الأشهر الستة الأخرى، لا يمكنك خلال الفترة الأخيرة أن تتحجج بالنُّعاس على نحو مستمر عندما تكون محاطًا بالناس أو يكون لديك أشياء يجب تأديتها. يصبح العذر رتيبًا. عرفت الحيوانات جيدًا أن الغرير وقد تناول فطورًا شهيًا، انكفأ إلى مكتبه وجلس على كرسي ذي مسندين ورفع ساقيه على كرسي آخر وغطَّى وجهه بمنديل أحمر قطني، وكان «مشغولًا» على النحو المعتاد في هذا الوقت من السَّنة.

رنَّ جرس الباب الأمامي بصوت عال والجرذ الذي كان ملوثًا كثيرًا بالخبز المحمص المدهون بالزبدة، أرسل بيلي أصغر القنفذين ليرى من يرن جرس الباب. سمع صوت ضرب الأرض بالأرجل في القاعة وعاد بيلي في الحال متقدمًا ثعلب الماء الذي رمى نفسه على الجرذ بعناق وهتاف ترحاب محب.

غمغم الجرذ ملآن الفم: «ابتعد!».

قال ثعلب الماء بابتهاج: «اعتقدت أني لا بد أن أعثر عليك هنا بخير، كانوا جميعًا على طول ضفة النهر في حالة عظيمة من الذُّعر عندما وصلت هذا الصَّباح. لم يكن الجرذ في البيت مطلقًا طوال الليل، ولا حتى الخلد، قالا: «لا بدَّ أن أمرًا مروعًا حدث»، والثلج طمس جميع آثارك، بالطبع، لكني عرفت أن الناس عندما يكونون في أي مأزق غالبًا ما يقصدون الغرير، أو أن الغرير عرف بالأمر بطريقة ما، لذا جئت إلى هنا مباشرة، عبر الغابة البرية والثلج! يا إلهي! كان جيدًا المجيء عبر الثلج عندما كانت الشَّمس الحمراء تشرق وتظهر تجاه جذوع الأشجار السَّوداء! عندما تمضي في السُّكون، تنزلق بين الحين والآخر كتل ثلجية عن الأغصان وتنهار فجأة! وتجعلك تقفز وتجري باحثًا عن ملاذ. انبثقت قلاع ثلجية وكهوف كبيرة ثلجية في الليل دون سابق إنذار، وجسور ثلجية ومصاطب ومتاريس. كان يمكنني البقاء واللعب معها ساعات. تمزقت هنا وهناك أغصان عظيمة من ثقل الثلج، وطيور أبو الحناء حطت وحجلت عليها بطريقتها المرحة التيَّاهة، تمامًا كما لو أنهم فعلوا ذلك بأنفسهم. عبَر سلك متقطع من الإوز البري في الأعلى، عاليًا في السَّماء الشَّاحبة، وبعض الغربان دوَّمت فوق الأشجار، عاينت ورفرفت باتجاه

البيت مشمئزة، لكني لم ألتق بكائن عاقل لأسأل عن الأنباء. قرابة منتصف الطريق صادفت أرنبًا جالسًا على أرومة ينظف وجهه السخيف بكفيه. كان حيوانًا مذعورًا جدًّا عندما تسللت من خلفه ووضعت كفي الأمامية الثقيلة على كتفه. اضطررت إلى تقييد رأسه مرة أو مرتين لأحصل منه على أي كلام مفيد على الإطلاق. أخيرًا تمكنت من أن أستخلص منه أن واحدًا منهم شاهد الخلد في الغابة البرية الليلة الماضية. قال إن هذا الأمر كان حديث الجحور؛ كيف أن الخلد، صديق الجرذ المميز، كان في مأزق بغيض وضلَّ طريقه، و«كانوا» في الخارج للصيد ويحثونه بشكل مستفز مرارًا وتكرارًا. سألت: «إذن، لماذا لم يفعل أحدكم شيئًا؟ ربما لا تتمتعون بذكاء كافٍ؛ إذ المئات والمئات منكم أيها الرفاق من ذوي الأجساد الضخمة والسمينة كالزبدة، وجحوركم تتوالى في كل اتجاه، كان بوسعكم أن تأوونه في منازلكم وتجعلوه آمنًا ومرتاحًا، أو كان بوسعكم المحاولة على الأقل». اكتفى بالقول: «ماذا؟ نحن؟ نفعل شيئًا؟ نحن الأرانب؟» لذا قيدته ثانية وتركته. لم يكن هناك شيء آخر يمكن فعله. بكل الأحوال قد تعلمت شيئًا: لو حظيت بلقاء أحد غيره لكنت علمت أشياء أخرى، أو كنت لقنته درسًا».

سأل الخلد وقد عاوده شيء من رعب اليوم السابق عند ذكر الغابة البرية: «ألم تكن متوترًا على الإطلاق؟»

افترَّ ثغر ثعلب الماء عن طقم أسنان لماعة بيضاء قوية عندما ضحك: «متوترًا؟! لكنت شعرت بالتوتر إذا حاول أي منهم العبث معي بأي شيء. أيها الخلد، اقلِ لي عددًا من شرائح اللحم وكن رجلًا صغيرًا طيبًا كما أنت. أنا جائع جدًّا، ولديَّ ما أقوله للجرذ هنا. لم أرَه منذ دهر».

وهكذا بعد أن قطع الخلد الطيب عددًا من شرائح اللحم، كلَّف القنفذين بقليها وعاد إلى فطوره فيما تحدث ثعلب الماء والجرذ بحماس برأسين متقاربين باندفاع حديثًا طويلًا لا ينتهي، وظل الحديث يتدفق كتدفق مياه النهر.

كان طبق اللحم المقلي قد أفرغ للتو فطلب المزيد، عندما دخل الغرير متثائبًا يفرك عينيه، حياهم جميعًا بأسلوبه الهادئ البسيط موجهًا استفسارات لطيفة للجميع. قال لثعلب الماء: «لا بدَّ أن وقت الغداء يقترب، لذا من الأفضل أن تتوقف وتتناوله معنا، لا بدَّ أنك جائع في هذا الصَّباح البارد».

أجاب ثعلب الماء وهو يغمز الخلد: «أجل! مرأى هذين القنفذين الشَّابين الشَّرهين وهما يلتهمان اللحم المقلي يجعلني لا محالة أتضور جوعًا».

نظر القنفذان اللذان بدأا للتو يتضوران جوعًا ثانية بعد العصيدة، وبعد العمل الشاق في القلي، بخجل إلى السيد غرير ولكن خجلهما الشديد منعهما من قول أي شيء فلم ينطقا بكلمة.

قال الغرير بلطف: «أيها القنفذين، اذهبا إلى البيت إلى والدتكما، سأرسل معكما شخصًا ليدلكما على الطريق. أعتقد أنكما لن ترغبا بتناول العشاء اليوم».

نفحهما نصف شلن وتربيتة على الرأس ومضيا باحترام شديد ملوحين بقبعتيهما وبمس النَّاصية.

في الحال جلسوا جميعًا لتناول طعام الغداء معًا. وجد الخلد نفسه جالسًا قرب السَّيد غرير، ولما كان الاثنان الآخران لا يزالان مستغرقين في الثرثرة عن النهر لم يكن بوسع شيء أن يصرفهما عنها، انتهز الفرصة ليخبر الغرير أن كل شيء بدا له مريحًا وشبيهًا بالبيت. قال: «ما إن تكون تحت الأرض تعلم بالضَّبط أين أنت. لا يمكن أن يصيبك شيء، ولا يمكن أن يصل إليك شيء. أنت سيد نفسك كليًا وليس عليك أن تستشير أحدًا أو تهتم لما يقال. مع ذلك تمضي الأشياء في الأعلى وأنت لا تمانع ولا تهتم لأمرها. تذهب إلى الأعلى عندما ترغب في ذلك، وهناك ستكون الأشياء في انتظارك».

افترَّ ثغر الغرير بوضوح له وأجاب: «هذا بالضَّبط ما أقوله، لا أمن أو سلام وطمأنينة سوى تحت الأرض. ثم إذا كبرت أفكارك ورغبت في أن تتوسع، عجبًا، حفر وخدش وها أنت ذا! إذا شعرت أن منزلك كبير قليلًا تسد جحرًا أو اثنين وها أنت ذا ثانية! ما من بنائين، أو تجار، ما من ملحوظات ينقلها إليك أشخاص ينظرون من فوق جدارك، بالإضافة إلى ذلك ما من طقس رديء. انظر إلى الجرذ الآن. زوج من الأقدام تفصله عن مياه الفيضان، وعليه أن يستأجر مسكنًا وينتقل إليه، غير مريح، في موقع غير مناسب، وباهظ التكلفة بصورة مرعبة. خذ العلجوم. لا أقول شيئًا ضدَّ قصر العلجوم الريفي، إنه أفضل منزل في هذه الأنحاء على الإطلاق، لكن لنفترض أن النار اندلعت، أين العلجوم؟ لنفترض أن الآجر نسف، أو الجدران غرقت أو تصدعت، أو النوافذ تحطمت، أين العلجوم؟ لنفترض أن الغرف كانت عرضة للتيارات الهوائية -أنا شخصيًا أكره الرياح - أين العلجوم؟ لا، المكان في الأعلى وخارج الأبواب جيد بما فيه الكفاية للتجول وكي يحصل المرء على قوته، وتحت الأرض هو المكان الذي تعود إليه أخيرًا، تلك هي فكرتي عن البيوت!»

وافق الخلد بحماسة، وأصبح الغرير بالنتيجة ودودًا جدًا معه. قال: «عندما ننتهي من تناول طعام الغداء سوف أصطحبك في جولة حول بيتي الصَّغير هذا. أنا واثق من أنه سيروق لك. أنت تفهم ما يجب أن يكون عليه المعمار الداخلي، أنت تفهم حقًا».

ومن هنا بعد تناول الغداء عندما استقر الاثنان الآخران في ركن المدخنة وقد بدأا نقاشًا ساخنا عن موضوع الحنكليس، أضاء الغرير فانوسًا ورحَّب بالخلد ليتبعه. اجتازا القاعة وعبرا واحدًا من الأنفاق الرئيسة ومنح ضوء الفانوس المتذبذب لمحات على جانبي الغرف الكبيرة والصَّغيرة، بعض منها مجرد خزائن، والأخرى عريضة وفخمة مثل غرفة طعام العلجوم تقريبًا. قادهما ممر ضيق بزوايا قائمة إلى ممر آخر وهنا تكرر الأمر نفسه. ذهل الخلد من الحجم واتساع وتشعب كل شيء، من طول الممرات المعتمة، القناطر المتينة لغرف المخازن المكتظة، البنيان في كل مكان، الأعمدة والأقواس والأرصفة. قال أخيرًا: «متى وجدت أيها الغرير الوقت والقوة لفعل كل هذا، إنه مذهل!»

قال الغرير ببساطة: «قد يكون الأمر مذهلًا بالفعل لو أنجزته بنفسي، لكن في الواقع لم أفعل شيئًا، حسبي أني نظّفت الممرات والغرف بقدر حاجتي إليهم. هناك عدد كبير منها في شتى الاتجاهات. أرى أنك لا تفهم ولا بدَّ أن أشرح لك. حسنًا، منذ وقت بعيد جدًا في البقعة التي تلوح فيها الغابة البرية الآن، قبل أن تكون قد زرعت ونمت إلى ما هي عليه الآن، كان هناك مدينة... مدينة للناس كما تعلم. عاشوا هنا حيث نقف، ومشوا وتحدثوا وناموا وأنجزوا أعمالهم. هنا وضعوا أحصنتهم في الإسطبلات وجهزوا الولائم، من هنا انطلقوا للقتال أو قادوا للتجارة. كانوا أناسًا أقوياء وبنائين أغنياء وعظماء. لقد واصلوا البناء حتى آخر لحظة لأنهم اعتقدوا أن مدينتهم ستبقى إلى الأبد».

سأل الخلد: «لكن ماذا حلَّ بهم جميعًا؟»

قال الغرير: «من يستطيع أن يعرف؟ الناس يأتون ويقيمون إلى حين ثم يزدهرون ويبنون ويرحلون. إنها طريقتهم. لكننا نبقى. قيل لي إن الأغرة وجدوا هنا قبل وقت طويل من ظهور تلك المدينة. والآن يوجد أغرة هنا ثانية. نحن مجموعة صامدة ويمكننا أن ننتقل إلى حين، لكننا ننتظر ونتحلى بالصبر ونعود. وهكذا سيكون الأمر على الدوام».

قال الخلد: «حسنًا، وعندما رحل هؤلاء الناس أخيرًا؟»

واصل الغرير: «عندما رحلوا تولَّت الرياح العاتية والمطر المستمر الأمر بصبر ودون توقُّف سنة بعد أخرى. ربما نكون نحن الأغرة أيضًا، بطريقتنا المتواضعة قد ساهمنا في القليل، من يعلم؟ كان كل شيء ينهار تدريجيًا، دمر وسوي بالأرض واختفى. ثم عاد كل شيء يعلو تدريجيًا، مثلما تنمو البذار وتتحول إلى شجيرات والشُّجيرات إلى أشجار غابة، وزحف العليق والسَّرخس لمد يد العون. ارتفع عفن الأوراق وطمس، جلبت جداول في سيولها الشِّتائية الرمل والتراب لتسد وتغطي، ومع مرور الوقت أصبح بيتنا جاهزًا من جديد وانتقلنا. والأمر نفسه حدث على السَّطح. أتت حيوانات أحبت شكل المكان، اتخذت لها مساكن، استقرت وتوسَّعت وازدهرت. لم يكترثوا للماضي، لم يفعلوا قط، كانوا منهمكين جدًّا. كان المكان بطبيعة الحال مسنمًا قليلًا وكثير الهضاب ومملوءًا بالفجوات، لكن تلك كانت مزيّة إلى حد ما؛ إذ لم يفكروا في المستقبل أيضًا، المستقبل عندما سينتقل الناس ثانية ربما -إلى حين- كما قد يكون مرجحًا. الغابة البرية مأهولة جيِّدا جدًا الآن بكل ما هو معتاد، منهم الصالح والطالح واللامبالي، أنا لا أسمي أحدًا. لتصنع عالمًا أنت بحاجة إلى جميع الأنواع. لكني أتخيل أنك تعرف شيئًا عنهم بنفسك هذه المرة».

قال الخلد وقد سرت في أوصاله رعشة خفيفة: «هذا صحيح حقًا».

قال الغرير مربتًا على كتفه: «حسنًا، حسنًا، كما ترى تلك كانت تجربتك الأولى معهم. هم ليسوا بالغي السُّوء حقًا، وعلينا جميعًا أن نعيش وندعهم يعيشون. لكن غدًا سأذيع النبأ وأظن أنك لن تقاسي المزيد من المتاعب. يسير جميع أصدقائي أينما شاؤوا في هذا الريف، وإلا فإني أعرف ماذا سأفعل!»

عندما عادا إلى المطبخ ثانية وجدا الجرذ يذرع المكان جيئة وذهابًا متململًا. كان الجو تحت الأرض يضيق عليه ويثير أعصابه، وبدا أنه يخشى من أن يهرب النهر إن لم يكن موجودًا للاعتناء به. لذا، ارتدى معطفه وأقحم مسدسيه في حزامه ثانية.

قال بقلق حالما وقع نظره عليهما: «تعال أيها الخلد، علينا الذَّهاب، إذ لا يزال ضوء النهار ساطعًا. لا أريد أن أمضي ليلة أخرى في الغابة البرية ثانية».

قال ثعلب الماء: «سيكون كل شيء على ما يرام يا صديقي العزيز، سآتي معك، كما أني أعرف الطريق عن ظهر قلب، وإذا كان هناك من رأس ينبغي أن يضرب يمكنك بثقة أن تعتمد عليَّ في ضربه».

أضاف الغرير بصفاء: «صدقني لا شيء يستدعي القلق يا جرذون، ممراتي تمتد أبعد مما تظن، ولدي أماكن للاختباء إلى حافة الغابة بعدة اتجاهات، ولو أني لا أهتم بأن يعرف الجميع بأمرها. عندما ينبغي لك الذهاب حقًا لا بد أن تغادر عبر أحد الطرق المختصرة. في هذه الأثناء هوِّن عليك واجلس ثانية».

برغم ذلك كان الجرذ لا يزال راغبًا في الذهاب والاعتناء بنهره، لذا شقَّ الغرير الطريق متناولًا فانوسه ثانية على طول نفق رطب وفاسد الهواء، تعرج وانحدر، جزء منه مقنطر، وجزء منه منحوت في صخر صلب لمسافة مرهقة بدت أنها أميال. أخيرًا بدأ نور النهار يظهر بارتباك عبر النمو المتشابك الذي يغطي فوهة النفق، وبينما كان الغرير يشيعهم مودعًا وداعًا معجَّلًا، دفعهما بسرعة عبر الفوهة وجعل كل شيء يبدو طبيعيًا قدر الإمكان ثانية مع نباتات معترشة، أغصان مقطوعة وأوراق يابسة، ثم انسحب.

وجدوا أنفسهم واقفين على حافَّة الغابة البرية بالذَّات. من خلفهم تكدست صخور وعليق وجذور أشجار وتشابكت بتشوش، في المقدمة، مساحة فسيحة من حقول هادئة مطوقة بخطوط من أسيجة سوداء على الثَّلج، وبعيدًا إلى الأمام، بريق النهر القديم المألوف، فيما تدلت الشَّمس الشِّتوية حمراء ومنخفضة في الأفق. تولى ثعلب الماء مسؤولية الفريق بما أنه يعرف الدروب جميعها، وساروا خلفه في خط مباشر مسافة بعيدة. عندما توقفوا هناك هنيهة ونظروا إلى الوراء، رأوا كتلة الغابة البرية كاملة وكثيفة ومتوعِّدة ومتراصَّة ومتوضِّعة بتجهم في المحيطات البيضاء الشَّاسعة، التفتوا في الوقت نفسه متوجهين إلى البيت بسرعة، إلى ضوء النَّار والأشياء المألوفة التي لعب عليها، إلى الصوت مدويًا بابتهاج خارج نافذتهم، إلى النهر الذي عرفوه ووثقوا به في كل أحواله ولم يثر فيهم الذعر قط من أي شيء مفاجئ.

ولما أسرع خطاه، يتطلع باشتياق إلى اللحظة التي سيكون فيها في البيت مرة أخرى بين الأشياء التي ألفها وأحبها، فهم الخلد بوضوح أنه حيوان ينتمي إلى الحقول المحروثة وأسيجة الأشجار، مرتبط بالأخدود المحروث والمرعى المطروق، الدرب الذي يطول فيه السمر وأرض البستان المزروعة. وإلا فإن القسوة والتحمل العنيد أو اصطدام الصراع الواقعي ترافق مع الطبيعة في خشونتها، لا بدَّ أن يكون حكيمًا ويلزم الأماكن البهيجة ضمن الحدود المرسومة له، ففيها، على طريقتها، ما يكفي من المغامرات لتستمر مدى الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الخامس

ما أحلى الرجوع إلى البيت

ركضت الخراف وتجمَّع بعضها مع بعض أمام أسيجة الحظيرة، تنفخ فتحات أنوفها الواهية وتدوس بحوافرها الأمامية النَّحيلة، رؤوسها ملقاة إلى الخلف ويتصاعد بخار خفيف من الحظيرة المزدحمة نحو الهواء الشديد البرودة، جدَّ الحيوانان السَّير منشرحي النفس، يثرثران ويضحكان كثيرًا. كانا عائدين عبر الريف بعد أن أمضيا يومًا طويلًا في الخارج مع ثعلب الماء، يتصيدون ويستكشفون على الهضاب الواسعة، حيث توجد البدايات الأولى الصَّغيرة لعدة جداول رافده لنهرهم، وكانت ظلال نهار الشّتاء القصير تدنو منهما، وكان بانتظارهما مع ذلك مسافة عليهما اجتيازها. فيما كانا يتئدان في مشيهما عشوائيًّا عبر الحرث، سمعا صوت الخراف وتوجها نحوها، والآن وجدا مسارًا مطروقًا ينطلق من حظيرة الخراف، جعل من السير مهمة خفيفة، وأجاب عن ذلك الاستفسار الصَّغير الذي تضمره الحيوانات جميعًا، قائلًا بوضوح: «نعم، صحيح تمامًا، هذا يؤدي إلى البيت!»

«يبدو الأمر كما لو أننا متجهان إلى قرية ما»، قال الخلد بارتياب بعض الشَّيء وهو يبطئ الخطو، عندما سلمهما الأثر الذي تحول مع الوقت إلى درب ثم تطور إلى ممر ضيق، إلى عهدة طريق ممهد جيدًا الآن. لم تتمسك الحيوانات بالقرى وطرقها السَّريعة المطروقة بكثافة، بل اتخذت مجرى مستقلًا بصرف النظر عن الكنائس، أو مكتب البريد، أو دار البلدية.

قال الجرذ: «أوه، لا يهم! في هذا الفصل من السَّنة يكون الجميع بأمان في الداخل في هذه الساعة، يجلسون حول النَّار، رجالًا ونساءً وأطفالًا، كلابًا وقططًا، الجميع. سوف نتسلل دون متاعب، دونما إزعاج أو كدر، ويمكننا أن نختلس النظر إليهم عبر نوافذهم لو تحب، ونرى ماذا يفعلون».

كان هبوط ليل منتصف شهر كانون الأول الخاطف قد اكتنف القرية الصَّغيرة تمامًا عندما اقتربا منها بخطى وئيدة على أول طبقة رقيقة من الثَّلج النَّاعم. لم يكن ليرى إلا القليل عدا مربعات من أحمر برتقالي داجٍ على جانبي الشَّارع، حيث فاض ضوء النَّار أو ضوء المصباح في كل كوخ من النوافذ البابية على العالم المظلم دونها. كانت معظم النوافذ المنخفضة المتشابكة خالية من السَّتائر، واستطاع الناظرون من الخارج رؤية القاطنين متجمعين حول طاولة الشَّاي، منهمكين في عمل يدوي، أو يتحدثون مطلقين الضَّحكات والإيماءات، وقد امتلك كل واحد منهم تلك النعم الطيبة وهي آخر ما يلتقطه الممثل الماهر، النعم الطبيعية التي تترافق مع الغياب التام للملاحظة. بينما كانا ينتقلان على هواهما من مسرح إلى آخر، تراءت في عيني المشاهدين البعيدين عن البيت مسحة من الحزن عندما شاهدا قطَّة تلاطف طفلًا ناعسًا حُمل ووضع في السَّرير، أو رجلًا متعبًا تمدَّد وقد نفض غليونه على طرف جمرة تحترق.

ولكن حين مرّا بإحدى النّوافذ الصَّغيرة التي أسدل ستارها لتصير قطعة شفافة وصافية من الليل، تملكهما الإحساس بالبيت وبالعالم الصَّغير المحجوب ضمن الجدران، حيث ظل عالم الطبيعة الأكبر المرهق للأعصاب المنسي في الخارج، هو الأكثر نبضًا. تدلى قريبًا من السِّتارة البيضاء قفص عصفور، ظلّه منعكس بوضوح، كل سلك ومجثم وملحق ظاهر للعيان وقابل للتمييز، حتى قطعة السُّكر المثلمة الحواف من اليوم المنصرم. في المجثم المتوسط بدا العصفور الأزغب، وقد دس رأسه جيدًا في الريش، قريبًا جدًا منهما كما لو لتسهل ملاطفته، لو حاولا ذلك، حتى الأطراف الدقيقة لريشه المنتفخ مرسومة بوضوح على الشَّاشة المضاءة. عندما نظرا، اضطرب الطائر الصَّغير النَّاعس منزعجًا، استيقظ ونفض نفسه ثم رفع رأسه. استطاعا رؤية فرجة منقاره الصَّغير عندما تثاءب بملل، تلفت من حوله، ثم أقرَّ رأسه في ظهره ثانية، فيما تراجع الريش المكدَّر تدريجيًا إلى سكون تام. ثم هبَّة ريح مريرة ضربتهما في نقرتيهما، أيقظتهما لسعة صغيرة من مطر متجمد على الجلد كما لو من حلم، وعرفا أن أصابع أقدامهما باردة وسيقانهما متعبة وتفصلهما عن بيتهما البعيد طريق مرهقة.

ما إن تجاوزا القرية، حيث انقطعت الأكواخ فجأة على كلا جانبي الطريق، استطاعا أن يشما عبر الظلام رائحة الحقول الأليفة ثانية، واستجمعا قواهما لقطع آخر امتداد طويل، الامتداد الذي يقود إلى البيت، الامتداد الذي نعرف أنه لا بدَّ سينتهي، من سماع خشخشة مزلاج الباب أحيانًا، من ضوء النار المفاجئ، ومرأى الأشياء المألوفة تحيينا مثل مسافرين طال غيابنا فيما وراء البحار. تهاديا في سيرهما قدمًا بثبات وبصمت، كل واحد منهما مستغرق في أفكاره الخاصَّة. جرت أفكار الخلد في قدر كبير منها حول العشاء، لما كانت الظلمة حالكة، وكان كل شيء بالنسبة إليه ريف غريب بقدر ما عرف، وكان يتبع مطيعًا في أعقاب الجرذ، تاركًا القيادة كليًا له. أما الجرذ، فكان يتقدمه قليلًا كما جرت عادته، كتفاه محنيتان، عيناه مثبتتان على الطريق الرمادي المستقيم أمامه، لذا لم ينتبه للخلد المسكين عندما باغتته فجأة النداءات واستولت عليه مثل صدمة كهربائية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نحن الذين فقدنا منذ زمن بعيد أكثر حواسنا الجسمانية براعة، لا نملك مصطلحات مناسبة للتعبير عن اتصالات الحيوانات المتبادلة مع محيطها، من الأحياء أو بخلاف ذلك، ولا نملك سوى كلمة «شمَّ» على سبيل المثال، لنضمن الحيز كله من الإثارات الدقيقة التي تهمهم في أنف الحيوان ليل نهار، تستحضر وتحذّر وتحرّض وتطارد. كان أحد هذه النِّداءات الغامضة الخيالية من العدم بلغ الخلد فجأة في جنح الظلام، وجعله يرتعش بازدياد من مناشدته المألوفة، حتى قبل أن يتمكن من تذكّر ماهيته بوضوح. توقَّف متجمدًا في دربه، يبحث أنفه جاهدًا هنا وهناك كي يعيد التقاط الخيط الدقيق، التيار البرقي الذي أثَّر عليه بقوة شديدة. لحظة والتقطه ثانية وجاء معه التذكر هذه المرة في طوفانه الشَّامل.

البيت! كان ذلك ما عنته تلك الدَّعوات الملاطفة، تلك اللمسات النَّاعمة المبعوثة عبر الهواء، تلك الأيدي الصَّغيرة غير المرئية كلها تشد وتسحب في اتجاه واحد! عجبًا،

لا بد أنه كان قريبًا من بيته القديم تمامًا في تلك اللحظة، بيته الذي هجره على عجل ولم يرَه ثانية قط، ذلك اليوم عندما عثر على النهر لأول مرة! والآن كان يرسل كشافته ورسله لالتقاطه وجلبه إلى الدَّاخل. لم يفكر فيه منذ هربه في ذلك الصَّباح المشرق إلا بالكاد، كان مستغرقًا في حياته الجديدة، في كل متعها وغرائبها وتجاربها الجديدة والفاتنة. الآن مع هبَّة من ذكريات قديمة، انتصب بوضوح شديد أمامه في الظلام! إنه رث حقًا وصغير ومؤثث بأثاث فقير. ومع ذلك، بيته؛ البيت الذي صنعه لنفسه، البيت الذي كان سعيدًا جدًا بالعودة إليه بعد يوم العمل. والبيت الذي كان سعيدًا بجلاء معه أيضًا، وكان يفتقده وأراده أن يعود، وكان يخبره بذلك بحزن عبر أنفه مؤنِّبًا، لكن دون مرارة أو غضب، فقط بتذكير حزين أنه موجود ويريده.

كان النِّداء واضحًا، كانت الدَّعوات صريحة. لا بد أن يستجيب لها في الحال ويذهب.

نادى مفعمًا بالانفعال المبهج: «يا جرذون! توقَّف! عد! أريدك بسرعة!»

أجاب الجرذ بابتهاج وهو لا يزال يتهادى في مشيته: «أوه، تعال أيها الخلد، هيا!»

ابتهل الخلد المسكين بقلب ملتاع: «من فضلك توقَّف، يا جرذون! أنت لا تفهم! إنه بيتي، بيتي القديم! لقد شممت رائحته مصادفة، إنه قريب من هنا، حقًا قريب جدًا. ويجب أن أذهب إليه، يجب علي، يجب! أوه، عد، يا جرذون! من فضلك، من فضلك عد!»

كان الجرذ في هذا الوقت متقدمًا جدًا، بعيدًا جدًا فلم يستطع أن يسمع بوضوح ما كان ينادي به الخلد، بعيدًا جدًا فلم يستطِع أن يميز نبرة النداء المؤلم الحادة في صوته. وكان مأخوذًا بالطقس، لأنه هو أيضًا، استطاع أن يشم شيئًا... شيئًا بارتياب مثل اقتراب هطول الثلج.

رد عليه: «أيها الخلد، يمكنك ألا تتوقف الآن، حقًا! سنعود إليه غدًا، مهما كان ما عثرت عليه. أما أنا فلا أجرؤ على التوقف الآن، الوقت متأخر والثلج سينهمر ثانية، وأنا لست واثقًا من الطريق! وأريد أنفك أيها الخلد، لذا تعال سريعًا، أيها الرفيق الجيد!» وحث الجرذ السير قدمًا في طريقه دون أن ينتظر جوابًا.

وقف الخلد المسكين وحيدًا في الطريق، ممزق القلب، وأخذ نشيج كبير يتجمع في مكان ما في أعماقه؛ عرف أنه سيثب إلى السَّطح في الحال في انفلات انفعالي. لكن حتى في ظل مثل هذا الاختبار بقي إخلاصه لصديقه ثابتًا. لم يحلم ولو للحظة بالتخلي عنه. في هذه الأثناء، هبَّت رائحة بيته القديم، همست وتوسلت، وأخيرًا طالبت به بإلحاح. لم يجرؤ على التواني مدة أطول ضمن حلقتها السِّحرية. بالتواء مزق نياط قلبه وضع وجهه على الطريق وتبع أثر الجرذ بإذعان، في حين وبَّخته روائح خفيفة باهتة لا تزال تعقب أنفه المنسحب، على صداقته الجديدة ونسيانه القاسي.

بعد عناء لحق بالجرذ غير المرتاب الذي أخذ يثرثر بابتهاج عن الأمور التي يمكنهما القيام بها لدى عودتهما، وكم ستكون نار الحطب في الردهة مبهجة، وأي عشاء رغب في تناوله، غير منتبه قط لصمت رفيقه وحالته النفسية المؤلمة. أخيرًا مع ذلك عندما قطعا مسافة معقولة أخرى وكانا يمران ببعض جذوع الأشجار عند حافة أيكة تحد الطريق، توقَّف وقال بلطف: «انظر هنا أيها الخلد، أيها الفتى الكبير، تبدو مرهقًا جدًّا. لم يبقَ لديك قوة للكلام وتجر قدميك الثقيلتين كالرصاص، سنجلس هنا لدقيقة ونرتاح. توقف نزول الثلج الآن وانتهى الشطر الأكبر من رحلتنا».

انهار الخلد يائسًا على جذع شجرة وحاول تمالك نفسه، لأنه شعر أن النشيج بالتأكيد قادم. النشيج الذي تصارع معه طويلًا، أبى أن ينهزم. شق طريقه صعودًا نحو الهواء ثم أكثر فأكثر، كثيفًا وسريعًا إلى أن استسلم الخلد المسكين أخيرًا وبكى بحرية وبعجز وبصراحة، الآن وقد عرف أن كل شيء انتهى وقد خسر ما كان يمكن أن يقال بصعوبة أنه وجد. لم يجرؤ الجرذ التحدث إلى حين؛ فقد كان مذهولًا ومفزوعًا من عنف نوبة الجزع التي طرأت على الخلد. قال أخيرًا بهدوء شديد وتعاطف: «ما الأمر أيها الرفيق الكبير؟ ما الأمر مهما يكون؟ أخبرني بمشكلتك ودعني أرى ما يمكنني فعله».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجد الخلد المسكين صعوبة في التفوه بأي كلمة بين ثورات صدره التي تتالت بسرعة كبيرة وأوقفت الكلام وخنقته عندما جاء. واصل النشيج أخيرًا متقطعًا: «أعرف أنه مكان صغير ورث وأغبر، ليس مثل مساكنك المريحة أو قصر العلجوم الجميل أو منزل الغرير الكبير، لكنه كان بيتي الصَّغير وكنت مولعًا به، وذهبت ونسيت أمره تمامًا ثم شممت رائحته فجأة على الطريق عندما ناديتك. ما كنت لتصغي أيها الجرذ، وعاد كل شيء إليَّ دفعة واحدة، وأردته! يا إلهي، يا إلهي! وعندما لم تلتفت يا جرذون -وكان عليَّ أن أتركه ولو أني كنت أشم رائحته طوال الوقت- ظننت أن قلبي سيتحطم. ربما كنا ذهبنا وألقينا نظره إليه يا جرذون -فقط نظرة واحدة- كان قريبًا لكنك لم تلتفت، لم تلتفت، وا لهفتاه! وا لهفتاه!»

جلب التذكر أمواجًا يانعة من الأسى، واستولى النشيج عليه ثانية تمامًا مانعًا المزيد من الكلام.

حدَّق الجرذ مباشرة أمامه، لم ينبس بكلمة، فقط يربت على كتف الخلد بلطف. بعد حين تمتم بكآبة: «أفهم كل شيء الآن! كم كنت مستهترًا! مستهتر -هذا أنا! فقط مستهتر- مجرد مستهتر!»

انتظر حتى صار نشيج الخلد أقل عصفًا تدريجيًّا وأكثر تواترًا، انتظر إلى أن صار يشهق بشكل متتابع أخيرًا ويجهش ببكاء متقطع. ثم نهض عن مقعده وقال مشيرًا بشكل طائش: «حسنًا، الآن من الأفضل حقًا أن نواصل السير، أيها الرجل الكبير!» انطلق مرة أخرى على الطريق، على الدَّرب الشاق الذي جاءا منه.

صاح الخلد المغرورق بالدموع وهو يرفع بصره فزعًا: «إلى أين أنت ذاهب يا جرذون؟»

أجاب الجرذ بلطف: «سنعثر على بيتك ذاك أيها الرفيق الكبير، لذا يفضل أن تأتي لأن العثور عليه سيستغرق بعض الوقت وسنحتاج إلى أنفك».

صاح الخلد وهو ينهض ويسرع خلفه: «أوه، عد يا جرذون، هيا! أقول لك إن هذا لا يفيد! لقد فات الأوان والظلمة مدلهمة والمكان بعيد جدًا والثَّلج قادم! وأنا... أنا لم أقصد قط أن أخبرك بمشاعري نحوه، لقد فقدت السيطرة وحدث هذا خطأ! ثم ما بك لا تفكر في ضفَّة النهر وفي عشائك!»

ردّ الجرذ بحماس: «دعك من ضفَّة النهر والعشاء أيضًا! أقول لك سأجد هذا المكان الآن، لو بقيت طوال الليل في الخارج، لذا ابتهج أيها الشاب وخذ بذراعي وسنعود سريعًا جدًا إلى هناك ثانية».

تجشم الخلد، الذي كان لا يزال يشهق ويتوسل رافضًا، عناء اللحاق بصاحبه المستبد عائدًا على طول الطريق، لكن صاحبه الذي سعى لتسليته بأحاديث متدفقة ومبهجة وطُرف، كان كفيلًا ليعيد إليه مزاجه ويخفف عنه مشقة الطريق المرهق وطوله. عندما أخيرًا بدا للجرذ أنهما لا بد أن يقتربا من ذلك الجزء من الطريق حيث توقَّف الخلد وقال: «الآن لا مزيد من الكلام. علينا العمل! استعمل أنفك واحصر تفكيرك في ما تشمه».

تقدما بصمت مسافة قصيرة عندما أحس الجرذ فجأة برعشة كهربائية خفيفة في ذراعه التي كانت موصولة بذراع الخلد، كانت تسري في جسد الحيوان. انسحب في الحال وتراجع خطوة وانتظر بانتباه تام.

كانت الإشارات تبثّ في اتجاههما.

تصلب الخلد في مكانه للحظة، بينما تحسس أنفه المرفوع المرتعش قليلًا الهواء.

ثم ركض إلى الأمام سريعًا مسافة قصيرة خطأ، تفحَّص، محاولة إلى الوراء، ثم تقدم ببطء ثابتًا واثقًا.

ظلّ الجرذ مضطربًا جدًّا قريبًا منه، عندما عبر الخلد خندقًا جافًا كما لو أنه سائر في نومه، زحف متسلقًا سياجًا، وشم طريقه على حقل مفتوح وغير مطروق وقاحل في ضوء النجوم الشَّاحب.

فجأة دون تحذير مسبق، غطس، لكن الجرذ كان متأهبًا، وفي الحال تبعه في نفق قاده إليه أنفه المعصوم بإخلاص.

كان مغلقًا وخاليًا من الهواء، وكانت الرائحة الأرضية نفاذة، وبدا للجرذ أن وقتًا طويلًا مر قبل أن يجتاز الممر ويتمكن من الوقوف منتصبًا، ويتمطط ويهز نفسه. أشعل الخلد عود ثقاب وبواسطة ضوئه رأى الجرذ أنهما واقفين في مكان مفتوح، نظيف ومفروش بالرمل تحت الأقدام، وبمواجهتهما مباشرة كان باب الخلد الرئيسي الصَّغير مكتوب فوق حبل جرس إلى الجانب: «مسكن الخلد» بأحرف قوطية.

أنزل الخلد فانوسًا معلقًا على مسمار في الجدار وأضاءه، والجرذ ينظر من حوله، رأى أنهما كانا في ساحة أمامية من نوع ما. وضع مقعد حديقة إلى جانب الباب وعلى الجانب الآخر محدلة، لأن الخلد الذي كان حيوانًا مرتبًا لم يستطع في أثناء وجوده في البيت تحمل أن تركل الحيوانات الأخرى أرضه وتحولها إلى مجاري صغيرة انتهت في أكوام ترابية. تدلت على الجدران سلال سلكية فيها سراخس، تتناوب مع حوامل فيها تماثيل من الجص لغاريبالدي، والطفل صموئيل، والملكة فكتوريا، وأبطال من إيطاليا الحديثة. امتد على أحد جوانب السَّاحة زقاق للعب البولِنغ ومقاعد على طوله وطاولات خشبية صغيرة عليها آثار دائرية ألمحت إلى أكواب المشروب. كان يوجد في الوسط بركة صغيرة مدورة فيها سمكة ذهبية ومحاطة بإطار من أصداف على شكل قلب. انتصب من مركز البركة بناء غريب مكسو بمزيد من الأصداف قلبية الشَّكل وتعلوه كرة زجاجية فضية كبيرة عكست كل شيء بشكل خاطئ، كان لها أثر ممتع جدًّا.

شعَّ وجه الخلد لمرأى كل هذه الأشياء العزيزة عليه جدًا، وأسرع الجرذ عبر الباب، أوقد مصباحًا في القاعة وألقى نظرة واحدة حول منزله القديم، رأى كل شيء تغطيه طبقة سميكة من الغبار، رأى المنظر المنزل الحزين المهجور الذي تم تجاهله وقتًا طويلًا، وأبعاده الضَّيقة الضئيلة، محتوياته الممزقة والرثَّة، انهار ثانية على كرسي في القاعة، يسند أنفه إلى كفيه. صرخ كئيبًا: «أوه يا جرذون! لماذا فعلتها أصلا؟ لماذا جلبتك إلى هذا المكان الصَّغير البارد الفقير في ليلة مثل هذه، في حين قد تكون على ضفَّة النهر في مثل هذا الوقت تدفئ أصابع قدميك أمام نار ملتهبة وكل أشيائك اللطيفة من حولك!»

لم يكترث الجرذ لتأنيب ضميره المحزن. كان يجري هنا وهناك، ويفتح الأبواب، ويعاين الغرف والخزائن، ويشعل المصابيح والشُّموع ويغرزها في كل مكان. صاح بسرور: «يا له من منزل صغير مبهج! أنيق جدًّا! مخطط جيدًا جدًا! يتوافر فيه كل شيء وكل شيء في مكانه! سنصنع منه ليلة مبهجة. الأمر الأول الذي نحتاج إليه هو نار زكية، سأهتم بهذا، أنا أعرف دومًا أين أجد الأشياء. إذن هذه هي الردهة؟ رائعة! تلك الأسرَّة في الجدار، هل هي فكرتك؟ رائع! الآن سأجلب الحطب والفحم، واجلب أنت خرقة لمسح الغبار أيها الخلد -ستجد واحدة في درج طاولة المطبخ- وحاول أن تهندم الأشياء قليلًا، انطلق بسرعة أيها الشَّاب!»

نهض الخلد متحمِّسا بعد سماعه لصاحبه الملهم، وراح ينفض الغبار ويلمّع بطاقةٍ وحماسٍ، وراح الجرذ يجري جيئة وذهابًا يحمل ملء ذراعيه حطبًا، ثم أوقد سريعًا لهبًا مبهجًا راح يهدر في المدخنة. دعا الخلد كي يأتي ويدفئ نفسه، لكن الخلد داهمته على الفور نوبة ثانية من الحزن وانهار على أريكة في يأس قاتم ودفن وجهه في الخرقة. تأوَّه: «أيها الجرذ، ماذا عن عشائك أيها الحيوان المسكين البارد الجائع المرهق، ليس عندي ما أقدمه لك، لا شيء، ليس حتى الفتات!»

قال الجرذ موبخًا: «يا لك من رجل لتستسلم! عجبًا، فقط رأيت للتو مفتاح علب السَّردين على خزانة المطبخ بوضوح شديد والجميع يعرف أن ذلك يعني أنه يوجد

سردين في مكان ما في الحي. انهض! تمالك نفسك وتعال معي ولنبحث عن المؤن».

بناء عليه ذهبا وأغارا بحثًا عن المؤن في كل خزانة، يقلبان محتويات كل دُرج. لم تكن النتيجة في النهاية بائسة كثيرًا، ولو أنها بالطبع كان يمكن أن تكون أفضل، علبة سردين، وعلبة بسكويت ممتلئة تقريبًا، وسجق ألماني مغلَّف بورق الفضة.

قال الجرذ في أثناء إعداده الطاولة: «هناك وليمة من أجلك! أعرف بعض الحيوانات الذين قد يتخلون عن آذانهم لقاء الجلوس إلى العشاء معنا الليلة!»

تأوَّه الخلد متألمًا: «ما من خبز! ما من زبدة، لا...»

واصل الجرذ مكشرًا: «ما من فطائر بمعجون كبد الإوز، ما من مشروبات! وذلك يذكرني... ما هذا الباب عند نهاية الممر؟ قبوك بالتأكيد! كل أنواع الرفاهية في هذا المنزل! انتظر دقيقة فقط».

توجَّه نحو باب القبو وفي الحال عاود الظهور مكسوًا ببعضٍ الغبار، يحمل قنينة مشروب في كل كف وأخرى تحت كل ذراع، قال: «تبدو شحاذًا منغمسًا في الملذات أيها الخلد، لا تحرم نفسك من شيء. لم يسبق لي أن كنت في مكان صغير مبهج مثل هذا قط. الآن، متى جلبت هذه القوارير؟ إنها تضفي إلى المكان جوًا مريحًا، إنها تفعل حقًا. لا أستغرب ولعك الكبير به. أخبرنا كل شيء عنه وكيف توصلت إلى جعله على هذه الصورة».

ثم، بينما شغل الجرذ نفسه بإحضار الأطباق والسكاكين والشوك والخردل الذي مزجه في كوب بيضة، روى الخلد الذي كان صدره يموج بوطأة انفعالاته الأخيرة، بخجل إلى حد ما في البداية، ولكن بمزيد من الحرية عندما بدأ يزداد إعجابه بموضوعه. كيف خطط لهذا، وفكر في ذاك، وكيف حصل على هذا من خلال مكاسب مفاجئة من عمّة، وكان ذلك اكتشافًا رائعًا وصفقة رابحة، واشترى هذا الشيء الآخر من مدخرات اقتضت جهدًا شاقًا ومقدارًا معينًا من «الاستغناء». أخيرًا انشرح صدره من جديد، لا بد أن عليه الذهاب ليعتني بممتلكاته، ويأخذ مصباحًا ويستعرض اتجاهاتها لزائره مستفيضًا بالحديث عنها، متناسيًا تمامًا العشاء الذي كانا بحاجة إليه كثيرًا. أومأ الجرذ الذي كان يتضور جوعًا، ولكنه جاهد لإخفاء جوعه، برأسه بجدية، وكان يتفحص بجبين متغضن قائلًا: «رائع» و «الأكثر روعة» على فترات، عندما أتيحت له فرصة إلقاء الملاحظة.

أخيرًا نجح الجرذ في إغوائه للجلوس إلى الطاولة، وكان قد بدأ للتو يعمل بجدية بمفتاح علب السَّردين عندما سمعت أصوات من السَّاحة الأمامية، أصوات مكتومة مثل أقدام صغيرة تجر في الحصى وتمتمة مشوشة لأصوات صغيرة بينما جمل متقطعة بلغتهما: «الآن الجميع في صف. ارفع الفانوس أعلى قليلًا يا تومي، نظِّف حنجرتك أولًا، ما من سعال بعد أن أقول واحد اثنان ثلاثة. أين بيل الصَّغير؟ هيا نحن ننتظر جميعًا...»

استفسر الجرذ متوقفًا عن عمله: «ماذا هناك؟».

أجاب الخلد وفي هيئته شيء من الفخر: «أظن أنهم لا بد أن يكونوا فئران الحقل، إنهم يدورون وينشدون ترانيم الميلاد بانتظام في هذا الوقت من السَّنة. إنه تمامًا عرف في هذه الأنحاء. وهم لم يتجاهلوني قط، إنهم يأتون إلى مسكن الخلد في الآخر، واعتدت أن أقدم لهم مشروبات ساخنة وعشاء أيضًا أحيانًا عندما تمكنت من دفع تكلفته. سيذكرني سماعهم ثانية بالأيام التي مضت».

صرخ الجرذ وهو يقفز ويجري نحو الباب: «لنلقي نظرة إليهم!».

كان منظرًا جميلًا وفي أوانه، ذلك الذي وقعت عليه أعينهم عندما لوحا بالباب وفتحاه. في الساحة الأمامية المضاءة بأشعة خافتة تشع من فانوس مصنوع من قرون الحيوانات، وقف ثمانية أو عشرة من فئران الحقل الصِّغار في نصف دائرة، يلفون حناجرهم بلفاعات حمراء صوفية، كفوفهم الأمامية مقحمة عميقًا في جيوبهم، أقدامهم تتهزهز طلبًا للدفء. نظروا بأعين صغيرة كالخرز لماعة بحياء بعضهم إلى بعض، يتضاحكون قليلًا، يتشممون ويستعملون أكمام معاطفهم كثيرًا. عندما انفتح الباب كان واحد من الأكبر سنًا الذي حمل الفانوس يقول: «الآن إذن واحد اثنان ثلاثة!» وعلى الفور ارتفعت أصواتهم الصغيرة الحادة في الهواء بغناء واحدة من ترانيم عيد الميلاد القديمة التي ألفها أسلافهم في الحقول التي كانت أرضَ بور ومتروكة للصقيع، أو عندما احتجزهم الثلج في زوايا المداخن وضلعوا في غنائها في الشَّوارع الموحلة إلى النوافذ المضاءة بالمصابيح في زمن عيد الميلاد.

ترنيمة عيد الميلاد

أيها القرويون جميعًا، في هذا الموسم البارد،

افتحوا أبوابكم على مصراعيها،

ولو أن الريح قد تهب، والثلج أيضًا،

مع ذلك اسحبونا إلى الداخل لنقيم إلى جانب مواقدكم،

لعل الفرح يكون من نصيبكم في الصَّباح!

هنا نقف في البرد والمطر الثلجي،

ننفخ على أصابعنا ونخبط بأقدامنا،

قدمنا من بعيد لنحييكم

أنتم جالسون قرب النار ونحن في الشَّارع

نطلب لكم الفرح في الصَّباح!

لأنه قبل أن يمضي منتصف الليل،

نجم مفاجئ قادنا قدمًا،

يغدق نعمًا وبركات

مبارك الغد وما بعده

الفرح لكل صباح!

كدح يوسف الصَّالح عبر الثَّلج

شاهد نجمًا فوق حظيرة وضيعة

لم تعد مريم تقوى على المسير

كان الفرح من نصيبها في الصَّباح!

ثم سمعا الملائكة تقول:

«من كان أول من أنشد ترنيمة عيد الميلاد؟

جميع الحيوانات، كما حدث،

في الإسطبل حيث يقيمون!

لتكن المسرة من نصيبهم في الصَّباح!»

توقَّفت الأصوات، تبادل المغنون النظرات الجانبية في خجل والابتسامة تعلو وجوههم، تبعه صمت، لكن للحظة واحدة فقط. ثم من الأعلى ومن البعيد، في النفق الذي اجتازوه في وقت متأخر جدًا، كان رنين الأجراس البعيدة يجلجل صاخبًا ومبهجًا محمولًا إلى مسامعهم في همهمة موسيقية خافتة.

صاح الجرذ بحماس: «غناء ممتاز أيها الأولاد! والآن ادخلوا جميعكم وتدفؤوا قرب النَّار وتناولوا مشروبًا ساخنًا!»

صاح الخلد بلهفة: «نعم تعالوا يا فئران الحقل، هذا شبيه بالأيام الغابرة تمامًا! أغلقوا الباب خلفكم. جروا ذلك المقعد إلى النار. الآن أنت فقط انتظر دقيقة بينما... أوه أيها الجرذ!» صاح يائسًا وهو يسقط على مقعد والدموع محدقة. «ماذا سنفعل؟ ليس لدينا شيء لنقدمه لهم!»

قال الجرذ البارع: «دع كل ذلك لي، هيه... أنت الذي تحمل الفانوس! تعال بهذا الاتجاه. أريد أن أتحدث إليك. الآن، قل لي هل هناك أي متاجر مفتوحة في مثل هذه السَّاعة المتأخرة من الليل؟»

أجاب فأر الحقل باحترام: «عجبًا، بالتأكيد يا سيدي، في هذا الوقت من السَّنة تظل متاجرنا مفتوحة في كل حين».

قال الجرذ: «ثم انظر هنا! تذهب في الحال مع فانوسك وتجلب لي...»

تبعت هنا محادثة بصوت منخفض وسمع الخلد بعضًا منها فقط نحو: «طازج... لا، رطل من ذلك سيفي بالغرض... احرص على أن تحصل على باغنيز Buggin's لأني لن أقبل بأي نوع آخر... لا، فقط الأفضل.... إذا لم تتمكن من الحصول عليه هناك، اسأل في مكان آخر... نعم، بالطبع، صناعة منزلية، لا معلبات... حسنًا إذن،

افعل أفضل ما في وسعك!» أخيرًا سُمعت صلصلة نقود تمرر من كف إلى أخرى، زود فأر الحقل بسلة واسعة من أجل هذه المشتريات وانطلق سريعًا هو وفانوسه.

جلس بقية فئران الحقل في صف على المقعد، يؤرجحون أقدامهم الصَّغيرة واستسلموا للتنعم بالنار ودفؤوا أصابعهم المتقرحة من البرد حتى أصابها الخدر، فيما اندفع الخلد -الذي لم يفلح في استدراجهم إلى محادثة خفيفة- في تاريخ عائلي وجعل كل واحد منهم يتلو أسماء إخوته الكثر الذين كانوا صغارًا جدًّا كما بدا، فلم يسمح لهم بالخروج للغناء هذه السَّنة، لكن تطلعوا إلى كسب الإذن الأبوي قريبًا جدًا.

كان الجرذ في هذه الأثناء مشغولًا بمعاينة اللصاقة على إحدى قوارير المشروب. أشار باستحسان: «أتصوَّر أن هذه من ماركة أولد بورتون، خلد متعقِّل! النوع ذاته! الآن سيكون بوسعنا أن نتجرع بعض المشروب! جهز الأمور أيها الخلد فيما أفتح القوارير».

لم يستغرق تحضير المشروب وقتًا طويلًا ودفع سخان الصَّفيح جيدًا في قلب النار الأحمر، وسريعًا كان كل فأر حقل يحتسي ويسعل ويغص (لأن تأثير بعض المشروبات المسخنة يكون قويًا أحيانًا) ويمسح عينيه ويضحك وينسى أنه شعر بالبرد طوال حياته.

شرح الخلد للجرذ: «يمثلون المسرحيات أيضًا هؤلاء الرفاق، يؤلفونها بأنفسهم جميعًا ويمثلونها فيما بعد. ويا لبراعتهم في التمثيل! لقد قدموا لنا السَّنة الماضية مسرحية رائعة عن فأر حقل وقع في أسر قرصان بربري في البحر وكان عليه أن يجذِّف في سفينة، وعندما هرب وعاد إلى البيت ثانية ذهبت حبيبته إلى دير. هيه أنت! أنت شاركت فيها على ما أذكر. انهض وقصَّ علينا قليلًا».

نهض فأر الحقل المخاطب على قدميه وقهقه بخجل ونظر إلى أرجاء الغرفة وظل معقود اللسان تمامًا. هتف له رفاقه مشجعين، لاطفه الخلد وشجعه، وبلغ الأمر بالجرذ أن أمسك كتفيه وهزه، لكن لم يقدر أي شيء على هزيمة خوفه من الوقوف أمامهم. انشغلوا جميعًا بانهماك به كما يفعل رجال الإنقاذ وهم يطبقون تعليمات الجمعية الملكية الإنسانية للإغاثة على حالة غرق، عندما طقطق المزلاج، انفتح الباب وعاود فأر الحقل مع الفانوس الظهور مترنحًا تحت ثقل سلته.

توقف الحديث عن التمثيل ما إن أفرغت محتويات السَّلة الحقيقية والصُّلبة على الطاولة. بزعامة الجرذ، كان على الجميع فعل شيء أو جلب شيء ما. أعد العشاء خلال بضع دقائق، ورأى الخلد عندما جلس إلى رأس الطاولة كما لو أنه في حلم، لوحًا كان أجرد مؤخرًا وأضحى سميكًا بالمقبلات الشَّهية، رأى وجوه أصدقائه الصِّغار مشرقة وتشع عندما تهافتوا دون تأخير، ثم أطلق العنان لنفسه على الطعام، لأنه كان جائعًا بالفعل، الذي توفر على نحو ساحر جدًّا، مفكرًا كيف اتضح أن هذه عودة سعيدة إلى البيت في النهاية. وفيما هم يأكلون تحدثوا عن الأوقات القديمة ووافاه واحد من فئران الحقل بالأخبار المحلية المحدثة وأجاب أيضًا عن أسئلته الكثيرة التي طرحها. لم يقل الجرذ سوى القليل، اهتم فقط بأن يحصل كل ضيف على ما أراده بسخاء وأن يكون الخلد بمنأى عن أي قلق أو إزعاج.

توقفوا عن الأكل أخيرًا بامتنان بالغ وانهالوا بالأمنيات للموسم، وجيوب سترهم محشوَّة بالتذكارات للأخوة والأخوات الصِّغار في البيت. عندما أغلق الباب على آخر واحد منهم وتبدد رنين الفوانيس، أذكى الخلد والجرذ النَّار وقرَّبا كرسيهما منها وتجرَّعا ما بقي من المشروب الساخن وناقشا أحداث النهار الطويل. قال الجرذ أخيرًا بتثاؤب هائل: «يا خلد، يا صديقي، أنا على أهبة الاستعداد للنوم. كلمة نعسان لا تكفي لوصف حالتي ببساطة. سريرك على ذلك الجانب؟ حسنًا جدًا إذن سوف أختار هذا. يا له من منزل صغير رائع، كل شيء في المتناول!»

صعد إلى سريره بجهد ولفَّ نفسه بالأغطية جيدًا، وغطَّ حالًا في النوم، مثل حزمة شعير طويت في أذرع آلة الحصاد.

استلقى الخلد المجهد أيضًا دون تأخير بسعادة، وسرعان ما ألقى برأسه على وسادته في فرح عظيم ومسرَّة. لكن قبل أن يغمض عينيه تركهما تتجولان في أرجاء غرفته القديمة اليانعة في وهج ضوء النَّار الذي لعب أو ارتاح على أشياء مألوفة وودودة، لطالما كانت جزءًا من روحه والآن استقبلته بابتسامة دون ضغينة. كان الآن تمامًا في الحالة العقلية التي عمل الجرذ اللبق بصمت على جلبها له. رأى بوضوح إلى أي حد كان كل شيء بسيطًا وعاديًا وضيقًا أيضًا، لكن رأى بوضوح أيضًا كم عنى له كل شيء، والقيمة الخاصَّة لمثل هذا الملاذ في وجود المرء. هو لم يرغب مطلقًا في أن يهجر الحياة الجديدة وأمكنتها البهية، ولم يرد أن يولي ظهره للشَّمس وللهواء وكل ما قدماه له، وأن يزحف إلى البيت ويقيم فيه، فالعالم الخارجي قد أسره وسلب فكره وياديه حتى وهو في باطن الأرض. وعرف أنه لا بدَّ أن يعود إلى الأرض الواسعة. لكن كان جيدًا أن يفكِّر في أنه يملك هذا المكان ليعود إليه، هذا المكان الذي يخصه، هذه الأشياء التي سُرت أيما سرور لرؤيته مجددًا ويمكنه دومًا أن يثق بأنها سوف ترحب به دائمًا بالطريقة نفسها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السَّادس

السَّيد علجوم

كان صباحًا مشرقًا ليوم في أوائل الصَّيف، وقد استأنف النهر ضفتيه المعتادتين ووتيرته المعهودة، وبدا أن الشَّمس الحارة تسحب نحوه من الأرض -كما لو بأسلاك- كل شيء أخضر وكث وشائك. استيقظ الخلد وجرذ الماء منذ الفجر، وانهمكا في مسائل متعلقة بالقوارب وافتتاح موسم ركوب القوارب، يدهنان ويصقلان ويرممان المجاذيف، يجددان الوسائد، يبحثان عن خطاطيف مفقودة وغيرها من أشياء، وكانا ينهيان الفطور في ردهتهما الصَّغيرة ويناقشان بلهفة مخططات اليوم، عندما سمع قرعًا قويًّا على الباب.

قال الجرذ وقد لوَّث نفسه بالبيض: «يا له من إزعاج! انظر من الطارق أيها الخلد الصالح بما أنك أنهيت فطورك».

ذهب الخلد ليرى من الطارق، ثم سمع الجرذ صرخة مفاجئة تند عنه. ثم طوَّح باب الردهة وفتحه وأعلن بتقدير بالغ: «السَّيد غرير!»

كان أمرًا رائعًا بالفعل أن يزورهما الغرير أو يزور أي شخص آخر زيارة رسمية. كان عادة إذا أردته بشدة فعليك أن تتحيّنه عندما يتسلل بهدوء على طول سياج الأشجار في الصَّباح الباكر أو في وقت متأخر من المساء، وإلا متصيدًا في منزله وسط الغابة، وكان أمرًا شاقًّا جدًّا.

دخل الغرير الغرفة بخطى متثاقلة ووقف ينظر إلى الحيوانين، ترتسم على وجهه علائم الجدية. ترك الجرذ الملعقة تسقط على مفرش الطاولة وجلس فاغر الفم.

قال الغرير أخيرًا برصانة عظيمة: حان الوقت.

سأل الجرذ بقلق وهو يرمق السَّاعة الموضوعة على رف الموقد: «أي ساعة؟».

أجاب الغرير: «حري بك أن تقول ساعة من، عجبًا، ساعة العلجوم! ساعة العلجوم! قلت بأني سأتولى أمر تقويم سلوكه حالما ينتهي الشِّتاء، وسأفعل ذلك اليوم!»

صاح الخلد مبتهجًا: «ساعة العلجوم بالطبع! مرحى! أتذكر الآن! سنعلمه كيف يكون علجومًا متزنًا!»

واصل الغرير وهو يجلس على كرسي مريح: «علمت الليلة الماضية من مصدر موثوق به أن سيارة أخرى جديدة وقوية على نحو استثنائي، ستصل هذا الصَّباح بالذات إلى قصر العلجوم الريفي لاعتمادها أو إعادتها. ربما في هذه اللحظة بالذات العلجوم منشغل بارتداء هذه الملابس الشَّنيعة على نحو غريب العزيزة جدًا عليه، التي تحوله من علجوم حسن المظهر (نسبيًا) إلى مخلوق يصيب أي حيوان عاقل يصادفه بنوبة عنيفة. لا بدَّ أن نكون مستعدين وفاعلين قبل فوات الأوان. ستصحباني أنتما الاثنان في الحال إلى قصر العلجوم، وستُنجز عملية الإنقاذ».

صاح الجرذ وهو يقفز: «أنت محق! سننقذ الحيوان التعيس المسكين! سنحوله! سيكون علجومًا متحولًا كما لم يكن في أي وقت، قبل أن ننتهي منه!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلقوا على الطريق في مهمتهم الرحيمة، يتقدم الغرير الطريق. تسير الحيوانات عندما تكون معًا سيرًا مناسبًا ومتعقلًا في خط مفرد بدلًا من أن تنتشر عبر الطريق فتصبح عديمة الفائدة وغير قادرة على مساندة بعضهم بعضًا في حال حدوث مشكلة أو خطر مفاجئ.

وصلوا إلى الطريق الفرعي المؤدي إلى قصر العلجوم الريفي ليجدوا، كما سبق للغرير أن توقَّع، سيارة جديدة براقة كبيرة الحجم مطلية باللون الأحمر الفاقع (لون العلجوم الأثير)، واقفة أمام المنزل. عندما اقتربوا من الباب كان مفتوحًا على مصراعيه وكان السَّيد علجوم يتبختر على الدرج مرتديًا منظار الوقاية وقبعة وطماقين ومعطفًا كبيرًا، ويشد قفازيه الطويلين.

صاح مبتهجًا عندما وقع بصره عليهم: «مرحبًا! تعالوا يا أصدقاء! وصلتم في الوقت المناسب لتصحبوني في رحلة مفرحة... لتصحبوني في رحلة... في ر ح ل ة...»

تداعت نبرات صوته الودية وتردت عندما لاحظ النظرة الصَّارمة العابسة على وجوه أصدقائه الصَّامتين وظلت دعوته غير مكتملة.

صعد الغرير الدرج بخطوات واسعة. أمر بقسوة صاحبيه: «رافقاه إلى الدَّاخل». ثم عندما كان العلجوم يدفع بخشونة عبر الباب، يكافح ويحتج، التفت إلى السَّائق المسؤول عن السيارة الجديدة وقال: «أخشى أننا لن نكون بحاجة إليك اليوم، غيَّر السَّيد علجوم رأيه، ولم يعد بحاجة إلى السيارة. من فضلك اعلم أن هذا نهائي. ليس عليك أن تنتظر». ثم تبع الآخرين إلى الدَّاخل وأغلق الباب.

قال للعلجوم عندما وقفوا أربعتهم معًا في البيت: «الآن إذن! بادئ ذي بدء، اخلع هذه الأشياء السَّخيفة!»

أجاب العلجوم بروح عظيمة: «لن أفعل! ما معنى هذا الغضب الصَّارخ؟ أريد تفسيرًا على الفور».

أمر الغرير باقتضاب: «اخلعاها عنه إذن أنتما الاثنان».

ينبغي لهما أن يمددا العلجوم على الأرض، وهو يرفس ويصيح وينعتهما بكل أنواع الشَّتائم، قبل أن يتمكنا من العمل كما يجب. ثم جلس الجرذ فوقه وخلع الخلد ملابسه الخاصة بركوب السيارات عنه قطعة قطعة، وأنهضاه على قدميه ثانية. بدا أن قدرًا كبيرًا من مزاجه الصاخب تبخَّر مع خلع ملابسه الجميلة. وقد أصبح مجرد علجوم ولم يعد ذلك العلجوم الذي ينشر الرعب على الطريق السريع، قهقه بضعف ونقَّل نظراته متأثرًا من واحد إلى آخر، وكان واضحًا أنه يفهم الموقف تمامًا.

شرح الغرير بصرامة: «عرفت أنك لا بد ستصل إلى هذا عاجلًا أم آجلًا أيها العلجوم، لقد تجاهلت جميع التحذيرات التي وجهناها لك، لقد مضيت في تبذير المال الذي أورثه لك والدك، وأنت تسيء إلى سمعتنا نحن الحيوانات في المنطقة بقيادتك المسعورة وحوادثك ومشاداتك مع الشُّرطة. الاستقلال جيد جدًا، لكننا حيوانات لا نسمح قط لأصدقائنا أن يجعلوا من أنفسهم أضحوكة بما يتجاوز الحدود، وقد بلغت ذلك الحد. الآن، أنت رجل جيد من نواح كثيرة ولا أريد أن أقسو عليك كثيرًا. سأبذل جهدًا واحدًا لكي أعيدك إلى جادة الصَّواب. سوف تأتي معي إلى غرفة التَّدخين وهناك ستسمع عن نفسك الحقائق وسنرى هل ستخرج من تلك الغرفة العلجوم نفسه الذي دخل إليها أم لا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخذ العلجوم من ذراعه بحزم وقاده إلى غرفة التدخين وأغلق الباب خلفهما.

قال الجرذ بازدراء: «هذا ليس جيدًا! التحدث إلى العلجوم لن يشفيه مطلقًا، سيقول أي شيء».

جلسا على كرسيين مريحين وانتظرا بصبر. تمكنا عبر الباب المغلق من سماع الدندنة الطويلة المتدفقة لصوت الغرير يعلو وينخفض في موجات من البلاغة والفصاحة، ولاحظا في الحال أن نشيجًا طويلًا بدأ يقاطع الموعظة بين الحين والآخر صادر بوضوح عن صدر العلجوم الذي كان شخصًا رقيق القلب وعاطفيًّا يتحول بيسر شديد آنيًا، إلى أي وجهة نظر.

انفتح الباب بعد قرابة ثلاثة أرباع السَّاعة وعاود الغرير الظهور بوقار يقود بكفه العلجوم مغتمًا ويتقدم ببطء. تدلى جلده فضفاضًا من حوله، ترنحت ساقاه وكان خداه مجعدين بالدموع التي تجمعت غزيرة جراء حديث الغرير المؤثر.

قال الغرير بلطف مشيرًا إلى كرسي: «اجلس هناك أيها العلجوم. أصدقائي... يسرني أن أؤكد لكم أن العلجوم أخيرًا رأى خطأ أساليبه. هو يشعر بأسف حقيقي بسبب سلوكه الخاطئ في الماضي، وتعهد بالتخلي عن السيارات كليًّا وإلى الأبد. لديَّ وعده الجاد بهذا الصَّدد».

قال الخلد بوقار: «هذا خبر رائع!».

قال الجرذ بارتياب: «خبر رائع حقًا، لو فقط... لو فقط...»

عند قوله هذا كان ينظر بقسوة شديدة نحو العلجوم، ولم يستطع إلا أن يفكر في أنه تصور شيئًا يشبه على نحو غامض وميضًا في عين ذلك الحيوان التي لا تزال محزنة.

واصل الغرير الراضي: «هناك فقط أمر واحد يجب فعله، أيها العلجوم أريدك أن تردد بوقار أمام أصدقائك هذا ما اعترفت لي به في غرفة التدخين الآن. أولًا أنت آسف على ما فعلته، وترى حماقة التصرف برمته؟»

حلت فترة طويلة جدًا من الصمت. تلفت العلجوم بيأس يمنة ويسرة، فيما انتظرت الحيوانات الأخرى في صمت خطير. تحدث أخيرًا وقال متجهمًا قليلًا لكن بجرأة: «لا! أنا لست آسفًا، ولم تكن حماقة على الإطلاق! كان أمرًا رائعًا ببساطة!»

صاح الغرير مصدومًا على نحو عظيم: «ماذا؟ أنت حيوان مرتد، ألم تخبرني ذلك الآن هناك...»

قال العلجوم بفارغ الصَّبر: «أوه، نعم، نعم، هناك في الدَّاخل، لقد قلت أي كلام هناك في الداخل. أنت فصيح جدًّا يا عزيزي الغرير، ومؤثر جدًا، وتملك القدرة على الإقناع وترتب جميع أفكارك بطريقة جيدة بصورة مريعة. يمكنك فعل ما تشاء معي هناك وأنت تعلم. لكني كنت أستكشف عقلي منذ ذلك الحين وأمر بالأشياء فيه وأجد أني لست آسفًا ولو قليلًا أو نادمًا حقًا، لذا ليس جيدًا القول بأني آسف الآن، أليس كذلك؟»

قال الغرير: «إذن أنت لا تعد بأنك لن تمس مطلقًا سيارة ثانية؟»

أجاب العلجوم مؤكدًا: «بالتأكيد لا! بل على العكس، أنا أعد بإخلاص أن أول سيارة أراها، بوب بوب! سوف أركبها!»

قال الجرذ للخلد: «لقد أخبرتك بذلك، ألم أقل لك أن الكلام معه لن يجدي نفعًا؟»

قال الغرير بحزم وهو ينهض على قدميه: «حسن جدًا إذن، ما دمت لن تنصاع إلى الاقتناع، سنحاول ما أوتينا من قوة. خشيت أن الأمر سيبلغ هذا المبلغ منذ البداية. غالبًا ما طلبت منا نحن الثلاثة أن نأتي ونبقى معك، أيها العلجوم، في هذا المنزل الجميل، حسنًا الآن سنفعل. قد نتوقف عندما نهديك إلى وجهة نظر مناسبة، لكن ليس قبل ذلك. اصحباه إلى الأعلى أنتما الاثنان وأحبساه في غرفة نومه ريثما نرتب الأمور فيما بيننا».

قال الجرذ بلطف عندما جر العلجوم وهو يرفس ويكافح على الدرج من قبل صديقيه المخلصين: «إنه لمصلحتك أيها العلجوم، كما تعلم، فكر في أي تسلية سنحظى بها جميعًا معًا تمامًا كما اعتدنا عندما تتجاوز... نوبتك المؤلمة هذه!»

قال الخلد: «سنهتم بكل شيء أعظم اهتمام من أجلك إلى أن تتحسن حالتك وتصبح بخير أيها العلجوم، وسوف نحرص على ألا تكون نقودك مبذرة كما كانت».

قال الجرذ عندما دفعاه داخل غرفة نومه: «لا مزيد من هذه الحوادث المؤسفة مع الشُّرطة، أيها العلجوم».

أضاف الخلد وهو يقفل الباب عليه: «ولا مزيد من أسابيع في المستشفى، بأمر من الممرضات أيها العلجوم».

نزلا الدَّرج، وكان العلجوم يصيح عليهما بالشتائم من خلال ثقب الباب. بعدئذ اجتمع الأصدقاء الثلاثة للتشاور حول الوضع.

قال الغرير متنهدًا: «أمامنا عمل شاق ومضجر، لم يسبق لي مطلقًا أن رأيت العلجوم مصممًا هكذا بشدة. مع ذلك سنتصرف. يجب ألا نتركه دون مراقبة مطلقًا ولو للحظة واحدة، علينا أن نتناوب لنكون معه حتى يخرج السُّم منه».

رتبوا المناوبات وفقًا لذلك. أخذ كل حيوان دوره لينام في غرفة العلجوم ليلًا، وقسموا اليوم فيما بينهم. في البداية، لم يطق العلجوم حرَّاسه الحذرين وضاق بهم صبره. وعندما تصيبه نوبات عنف شغفه بالسيارات كان يرتب كراسي غرفة النوم بشكل مشابه لمقاعد سيارة على نحو فظ، وكان يجثم على أولها منحنيًا ومحدّقا مثبِّتًا نظره إلى الأمام، يصدر أصواتًا فظة تشبه ضوضاء محرك السيارة. يبقى على هذه الحالة حتى تصل نوبته ذروتها فيستلقي منبطحًا وسط خراب الكراسي، متشقلبًا شقلبة كاملة فيما يبدو راضيًا بشكل تام للحظة. مع مرور الوقت أصبحت هذه النوبات المؤلمة مع ذلك أقل حدوثًا تدريجيًا، وكافح أصدقاؤه لكي يوجهوا عقله نحو قنوات جديدة. لكن اهتمامه بأشياء أخرى لم يبد أنه سيحدث وصار كسولًا ومكتئبًا بشكل ظاهر.

ذات صباح جميل، صعد الجرذ الذي كان دوره في تحمل المسؤولية إلى الأعلى ليريح الغرير الذي وجد متململًا للذهاب وليمد ساقيه في تجوال طويل حول غابته وفي جحوره وترابه.

أخبر الجرذ عند الباب: «لا يزال العلجوم في السَّرير، لم أستطع التحدث إليه كثيرًا فلم أحصل إلا على بعض الجمل مثل: «أوه، دعني وشأني، أنا لا أريد شيئًا، ربما سأكون أفضل حالًا قريبًا، سينتهي هذا مع الوقت، لا تفرط في القلق» وجمل كهذه. «الآن احذر أيها الجرذ! عندما يكون العلجوم هادئًا وخنوعًا، ويمثِّل دور بطل حاصل على جائزة مدرسة الأحد، فهو في قمَّة دهائه. هناك بالتأكيد شيء ما. أعرفه. حسنًا الآن، يجب أن أذهب».

استفسر الجرذ بابتهاج عندما اقترب من جانب سرير العلجوم: «كيف حالك اليوم أيها الرجل الكبير؟»

كان عليه أن ينتظر بضع دقائق قبل أن يسمع الجواب. أخيرًا أجاب صوت ضعيف: «شكرًا لك كثيرًا يا عزيزي الجرذ! شكرًا على سؤالك، لكن أولًا أخبرني كيف حالك أنت والخلد الرائع؟»

أجاب الجرذ: «أوه نحن بخير، خرج الخلد»، وأضاف دون حرص: «في جولة مع الغرير. سيكونان في الخارج حتى وقت الغداء، لذا سوف نمضي أنت وأنا صباحًا ممتعًا معًا، وسأبذل ما بوسعي لأسليك. الآن اقفز أيها الرفيق الجيد ولا تستلقي مضيعًا الوقت هناك في صباح رائع مثل هذا!»

تمتم العلجوم: «عزيزي الجرذ اللطيف، أنت لا تدرك حالتي إلا قليلًا، ولا تعرف كم أنا بعيد عن أن «أقفز» الآن لو كان بوسعي فعل ذلك! لكن لا تهتم لأمري. أكره أن أكون عبئًا على أصدقائي ولا أتوقع أن أكون كذلك مدة طويلة. بالفعل أنا لا آمل ذلك».

قال الجرذ بحماس: «حسنًا، لا آمل ذلك أيضًا، لقد شكلت إزعاجًا لنا جميعًا هذه المرة، وأنا مسرور لسماع أن ذلك سيتوقف. وفي طقس مثل هذا وموسم ركوب القوارب يبدأ للتو! عيب عليك ما تفعله يا علجوم! نحن لا نمانع تجشم العناء من أجلك فلست عبئًا علينا، ولكنك تضيع علينا الكثير من اللحظات الممتعة».

أجاب العلجوم مجهدًا: «أخشى أنك تمانع تجشم العناء وصرت عبئًا عليكم، يمكنني تفهم الأمر تمامًا. إنه طبيعي بما فيه الكفاية. أنت متعب من القلق بشأني. ليس عليَّ أن أطلب منك أن تفعل أي شيء بعد الآن، أنا أعرف أني مزعج».

قال الجرذ: «أنت مزعج بالفعل، لكني أقول لك سأتحمل أي متاعب على الأرض من أجلك لو تكون فقط حيوانًا راشدًا».

تمتم العلجوم بخفوت أكثر من أي وقت: «إن كان الأمر كذلك أيها الجرذ، فأنا أرجوك للمرة الأخيرة أن تذهب إلى القرية بأسرع ما يمكن، ولو كان الوقت قد تأخر كثيرًا، واجلب الطبيب. أخشى أن الأوان قد فات على ذلك، وأعرف أنني أثير المزيد من المتاعب وأن طلبي هذا فيه عناء عليك، ولكن يمكننا أيضًا أن ندع الأمور تأخذ مجراها».

استفسر الجرذ وهو يقترب ويتفحصه: «عجبًا، لماذا تريد الطبيب؟». بالتأكيد، استلقى العلجوم هادئًا جدًا، كان صوته أضعف وسلوكه تغير كثيرًا.

تمتم العلجوم: «بالتأكيد قد لاحظت ذلك منذ مدة، لكن لا، لمَ عليك أن تفعل هذا؟! فالملاحظة هي عناء وإزعاج آخر. قد تقول لنفسك غدًا بالفعل: «أوه لو فقط لاحظت الأمر قبل ذلك! لو أني فقط فعلت شيئًا!» لكن لا، إنها مشكلة. لا تهتم، انسَ أني سألت».

قال الجرذ وقد بدأ ينتابه الذعر إلى حدٍّ ما: «انظر هنا أيها الحيوان العجوز، بالتأكيد سأحضر لك الطبيب إذا كنت تظن أنك بحاجة إليه حقًا. لكن لا يمكن بعد أن تكون بمثل هذا السوء. لنتحدث حول أمر آخر».

قال العلجوم بابتسامة حزينة: «أخشى يا صديقي العزيز أن الحديث لن يجدي نفعًا في حالتي هذه، أو الأطباء أيضًا من هذه الناحية، مع ذلك على المرء أن يتعلق بأخف قشة. وبالمناسبة، بينما أنت تتحدث عن ذلك، أكره أن أتسبب لك بمشكلة إضافية، لكن صدف أني تذكرت أنك ستمر بالباب، هل تمانع في الوقت نفسه أن تطلب من المحامي أن يمر بي؟ سيكون مناسبًا لي ما دام هناك وقت، ربما عليَّ أن أقول إنه توجد لحظة يجب على المرء فيها أن يواجه مهمات غير مرغوب فيها مهما كلفه الأمر من عناء!»

قال الجرذ المذعور محدِّثًا نفسه وهو يهرع خارجًا من الغرفة دون أن ينسى أن يقفل الباب خلفه: «محام! أوه، لا بدّ حالته في غاية السوء!»

توقَّف في الخارج ليفكر. كان الاثنان الآخران بعيدين، ولم يكن لديه أحد ليستشيره.

قال متأملًا: «من الأفضل أن أحتاط وأركن إلى الخيار الآمن، حدث من قبل أن توهم العلجوم أنه في حالة سيئة على نحو مخيف دون سبب ولو كان واهيًا، لكني لم أسمع أنه قد طلب محاميًا قط! إن كانت حالته ليست بهذا السوء فسيخبره الطبيب بأنه صار عجوزًا ويبعث في نفسه البهجة وذلك سوف يكون مكسبًا. من الأفضل أن أسايره وأذهب، لن يستغرق وقتًا طويلًا». وهكذا ذهب إلى القرية في مهمته الرحيمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العلجوم الذي وثب باستخفاف من السَّرير حالما سمع صوت المفتاح يدار في القفل، شاهده بحماس من النافذة إلى أن اختفى في الطريق الفرعي. ثم وهو يضحك من كل قلبه، ارتدى بأسرع ما يمكن أجمل بدلة استطاع الوصول إليها في تلك اللحظة، وملأ جيوبه بالنقود التي أخذها من جارور صغير في طاولة الزينة، ثم عقد شراشف سريره معًا بربط طرف الحبل المرتجل حول العمود المركزي للنافذة الجميلة الفاخرة التي شكلت ملمحًا لغرفة نومه، تسلق خارجًا منزلقًا بخفة إلى الأرض ومتخذًا الاتجاه المعاكس لاتجاه الجرذ، مشى بمرح يصفر لحنًا مبهجًا.

كان غداء كئيبًا للجرذ عندما عاد الغرير والخلد أخيرًا وكان عليه مواجهتهما قرب الطاولة بقصته غير المقنعة والمثيرة للشفقة. يمكن تخيل ملاحظات الغرير اللاذعة، إن لم نقل الوحشية، لذا تم تجاهلها، لكن كان مؤلمًا للجرذ أن الخلد أيضًا، ولو أنه وقف إلى جانب صديقه قدر الإمكان، لم يستطع الامتناع عن القول: «لقد كنت غبيًا قليلًا هذه المرة يا جرذون، العلجوم أيضًا من بين جميع الحيوانات!»

قال الجرذ المكتئب: «لقد كان بارعًا حقًّا!».

أدركه الغرير بحماسة: «لقد خدعك بشكل ممتاز! مع ذلك التحدث لن يصلح الأمور. من المؤكد أنه قطع مسافة جيدة الآن، وأسوأ ما في الأمر أنه سيكون مستكبرًا جدًا مع ما سوف يظن أنه ذكاؤه، حتى أنه سوف يرتكب حماقة. المريح في الأمر أننا أحرار الآن، ولسنا بحاجة إلى تضييع وقتنا الثَّمين في الحراسة. لكن من الأفضل أن نواصل النَّوم في قصر العلجوم فترة أطول. قد يعاد العلجوم في أي لحظة، محمولًا أو بين رجلي شرطة».

هكذا تحدَّث الغرير جاهلًا بما يخبئ المستقبل، أو كم حدثًا سوف يحدث قبل أن يجلس العلجوم ثانية مرتاح البال في قاعته الموروثة.

في غضون ذلك كان العلجوم طربًا ومستهترًا، يسير بحيوية على طول الطريق السَّريع، بعيدًا بضعة أميال عن البيت. كان في البداية مأخوذًا بالدروب الجانبية وعبر الكثير من الحقول وغيَّر مساره عدة مرات خشية أن يكون ملاحقًا، لكن في هذا الوقت كان يشعر بأنه في مأمن من أن يستعاد، والشَّمس تبتسم فوقه مشرقة، والطبيعة كلها تنضم في جوقة موافقة على أغنية مديح الذات التي كان قلبه يغنيها له، كاد يرقص على طول الطريق راضيًا متغطرسًا.

قال لنفسه مقهقهًا: «يا لها من حيلة ذكية! عندما يكون الدهاء في مواجهة القوة الغاشمة، دائمًا ما يتفوق العقل، كما هو مقدر له دائمًا. يا لجرذون المسكين! يا إلهي! لن يتلقفها عندما يعود الغرير! رجل جدير يا جرذون بكثير من الخصال الفاضلة، لكن بذكاء متواضع جدًا وقطعًا دون تعليم. لا بدَّ أن آخذ بيده ذات يوم وأرى إن كان بوسعي أن أصنع منه شيئًا».

ظلّ يفشخ إلى الأمام في ثقة، ورأسه مملوء بتلك الأفكار المتعجرفة إلى أن وصل إلى بلدة صغيرة، حيث تتأرجح لافتة عبر الطريق في منتصف المسافة على الشَّارع الرئيس كتب عليها: «الأسد الأحمر»، ذكرته بأنه لم يتناول فطوره ذلك اليوم، وأنه كان يزداد جوعًا بعد سيره الطويل. دخل النزل وطلب أفضل غداء يمكن تقديمه خلال هذه المهلة القصيرة، وجلس يتناوله في غرفة القهوة.

كان قد التهم نصف وجبته تقريبًا عندما أجفله صوت مألوف يقترب في الشَّارع، وسرت رجفة في جسده كاملًا. اقترب البوب بوب أكثر فأكثر، أمكن سماع السيارة تنعطف إلى باحة النُّزل وتتوقف، وكان على العلجوم أن يتمسَّك بقائمة الطاولة ليسيطر على مشاعره القاهرة. دخلت المجموعة في الحال غرفة القهوة، جائعين ومثرثرين ومبتهجين، يفصحون عن تجاربهم في الصَّباح وعن فضائل المركبة التي جلبتهم. استمع العلجوم بحماس، مصيخًا السمع إلى حين، أخيرًا لم يعد يستطع التحمل. تسلل من الغرفة بهدوء، سدَّد الحساب عند النُّضد، وحالما خرج مشى بهدوء نحو الباحة. قال لنفسه: «لا يمكن أن يكون هناك أي أذى من مجرد النظر إليها!»

وقفت السَّيارة وسط الفناء وحيدة، كان العاملون في الإسطبل ومتسكعون آخرون جميعًا يتناولون عشاءهم. دار العلجوم ببطء من حولها يستكشف وينتقد ويتأمل بعمق.

قال لنفسه في الحال: «أتساءل، أتساءل إن كان هذا النوع من السَّيارات ينطلق بسهولة؟»

في اللحظة التالية، وجد نفسه دون أن يشعر كيف حدث ذلك ممسكًا بالمقود وكان يديره. عندما ارتفع صوت مألوف قدمًا، تملَّك الشَّغف القديم العلجوم واستولى عليه تمامًا قلبًا وقالبًا. وجد نفسه كما لو في حلم جالسًا بطريقة ما في مقعد السَّائق، كما لو في حلم، سحب العتلة وأرجح السيارة حول الفناء وخرج عبر الممر المسقوف، وكما لو في حلم، كل معرفة للصواب والخطأ، كل خوف من عواقب واضحة بدا معطلًا مؤقتًا. زاد سرعته، وعندما التهمت السَّيارة الشَّارع وقفزت على الطريق السَّريع عبر الريف المفتوح، لم يدرك سوى أنه العلجوم مرة أخرى، العلجوم في أفضل أحواله وأعلاها، علجوم الرعب، قامع حركة المرور، لورد الأثر المتفرد، على الجميع أن يفسحوا الطريق أمامه أو يذهبوا إلى العدم، إلى ليل لا ينتهي. غنى عندما انطلق وتجاوبت السيارة مصدرة دندنة رنانة، التهمت الأميال تحته عندما أسرع غير عارف إلى أين، مشبعًا غرائزه ويحيا ساعته غير عابئ بما قد يأتيه.

قال رئيس مجلس القضاة مبتهجًا: «في اعتقادي إن الصُّعوبة الوحيدة التي تمثل في هذه الحالة وهي بخلاف ذلك شديدة الوضوح، كيف يمكننا أن نجعل الأمر عسيرًا بما يكفي على المارق القابل للإصلاح والوغد المتصلِّب الذي نراه يربض في القفص أمامنا. دعني أرى: قد وجد أنه مذنب بدليل واضح، أولًا جراء سرقة سيارة ثمينة، ثانيًا القيادة المتسببة في الخطر العام، وثالثًا وقاحة هائلة مع الشُّرطة المدنية. أيها السَّيد الموظف هل لك أن تخبرنا من فضلك ما أقسى عقوبة يمكن فرضها على كل واحدة من هذه الانتهاكات؟ بالطبع دون أن نمنح السَّجين إمكانية الاستفادة من أي شك غير موجود».

حكَّ الموظف أنفه بقلمه. قال: «قد يظن بعض الناس أن سرقة السيارة هي أسوأ الانتهاكات، وهي كذلك. لكن الوقاحة مع الشُّرطة تستوجب -بلا شك- فرض أشد العقوبات، وهذا ما يجب فعله. على فرض أنك كنت ستقول اثني عشر شهرًا للسرقة وهي عقوبة خفيفة، وثلاث سنوات للقيادة الشرسة وهي عقوبة متساهلة، وخمس عشرة سنة للوقاحة التي كانت وقاحة سيئة جدًّا وأنا أحكم مما سمعناه من الشُّهود حتى لو كنت تصدق فقط عُشر ما سمعت، وأنا نفسي لا أصدق أكثر من ذلك مطلقًا، تلك الأرقام إذا جمعت معًا بشكل صحيح تبلغ تسع عشرة سنة».

قال الرئيس: «ممتاز!».

خلص الموظف: «لذا من الأفضل أن تجعلها عشرين عامًا وتكون بمنأى عن الخطر».

قال الرئيس باستحسان: «اقتراح ممتاز! أيها السَّجين! تمالك نفسك وحاول أن تقف باستقامة. ستكون عقوبتك عشرين عامًا هذه المرة. واحذر، لأنك إذا ظهرت أمامنا ثانية مهما كانت التهمة فسوف نتعامل معك بجدية كبيرة!»

ثم انقضَّ أتباع القانون الوحشيون على العلجوم المنحوس، حمَّلوه بالسلاسل وجروه من المحكمة، يصيح ويصلي ويحتج عبر السُّوق حيث تقسو الجماهير اللعوبة دومًا على جرائم مكتشفة بالقدر نفسه الذي تكون به شفوقة ومتعاطفة عندما يكون المرء «مطلوبًا» فحسب، هاجموه بالسُّخرية وبالجزر وبأقوال دارجة مشهورة، مرَّ بتلاميذ مدرسة مستهزئين، توهجت وجوههم البريئة بسرور لم يسبق لهم أن خبروه من رؤية رجل نبيل يواجه المصاعب، عبر الجسر المتحرك الأجوف، تحت المشابك الحديدية الشَّائكة، تحت القنطرة المتجهمة للقلعة القديمة الكئيبة التي طاولت أبراجها القديمة السَّماء، عبر حجرات الحرس التي تعج بجماعة من جنود مبتسمين خارج الخدمة، عبر حراس سعلوا بطريقة مريعة وساخرة، لأن هذه هي الطريقة التي يجرؤ من خلالها حارس في محرسه على إظهار احتقاره وكرهه للجريمة، صعدوا أدراجًا متعرجة بالية، عبروا برجال مسلحين بخوذ ودروع من الفولاذ، يطلقون نظرات مهدِّدة مبتذلة من خلال أقنعتهم، عبر باحات، حيث شدت كلاب الدرواس الضَّخمة سلاسلها وضربت الهواء بكفوفها رغبة في الوصول إليه، عبر حراس قدامى، تتكئ مطاردهم القديمة إلى الحائط، يغفون على فطيرة باللحم وإبريق من مشروب بني، مرارًا وتكرارًا، بغرف تعذيب لسحق الإبهام وغرفة

المخلعة، بالمنعطف الذي أدى إلى السِّقالة الخاصَّة، حتى وصلوا إلى باب أكثر الزنازين كآبة التي تقع في أعمق قلب للحصن. هناك توقفوا أخيرًا مؤقتًا، حيث جلس حارس قديم يلعب بإصبعه بمجموعة من المفاتيح القوية.

قال رقيب الشُّرطة وهو يخلع خوذته ويمسح جبينه: «بحق الله! استيقظ أيها المتبطل العجوز، واستلم منا هذا العلجوم الحقير، إنه مجرم ذو ذنب عميق ودهاء وبراعة لا مثيل لها. اسهر على مراقبته واحرسه بكل ما أوتيت من مهارة. وانتبه جيدًا أيها الرجل الحكيم، في حال حدوث مصاب غير مرغوب فيه، فإنك ستتحمل المسؤولية أيها العجوز، والوباء سيحل بكما!»

أومأ السَّجان برأسه متجهمًا، ووضع يده الواهنة على كتف العلجوم البائس. صرَّ المفتاح الصَّدئ في القفل ومن خلفهما صلصل الباب الكبير؛ وكان العلجوم سجينًا عاجزًا في أبعد زنزانة من زنزانات أكثر القلاع حصانة، التي تتمتع بأفضل حراسة على طول إنكلترا السَّعيدة وعرضها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السَّابع

زمار عند مطلع الفجر

كان طائر نمنمة الصَّفصاف يزقزق أغنيته الصَّغيرة الرقيقة، مختبئًا في الحاشية المظلمة لضفَّة النَّهر. ومع أن السَّاعة تجاوزت العاشرة مساء، كانت السماء لا تزال متشبثة، بعد أن احتفظت ببعض الحواشي المتطاولة من ضوء النَّهار الرَّاحل، وانقشعت حرارة ما بعد الظهيرة الملهبة وتبددت عندما لمستها نسمات ليالي منتصف الصيف القصيرة الباردة. استلقى الخلد على الضِّفة لما يزل لاهثًا من ضغط النهار القائظ الذي كان صافيًا منذ الفجر حتى الغروب المتأخر، وانتظر عودة صديقه. كان يتنزه في النهر مع بعض الأصحاب، تاركًا للجرذ حرية الاستمتاع بوقته برفقة ثعلب الماء في جلسة طويلة وحدهما. ثم عاد إلى المنزل فوجده مظلمًا ومهجورًا وما من إشارة إلى الجرذ الذي كان ساهرًا حتى وقت متأخر مع رفيقه القديم. كان الجو لا يزال حارًا جدًّا فلم يكن واردًا التفكير في البقاء داخل المنزل، لذا استلقى على عدد من أوراق نبات الحمَّاض الباردة، وفكر في اليوم المنصرم وفي أحداثه، وفي أن كل شيء كان على خير ما يرام.

كان وقع خطوات الجرذ الخفيف على العشب الجاف مسموعًا وهو يدنو الآن.

«أوه، يا لها من برودة مباركة!» قال وجلس شاخصًا في النهر متأملًا وصامتًا ومهمومًا.

قال الخلد حالًا: «لقد بقيت لتناول العشاء، أليس كذلك؟»

قال الجرذ: «لم يكن أمامي خيار، ما كانوا ليسمحوا لي بالمغادرة قبل ذلك. أنت تعلم كم هم لطفاء على الدَّوام. وكعادتهم أشاعوا من حولي جوًا من البهجة قدر الإمكان، حتى لحظة مغادرتي. لكني منذ البداية شعرت بأني بليد، فقد كان واضحًا لي أنهم تعساء جدًّا ولو أنهم حاولوا إخفاء ذلك. أيها الخلد أخشى أنهم في ورطة. بورتلي الصَّغير تائه ثانية، وأنت تعلم كم يفكر والده فيه كثيرًا، ولو أنه لا يقول الكثير عن الأمر».

قال الخلد باستخفاف: «ماذا؟ ذلك الصغير! حسنًا، على فرض أنه كذلك، ما الذي يستدعي القلق عليه؟ هو يشرد دومًا ويضل الطريق ويظهر ثانية، إنه مغامر. لكن لم يصبه يومًا أي أذى. حيوانات المنطقة برمتها يعرفونه ويحبونه، كما يحبون أباه تمامًا؛ ثعلب الماء العجوز. من غير ريب سوف يصادفه حيوان أو سواه ويعيده ثانية سليمًا. عجبًا، لقد عثرنا عليه بأنفسنا بعيدًا عن البيت مسافة أميال، مبتهجًا ورابط الجأش تمامًا!»

قال الجرذ بوقار: «نعم، لكن هذه المرة أكثر خطورة، لقد مر على فقدانه عدَّة أيام الآن، ولم تترك الثعالب موضعًا إلا وبحثت فيه دون أن تعثر على أدنى أثر. ولقد سألوا جميع الحيوانات أيضًا على مسافة أميال ولا أحد يعرف عنه شيئًا. من الواضح أنه يشعر بقلق أكبر من القدر الذي يفصح عنه. عرفت منه أن بورتلي

الصَّغير لم يتعلم السِّباحة جيِّدا بعد، ويمكنني أن أرى أنه يفكر في البحث عنه عند السد. ففي هذا الوقت من السنة، يزداد منسوب المياه المتدفق من أعلى السد؛ ما يجعل المكان ساحرًا للأطفال فيجذبهم بجماله، ثم يوجد... حسنًا، أفخاخ وأشياء، كما تعلم. ليس الثَّعلب ذلك الشَّخص الذي يتوتر بشأن أي ولد من أولاده قبل أن يحين الوقت. والآن هو متوتر. عندما غادرت خرج معي، قال إنه بحاجة إلى استنشاق بعض الهواء، وتحدَّث عن رغبته في تحريك ساقيه. لكني استطعت أن أرى أن هذا لم يكن هو السبب، لذا استدرجته بالكلام ودفعته لأن يبوح لي بكل شيء أخيرًا. كان ينوي أن يمضي الليل في المراقبة عند مخاضة النهر. أنت تعرف المكان حيث كانت المخاضة القديمة في الأيام السَّالفة قبل بناء الجسر؟»

قال الخلد: «أعرفها جيدًا، لكن لماذا فضّل الثَّعلب المراقبة هناك؟»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

واصل الجرذ: «حسنًا، يبدو أنه أعطى بورتلي هناك أول دروس السِّباحة، من تلك المنطقة الضَّحلة الحصوية، قرب الضِّفة. وهناك اعتاد أن يعلمه صيد السَّمك، وهناك اصطاد بورتلي الصَّغير سمكته الأولى التي كان مزهوًا بها. أحبَّ الطفل المكان، والثعلب يفكر في أنه لو جاء يتسكع عائدًا من حيث هو -إذا كان في أي مكان في هذا الوقت، الطفل الصَّغير المسكين-يمكن أن يذهب إلى المخاضة التي كان مولعًا بها كثيرًا، أو لو صادفها قد يتذكرها جيدًا جدًا، ويتوقف هناك ويلعب ربما. لذا يذهب الثعلب إلى هناك كل ليلة ويراقب- لعل الحظ يحالفه كما تعلم، فقط اعتمادًا على الحظ!»

مرت لحظات من الصمت، كانا يفكران في الأمر نفسه، الحيوان الوحيد المحزون، جاثمًا إلى المخاضة، يشاهد وينتظر الحظ، طوال الليل.

قال الجرذ في الحال: «حسنًا، حسنًا، أفترض أنه علينا أن نفكر في الذَّهاب إلى النَّوم». لكنه لم يأتِ بنأمة قط.

قال الخلد: «أيها الجرذ، أنا ببساطة لا أستطيع أن آوي إلى الفراش وأنام وأظل مكتوف اليدين، حتى لو أنه يبدو أن ليس هناك من شيء يمكن عمله. سنخرج القارب ونجذِّف في الماء الضَّحل عكس التيار. سيظهر القمر في السَّماء خلال ساعة تقريبًا، ثم سنبحث أيضًا قدر الإمكان، سيكون هذا أفضل من الذهاب إلى السَّرير والبقاء مكتوفي الأيدي».

قال الجرذ: «هذا تمامًا ما كنت أفكر فيه، لا تصلح هذه الليلة للنوم بأي حال، وليس مطلع الفجر ببعيد جدًا، ثم يمكننا تلقُّف بعض الأخبار عنه من المستيقظين غدًا في طريقنا».

أخرجا القارب وتناول الجرذ المجذافين وجذَّف في الماء الضَّحل بحذر. كان هناك في وسط المجرى مسار ضيق واضح عكس السَّماء عكسًا ضعيفًا، لكن أينما سقطت الظلال على المياه من الضِّفة، أو من أجمة، أو من شجرة، كانت متماسكة من حيث المظهر كالضفتين تمامًا، وكان على الخلد إدارة الدَّفة وفقًا لذلك. كان الليل المظلم

والمهجور زاخرًا بضوضاء صغيرة، من أغنية وثرثرة وحفيف، تفيد عن السُّكان الصِّغار المنشغلين الذين كانوا مستيقظين وفي الخارج يمارسون حرفهم وصنائعهم طوال الليل إلى أن تهبط الشَّمس المشرقة عليهم أخيرًا وترسلهم إلى رقادهم المستحق عن جدارة. كانت جلبة المياه أيضًا أكثر وضوحًا مما كانت عليه في النهار، وأصوات خريرها وبقبقتها أكثر مباغتة وقربًا، وباستمرار بدأت هذه الأصوات عند ما بدا كأنه نداء واضح مفاجئ من صوت فصيح حقيقي.

كان خط الأفق واضحًا وصلدًا تجاه السَّماء، وظهر في ربع معين باللون الأسود تجاه وميض فوسفوري فضي صاعد نما باطراد. أخيرًا رفع القمر فوق حافة الأرض المنتظرة بمهابة بطيئة إلى أن تمايل مبتعدًا عن الأفق وانطلقا متحررين من المراسي، ومرة أخرى أخذا يريان السُّطوح، مروج منتشرة على نطاق واسع، وحدائق هادئة، والنهر نفسه من الضِّفة للضفة، وانكشف كل شيء برقَّة، خاليًا من الغموض والرعب، كل شيء مضاء ثانية كما لو بضوء النهار، لكن مع اختلاف هائل. رحبت بهما مزاراتهما القديمة ثانية ترفل بكسوة جديدة، كما لو أن هذه الأثواب الجديدة النقية انسلخت وارتدت وعادت بهدوء تبتسم وهي تنتظر بحياء لترى إذا كانوا سيتعرفون إليها ثانية تحتها.

حط الصَّديقان في هذه المملكة الصَّامتة الفضيَّة وربطا قاربهما إلى شجرة صفصاف، واستكشفا بطول أناة الأسيجة والأشجار المجوَّفة، الجداول وقنواتها الصَّغيرة، الخنادق ومسيلات المياه الجافَّة. ركبا ثانية وشقا طريقهما عكس التيار بهذه الطريقة بينما بذل القمر الهادئ والمنفصل في السَّماء الصافية، ولو أنه بعيد جهده ليساعدهما في مسعاهما، إلى أن حانت ساعته وغرق على مضض نحو الأرض، وغادرهما واستحوذ الغموض مرة أخرى على الحقل والنهر.

ثم بدأ التغيير يظهر ببطء. ازداد الأفق وضوحًا، عدد أكبر من الحقول والأشجار أصبح في مرمى النظر وبدأ الغموض يبتعد عنهما بمظهر مختلف بطريقة ما. غرّد طائر فجأة ثم هدأ، وهبَّت نسمة خفيفة فخشخش القصب ونباتات الحلفاء. استقام الجرذ الذي كان جالسًا في مؤخرة المركب فجأة فيما جذَّف الخلد وأصغى بإصرار انفعالي. نظر الخلد الذي كان يحافظ بضربات رفيقة على حركة القارب بينما يتفحص الضِّفتين بعناية، إليه بفضول.

تنهَّد الجرذ وهو يهبط في مقعده ثانية: «لقد رحل! جميل جدًّا وغريب وجديد! بما أنه قد توقف فجأة، أكاد أتمنى لو أني لم أسمعه قط. لأنه أيقظ فيَّ شوقًا وهو ألم، ولا يبدو أن من شيء يستحق العناء سوى سماع ذلك الصَّوت مرة أخرى ومواصلة الاستماع إليه إلى الأبد. لا! ها هو ثانية!» صاح مستنفرًا مرة أخرى. مفتونًا لبث صامتًا وقتًا طويلًا مسحورًا.

قال حالًا: «الآن لقد مر وبدأت أفقده، أوه أيها الخلد! يا لجماله! الخرير المرح والجذل، والنداء السَّعيد، الرقيق، الواضح لصوت مزمار بعيد! يا لها من موسيقى لم أحلم بها قط، فيها النداء أقوى حتى من الموسيقى العذبة! جذِّف أيها الخلد، جذِّف! لأن الموسيقى والنداء لا بد أنهما من أجلنا...»

أذعن الخلد وهو مدهوش دهشة عظيمة.

قال: «لا أسمع شيئًا، لكن الريح تلاعب القصب والأسل وصفصاف السِّلال».

لم ينبس الجرذ بكلمة، إذا كان قد سمع بالفعل. كان سابحًا في عالم آخر طربًا ومتهدِّجًا ومسكونًا بكل حواسه بهذا الشَّيء الجديد المقدَّس الذي لحق بروحه العاجزة وأرجحها ولاطفها، طفل عاجز لكن سعيد في قبضة قوية مثبتة.

في صمت جذَّف الخلد بثبات، وسرعان ما وصلا إلى نقطة انقسم عندها النهر، منطقة نائية طويلة تتشعب إلى جانب واحد. بحركة خفيفة من رأسه، وجَّه الجرذ، الذي كان قد تخلى عن الدفة منذ وقت طويل، المجذِّاف ليذهب نحو المنطقة النائية. تقدَّم مد الضُّوء الزاحف أكثر فأكثر والآن استطاعا رؤية لون الزهور التي رصَّعت حافَّة المياه.

صرخ الجرذ بسعادة: «أوضح وأقرب مجددًا، الآن لا بدَّ أنك تسمعه بالتأكيد! آه -أخيرًا- أرى أنك تسمع!»

توقَّف الخلد عن التَّجذيف منقطع الأنفاس ومتحجِّرًا، عندما اندفع المجرى السَّائل من تلك الأنغام السَّعيدة عليه مثل موجة، وأمسكه وتملكه تمامًا. رأى الدموع على وجنتي رفيقه وحنى رأسه وفهم. توقَّفا هناك فترة، تحف بهما برفق نباتات اللوستريف الأرجوانية المنتشرة على حافة الضِّفة، ثم فرضت النداءات الواضحة المستبدة التي صاحبت هذا اللحن الجميل مشيئتها على الخلد، وتلقائيًا انحنى نحو مجذافيه ثانية. ونما الضّوء باطراد أقوى، لكن ما من طيور زقزقت كما اعتادت أن تفعل مع اقتراب الفجر، وفيما عدا الموسيقى السَّماوية كان كل شيء هادئًا على نحو بديع.

على كلا الجانبين، فيما انحدرا إلى الأمام، بدا عشب المرج الغني ذلك الصَّباح نضرًا وأخضر لا يُعلى عليه. لم يسبق لهما أن شاهدا قط الزهور بمثل هذا الزهو، شجيرات الصفصاف صاخبة، نبات إكليلية المروج برائحته الفوَّاحة والمنتشرة. ثم بدأت همهمة السَّد المقترب تحبس الهواء، وأدركا أنهما كانا يدنوان من النهاية التي ترصدت حملتهما بالتأكيد، مهما كانت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نصف دائرة واسعة من الرغوة والأضواء الوامضة وحواف المياه الخضراء اللماعة، أغلق السد العظيم المياه المرتدة من الضِّفة للضفة، مكدرًا السَّطح الهادئ كله بدوامات دائرية وأشرطة الزبد العائم ومضعفًا جميع الأصوات الأخرى بدمدمته المهيبة والمهدئة. امتدت جزيرة صغيرة راسية في منتصف مجرى النهر محتضنة في امتداد ذراع السد الوامض بوهن، تنتشر على أطرافها أشجار الصفصاف والبتولا الفضية وجار الماء. متحفظة، خجولة، لكن مفعمة بالأهمية، فقد أخفت كل ما يمكن أن تحمله وراء حجاب، مبقية عليه حتى يحين الوقت، ومع السَّاعة يأتي هؤلاء المدعوون والمختارون.

مرَّ الحيوانان عبر المياه المكسورة والهائجة ببطء لكن دون أدنى شك أو تردد، مع شيء من الترقُّب الجليل، وربطا قاربهما عند حافَّة الجزيرة المزهرة. هبطا بصمت وشقا طريقهما عبر الأعشاب المزهرة والعبقة والشُّجيرات التي ارتفعت نحو الأرض المستوية، إلى أن وقفا على مرج صغير من خضرة بديعة، محاط بأشجار بساتين الطبيعة من التفاح البري والكرز البري وبرقوق السِّياج.

همس الجرذ كما لو أنه في سبات: «هذا مكان أغنية حلمي، المكان التي عزفته الموسيقى لي، سنجده هنا، في هذا المكان المقدَّس، بالتأكيد!»

ثم شعر الخلد فجأة برهبة عظيمة تستبد به، رهبة حولت عضلاته إلى ماء سائب، أحنى رأسه وثبت قدميه في الأرض. لم يكن ذعرًا من رعب، شعر بسلام رائع وبسعادة حقًا، لكن كانت الرهبة التي ضربته بقوة وسيطرت عليه، دون أن يرى، عرف أنها لا يمكن أن تعني سوى أن ثمَّة حضورًا مهيبًا قريبًا جدًا. التفت بصعوبة للبحث عن صديقه، ورآه إلى جانبه مذعنًا ويرتجف بشدة، وكان الصَّمت لا يزال مطبقًا في الأغصان المكتظة بالطيور حولهما والنور ينمو أكثر فأكثر.

ربما ما كان ليجرؤ قط على رفع بصره، لكن مع أن عزف المزمار قد خفت الآن؛ فقد بدا النداء والدعوات مسيطرين ومستبدين. قد لا يمانع، لو كان الموت نفسه على وشك أن يضربه على الفور، ما إن نظر بعين مميتة إلى الأشياء التي ظلت مخفية بشكل صحيح. أذعن مرتجفًا ورفع رأسه المتواضع، ثم في ذلك الصَّفاء المطلق للفجر الوشيك، فيما بدت الطبيعة المملوءة بالألوان المذهلة، تحبس أنفاسها ترقبًا للحدث، نظر في عيني الصَّديق والمساعد، رأى امتداد القرون المقوَّسة إلى الخلف، رأى الأنف المعقوف الصَّارم متلألئًا في ضوء النهار المتنامي، بين العينين اللطيفتين اللتين كانتا تتطلعان نحوهما بظرف، فيما ندَّ الفم الملتحي عن نصف ابتسامة عند زاويتيه، رأى العضلات المتموجة على الذِّراع الممتدة عبر الصَّدر العريض، وكانت اليد الطويلة اللينة لا تزال ممسكة المزمار وقد سقط للتو من الشِّفاه المنفرجة، رأى المنحنيات البهية للأطراف المزغبة المرتبة على المرج بارتياح جليل. أخيرًا رأى معششًا بين حافريه، نائمًا بهدوء في سلام تام ورضا، الهيئة الطفولية الصَّغيرة المكوَّرة القصيرة والبدينة لوليد الثَّعلب. كل هذا الذي رآه، للحظة واحدة لاهثة وشديدة، جلية على سماء الصَّباح، ومع ذلك عندما نظر، عاش، ومع ذلك ظل يتساءل ما بقي حيًا.

التقط الخلد أنفاسه بصعوبة وهمس مرتجفًا: «أيها الجرذ! هل أنت خائف؟»

تمتم الجرذ تشع عيناه بحب يفوق الوصف: «خائف؟ خائف! منه؟ أوه، مطلقًا، مطلقًا! ومع ذلك، مع ذلك، أوه أيها الخلد، أنا خائف!»

ثم جثم الحيوانان على الأرض، أحنيا رأسيهما وسجدا.

ظهر قرص الشَّمس الذَّهبي العريض فوق الأفق قبالتهما بهيًّا، وضربت الأشعة الأولى التي سطعت على المروج الموازية للمياه أعين الحيوانين وبهرتهما. عندما

استطاعا النظر من جديد كانت الرؤية قد تبددت والهواء زاخرٌ بترانيم الطيور المرحبة بالفجر.

بينما كانا يحدقان بذهول، في بؤس أبكم يتعمَّق ويستوعبان ببطء كل ما شاهداه وما فقداه، تقاذفت نسمة صغيرة متقلبة تتراقص من سطح المياه شجر الحور الرجراج، هزَّت الزهور النَّدية، وهبَّت بخفَّة وداعبت وجهيهما، ومع لمستها الناعمة جاء النسيان الفوري. فهذه أفضل هدية يحرص نصف الإله اللطيف على منحها لهؤلاء الذين كشف نفسه لهما وساعدهما: هديَّة النسيان. لئلا يبقى التَّذكر الفظيع وينمو ملقيًا بظلاله على الجذل والمتعة، والذاكرة العظيمة العالقة في الذّهن سوف تفسد ما بقي من حياة الحيوانات الصَّغيرة الذين تمت مساعدتهم للتخلص من المصاعب لأنهم ينبغي أن يكونوا سعداء ومرحين كما كانوا في السَّابق.

فرك الخلد عينيه وحدَّق بالجرذ الذي كان يبحث عنه بارتباك.

سأل: «أستميحك عذرًا، ماذا قلت أيها الجرذ؟»

قال الجرذ ببطء: «أظن أني كنت فقط أشير إلى أن هذا المكان يبدو صحيحًا، وأننا لا بد أن نجده هنا إذا كنا سنجده في أي مكان. وانظر! عجبًا، ها هو هناك الطفل الصَّغير!» وهرع مطلقًا صرخة ابتهاج نحو بورتلي الهاجع.

لكن الخلد وقف ساكنًا لحظة، مستغرقًا في التفكير. مثل شخص أوقظ فجأة من حلم جميل، يكافح كي يتذكره ولا يسعه استرداد شيء سوى إحساس واهٍ بجماله، الجمال! إلى أن تلاشى بدوره أيضًا ويتقبل الحالم مرارة اليقظة القاسية الباردة وجميع عواقبها، لذا هزَّ الخلد رأسه بحزن بعد كفاح مع ذاكرته وقتًا قصيرًا وتبع الجرذ.

استيقظ بورتلي مصدرًا صريرًا مبتهجًا وتلوَّى مسرورًا لمرأى أصدقاء والده الذين لعبوا معه غالبًا في سالف الأيام. مع ذلك خلال لحظة شحب وجهه وتردى ليدور في حلقة مصدرًا أنينًا مبتهلًا، مثل طفل غطَّ في النَّوم بسعادة بين ذراعي مربيته، واستيقظ ليجد نفسه وحيدًا وموضوعًا في مكان غريب، يتفحَّص الأركان والخزائن ويجري من غرفة إلى أخرى، يزداد اليأس بصمت في قلبه، رغم ذلك فتَّش بروتلي الجزيرة وبحث بعناد لا ينضب، إلى أن حانت اللحظة السَّوداء أخيرًا فاستسلم وجلس وراح يبكي بمرارة.

هرع الخلد بسرعة لمواساة الحيوان الصَّغير، لكن الجرذ تريَّث وأطال النَّظر بارتياب في آثار حوافر عميقة في المرج.

تمتم ببطء متأملًا: «ثمَّة حيوان كبير كان هنا»، ووقف طويلًا شارد الفكر مضطرب العقل بغرابة.

نادى الخلد: «تعال أيها الجرذ! فكر في الثَّعلب المسكين، ينتظر هناك إلى مخاضة النهر!»

سرعان ما تعزّى بورتلي وعده بالمكافأة، وهي نزهة في النّهر في قارب السَّيد جرذ الحقيقي، وأرشده الحيوانان إلى جانب المياه ووضعاه بأمان بينهما في قعر القارب، وجذّفا عبر المياه المرتدة. كانت الشَّمس في كبد السَّماء تمامًا الآن وحارة عليهم، غردت الطيور بقوة ودون قيود، وابتسمت الزهور وأومأت برؤوسها من الضِّفتين، لكن بشكل ما -هكذا فكرت الحيوانات- بألوان أقل ثراء وبريقًا مما بدا أنهما يتذكران رؤيته مؤخرًا تمامًا في مكان ما، تساءلا أين.

وصلا إلى النهر الرئيس مرة أخرى، أدارا رأس القارب في اتجاه المنبع، نحو النقطة التي عرفا أن صديقهما كان يحرس فيها وحيدًا. عندما اقتربا من المخاضة المعروفة، جنح الخلد بالقارب نحو الضِّفة، ورفعا بورتلي ووضعاه على ساقيه على مسار السَّحب، أعطياه أوامر السَّير وتربيتة وداع ودية على ظهره، واندفعا نحو وسط المجرى. راقبا الحيوان الصَّغير عندما خاض في المياه على طول الطريق بامتنان وبأهمية، راقباه إلى أن شاهدا خطمه يرتفع فجأة وخوضه يتحول إلى سير متمهل أخرق عندما كان يسرع من وتيرته مصدرًا أنينًا حادًا ويتلوى شاكرًا. عندما نظرا نحو النهر تمكنا من رؤية الثّعلب ينهض متوترًا ومتصلبًا من المياه الضَّحلة حيث جثم في صبر أبكم، وتمكنا من سماع نباحه المبتهج عندما قفز عبر أغصان الصَّفصاف نحو الدَّرب. ثم أدار الخلد القارب بسحبة قوية على مجذاف واحد، وجعل التيار المشبع يحملهما ثانية حيثما يشاء وقد انتهت مهمتهما الآن بسعادة.

قال الخلد متكئًا بإرهاق على مجذافيه عندما انجرف القارب: «أشعر بغرابة بالتَّعب أيها الجرذ، ربما ستقول إنه بسبب بقائي ساهرًا طوال الليل، لكن ذلك لا شيء. نفعل ذلك نصف ليالي الأسبوع، في هذا الوقت من السَّنة. لا، أشعر كما لو أني كنت أمر بشيء مثير جدًّا، رهيب بالأحرى، وقد انتهى للتو، ومع ذلك لم يحدث شيء على وجه الخصوص».

تمتم الجرذ وهو يستند إلى الوراء مغمضًا عينيه: «أو شيء مفاجئ جدًّا وبهيج وجميل، شعوري مشابه لشعورك تمامًا أيها الخلد، ميِّت من التَّعب ببساطة، ولو أنه ليس تعبًا جسديًا. من حسن حظنا أن التيار معنا ليأخذنا إلى البيت. أليس مبهجًا أن تشعر بالشَّمس ثانية تتغلغل في عظام المرء! واسمع الريح تلعب في القصب!»

«إنها مثل موسيقى... موسيقى من بعيد»، قال الخلد مومئًا بنعاس.

تمتم الجرذ حالمًا وواهنًا: «هذا ما كنت أفكر فيه، موسيقى راقصة -من النوع المرح الذي يجري دون توقف - لكن ترافقها كلمات أيضًا - إنها تتحول إلى كلمات وتخرج منها ثانية - ألتقطها بين الحين والآخر- ثم إنها موسيقى راقصة مرة أخرى، ثم لا شيء سوى همس القصب الناعم الرهيف».

قال الخلد بحزن: «أنت تسمع أفضل مني، لا أستطيع التقاط الكلمات».

قال الجرذ بهدوء، لا تزال عيناه مغمضتين: «دعني أحاول أن أعطيك إياها، الآن إنها تتحول إلى كلمات ثانية خافتة لكن واضحة: لئلا تقيم الرهبة فتحيل مرحك جزعًا - ستنظر نحو قوتي في ساعة العون - لكن بعدئذ سوف تنسى!

الآن يتولى القصب الأمر. انسَ، انسَ، تتنهد وتخمد إلى حفيف وهمس. ثم يعود الصَّوت...

مخافة أن تحمر الأطراف وتتشقق - ألوي الفخ المثبت - بينما أرخي الشِّرك ربما تلمحني هناك - لأنك بالتأكيد سوف تنسى! جذِّف أقرب أيها الخلد، أقرب إلى القصب! من الصَّعب أن تلتقط، وتزداد خفوتًا مع مرور كل دقيقة.

المغيث والشَّافي، أنا أهلل - حيوانات متشردة صغيرة في الغابة الرطبة - أجد فيها تائهين، أعصب فيها جرحًا - وأدعوهم جميعًا إلى النسيان!

أقرب، أيها الخلد، أقرب! لا، هذا لا يفي بالغرض، تبددت الأغنية في حديث القصب».

سأل الخلد المتحير: «لكن ماذا تعني الكلمات؟».

قال الجرذ ببساطة: «هذا ما لا أعرفه، لقد نقلتها لك كما وصلتني. آه! الآن تعود ثانية وهذه المرة كاملة وواضحة! هذه المرة أخيرًا هي الشَّيء الحقيقي الواضح بسيط... انفعالي... تام...»

«حسنًا، لنسمع إذن»، قال الخلد بعد أن انتظر بصبر بضع دقائق شبه غافٍ في الشَّمس الحارة.

لكن لم يأتِ جواب. نظر وفهم الصَّمت. سرعان ما غطَّ الجرذ المرهق في النَّوم يفتر ثغره عن ابتسامة تنمُّ عن سعادة غامرة، ونظرة منصتة لا تزال متريثة هناك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

مغامرات العلجوم

عندما وجد العلجوم نفسه حبيسًا في زنزانة كريهة الرائحة وشديدة الرطوبة، وعرف أن الظلمة الموحشة لحصن من القرون الوسطى تحول بينه وبين العالم الخارجي بشمسه المشرقة وطرقاته السَّريعة المعبَّدة جيدًا، حيث كان فيها مؤخرًا يشعر بسعادة غامرة، يلهو ويمرح كما لو أنه امتلك جميع طرقات إنكلترا، طوَّح نفسه على الأرض بطوله الكامل وذرف الدموع المريرة واستسلم لليأس القاتم. قال: «هذه نهاية كلِّ شيء. على الأقلِّ هي نهاية سيرة العلجوم وهو الأمر نفسه، العلجوم المشهور والوسيم، العلجوم الثري والمضياف، العلجوم الطليق وغير المكترث والظريف! كيف يمكن لي أن آمل في أن أستعيد حريتي ثانية؟ أنا من استحق السِّجن لارتكابي سرقة سيارة غاية في الجمال بمثل هذه الطريقة المغامرة، ولقاء مثل هذه الوقاحة المبتكرة والمثيرة، متحفًا بها مثل هذا العدد من رجال الشُّرطة السِّمان الغاضبين!» (هنا خنقه نشيجه). «لقد كنت حيوانًا أحمق، الآن يجب أن أذوي في هذه الزنزانة إلى أن ينسى الناس، الذين كانوا يتفاخرون بمعرفتي، اسم العلجوم بالذات! أوه أيها الغرير العجوز الحكيم! أوه أيها الجرذ الذكي البارع والخلد المتعقِّل! يا لها من أحكام سليمة ومعرفة بالناس وبالأمور تلك التي تملكونها! أوه أيها العلجوم التعيس والمهجور!» بمناحات مثل هذه أمضى أيامه ولياليه طوال عدة أسابيع، ممتنعًا عن تناول الوجبات أو المرطبات الخفيفة التي كانت تقدم له فيما بينها، ولو أن السَّجان الكئيب والعتيق الذي كان عالمًا أن العلجوم يملك الكثير من النقود، أشار بين الحين والآخر إلى أنه يستطيع تدبر أمر إرسال الكثير من التسليات والكماليات الباذخة بالفعل من الخارج، بسعر محدد.

للسَّجان ابنة، وهي فتاة لطيفة وطيبة القلب، مدَّت يد العون لوالدها في واجبات عمله الخفيفة. كانت مولعة بالحيوانات خاصة، وإلى جانب طائر الكناري الذي علق قفصه على مسمار في جدار المحرس الضَّخم نهارًا، وكان مصدر ازعاج عظيم للسجناء الذين كان يلذ لهم الحصول على إغفاءة بعد العشاء، وكان يُغطى بقطعة قماش على طاولة الردهة ليلًا، احتفظت بعدَّة فئران ملونة وسنجاب نشيط لا يهدأ. قالت هذه الفتاة اللطيفة لوالدها ذات يوم، وقد أثار بؤس العلجوم الشفقة في قلبها: «أبتِ، لا أستطيع تحمُّل رؤية ذلك الحيوان المسكين شقيًا ويزداد نحولًا! دعني أتولى تدبير أمره. أنت تعلم مدى ولعي بالحيوانات. سأطعمه من يدي ويجلس ويفعل كل أنواع الأمور».

أجاب والدها إنها تستطيع فعل ما تشاء معه. كان متعبًا من العلجوم ومن عبوسه وغروره ووضاعته. لذا ذهبت ذلك اليوم في مهمتها الرحيمة وقرعت على باب زنزانة العلجوم.

قالت بتودد عند الدُّخول: «الآن ابتهج أيها العلجوم، واجلس وجفف عينيك وكن حيوانًا متعقلًا. وحاول تناول القليل من وجبة العشاء. انظر، لقد جلبت لك قليلًا من

وجبتي، ساخنة من الفرن!»

كانت وجبة مكونة من الملفوف والبطاطا موزعة في طبقين، وفاحت رائحتها الذكية في الزنزانة الضَّيقة. وصلت رائحة الملفوف الثاقبة أنف العلجوم فيما كان منبطحًا في بؤسه على الأرض، وجعلته يفكر للحظة في أن الحياة ربما ليست شيئًا فارغًا ويائسًا كما تخيَّل. لكن مع ذلك انتحب وركل بساقيه ورفض أن يتعزى. لذا انسحبت الفتاة الحكيمة إلى حين، لكن بالطبع بقي قدر كبير من رائحة الملفوف السَّاخن في الزنزانة، فاشتمها العلجوم بين نشيج وآخر وتأمَّل، وشيئًا فشيئًا بدأت تلوح له أفكار جديدة وملهمة: عن الفروسية والشِّعر ومآثر تنتظر تحقيقها، عن المروج الفسيحة ترعى فيها الماشية، تجتاحها الشَّمس والريح، ببستان للخضروات، وتخوم مستقيمة معشبة، وزهور «فم السَّمكة» الدافئة التي يكتنفها النحل، وبالصلصلة المؤسِّية للأطباق الموضوعة على الطاولة في قصر العلجوم الريفي، وصوت احتكاك قوائم الكراسي بالأرض عندما يقرب كل شخص كرسيه من الطاولة. شاب هواء الزنزانة الضَّيقة مسحة وردية، بدأ يفكر في أصدقائه، وكيف يمكن أن يكونوا بالتأكيد قادرين على فعل شيء، في المحامين وفي احتمال أن يكسبوا قضيته، وكم كان أحمق لأنه لم يوكل عددًا منهم، وأخيرًا فكر بذكائه العظيم وبدهائه وبكل ما كان قادرًا على فعله لو أنه يركز فقط تفكيره عليه، ثم إن الشِّفاء تام تقريبًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما عادت الفتاة بعد بضع ساعات، حملت صينية عليها كوب من الشَّاي المعطَّر يتصاعد منه البخار وطبق وافر بعدد كبير من قطع الخبز المحمَّص السَّاخن المدهون بالزبدة، قطع سميكة وبنية اللون على كلا الجانبين، والزبدة تسيل من الثقوب في قطرات ذهبية عظيمة كما يتقطر العسل من قرصه. ببساطة رائحة ذلك الخبز المدهون بالزبدة خاطبت العلجوم، وتحدثت بصوت غير متردد، عن المطابخ الدافئة، عن الفطور في صباحات مشرقة باردة، عن ردهة مريحة إلى جانب الموقد في أمسيات الشِّتاء، بعد انتهاء المرء من تجواله والأقدام الزلقة مسندة على سياج المدفأة، بخرخرة القطط القانعة، وتغريد طيور الكناري النَّاعسة. جلس العلجوم في النهاية مرة أخرى، جفَّف عينيه، رشف الشَّاي وقضم الخبز المحمص، وسريعًا بدأ يتحدَّث عن نفسه بطلاقة، وعن المنزل الذي قطنه وعن مآثره هناك وكم كان مهمًا وكم فكَّر أصدقاؤه فيه!

رأت ابنة السَّجان أن موضوع الحديث كان يجديه نفعًا بقدر ما كان يفعل الشَّاي، وهذا كان صحيحًا، فشجعته على الاستمرار.

قالت: «حدِّثني عن قصر العلجوم الريفي، يبدو جميلًا».

قال العلجوم بفخر: «إن قصر العلجوم الريفي مسكن مناسب لرجل شريف مستقل بنفسه، فريد من نوعه، يعود تاريخه جزئيًا إلى القرن الرابع عشر، لكنه طافح بكل الوسائل الحديثة. أحدث صرف صحي. يبعد مسافة خمس دقائق عن الكنيسة ومكتب البريد وملاعب الغولف. مناسب لـ...»

قالت الفتاة ضاحكة: «مبارك الحيوان، لا أريد أن آخذه. أخبرني شيئًا حقيقيًا عنه. لكن أولًا انتظر حتى أجلب لك المزيد من الشَّاي والخبز المحمص».

ابتعدت بخطى رشيقة وعادت في الحال تحمل ملء صينية جديدة، والعلجوم منصبًا على الخبز المحمَّص بشره، طابت نفسه وعاد إلى سابق عهده، أخبرها عن مرأب القوارب، وبركة السَّمك، وبستان الخضروات المحوط القديم، وعن حظائر الخنازير والإسطبلات، وعشّ الحمام وقنّ الدجاج، وعن منتجات الحليب والمغسل، وخزائن الأواني الصِّينية ومكاوي الملاءات (أحبت ذلك خصوصًا) وعن قاعة الطعام، والتسلية التي نعموا بها هناك عندما اجتمعت الحيوانات الأخرى حول الطاولة، وكان العلجوم في أفضل حالاته ينشد الأغاني ويروي القصص متحمسًا عمومًا.

ثم أرادت أن تعرف عن أصدقائه الحيوانات، وكانت مهتمة جدًّا بكل ما يود أن يخبرها به عنهم وعن حياتهم، وما يفعلونه لتزجية وقتهم. بالطبع لم تقل إنها مولعة بالحيوانات الأليفة، لأنها كانت سريعة الفهم لترى أن العلجوم قد يشعر بالإهانة إلى أقصى حد. عندما تمنَّت له ليلة سعيدة بعد أن ملأت إبريق الماء وأعادت تنظيم القش من أجله، كان العلجوم المتحمس قد عاد إلى طبيعته إلى حدٍّ كبير، إلى الحيوان المغتر بنفسه الذي كان سابقًا. غنى أغنية صغيرة أو أغنيتين من النَّوع الذي اعتاد أن يغنيه في حفلات العشاء وتكوَّر في القش وحظي بليلة رائعة من الراحة وبأكثر الأحلام بهجة.

تحدثا معًا بعد ذلك أحاديث كثيرة مشوِّقة، مع مرور الأيام الموحشة، وازداد كثيرًا أسف ابنة السَّجان على العلجوم، وفكرت في أنه أمر مخز أن يحبس حيوان مسكين صغير في سجن عقوبة لما رأت أنها أذية تافهة جدًّا. فكَّر العلجوم بخيلائه طبعًا في أن اهتمامها به نابع عن رقَّة متعاظمة، ولم يستطع إلا أن يندم بعض الشَّيء، لأن الهوة الاجتماعية بينهما كانت كبيرة جدًّا، فقد كانت صبية حسناء ومن الواضح أنها أعجبت به أيَّما إعجاب.

ذات صباح كانت الفتاة مستغرقة في تفكير عميق وأجابت اعتباطيًّا ورأى العلجوم أنها لا تلقي اهتمامًا مناسبًا لأقواله الفكهة وتعليقاته اللامعة.

قالت في الحال: «أيها العلجوم، اسمع فقط من فضلك. لدي عمَّة وهي تعمل في غسيل الملابس».

قال العلجوم بلطف وبدماثة: «على رسلك، على رسلك، لا يهم، لا تفكري في الأمر بعد الآن. لدي الكثير من العمات الذين وجب عليهن أن يعملن في غسيل الملابس».

قالت الفتاة: «اهدأ دقيقة، أيها العلجوم، أنت تتحدث كثيرًا، هذا هو خطؤك الرئيس، أنا أحاول التفكير وأنت تصدع رأسي. كما قلت لدي عمَّة وهي غسالة ملابس، تغسل لجميع السُّجناء في القلعة، نحاول في العائلة القيام بأي عمل مأجور من ذلك النَّوع، كما تفهم. هي تأخذ الغسيل صباح يوم الاثنين، وتجلبه مساء يوم الجمعة. اليوم هو الخميس. الآن، هذا ما أفكر فيه: أنت فائق الثراء -على الأقل أنت تخبرني

دومًا بذلك- وهي في فقر مدقع. بضعة جنيهات لن تحدث فرقًا لك، وقد تعني لها الكثير. الآن أفكر في أنه إذا تمت مفاتحتها بشكل مناسب -أعتقد أنكم أنتم الحيوانات تستعملون كلمة تسوية- يمكنك أن تتوصل إلى ترتيب ما قد تسمح لك من خلاله أن تلبس رداءها وقلنسوتها وغيرها، ويمكنك الهرب من القلعة باعتبارك المرأة الغسالة الرسمية. أنتما متشابهان في كثير من الملامح، لا سيما فيما يخص الهيئة».

قال العلجوم وقد استشاط غضبًا: «لسنا متشابهين، لدي هيئة على قدر كبير من الأناقة، لما أنا عليه».

أجابت الفتاة: «وكذلك لدى عمتي، لما هي عليه. لكنها تملكها على طريقتها. أيها الحيوان البشع المتفاخر الجحود. أهذا جزاء أسفي عليك ومحاولتي مساعدتك؟!»

قال العلجوم بسرعة: «نعم، نعم، هذا صحيح، جزيلًا لك على مساعدتك بالتأكيد، لكن انظري هنا! أنت بالتأكيد لا تريدين أن يذهب السَّيد علجوم، صاحب قصر العلجوم، إلى الريف متنكرًا في زي غسالة ملابس!»

أجابت الفتاة بحيوية كبيرة: «إذن يمكنك أن تبقى هنا باعتبارك علجومًا، أفترض أنك تريد أن تذهب بعربة يجرها أربعة أحصنة!»

كان العلجوم الصَّادق مستعدًا دومًا ليعترف لنفسه بأنه مخطئ.

قال: «أنت فتاة طيبة ولطيفة وذكيَّة، وأنا علجوم متفاخر وأحمق بالفعل. قدميني إلى عمَّتك الفاضلة لو سمحت، ولا شك لدي أني والسَّيدة العظيمة سنتمكن من ترتيب شروط مرضية لكلا الطرفين».

مساء اليوم التالي، أدخلت الفتاة عمَّتها إلى زنزانة العلجوم وهي تحمل غسيله الأسبوعي مثبتًا في منشفة. كانت السَّيدة المسنة قد أُعدت مسبقًا للمقابلة، ومرأى عدد من الجنيهات الذَّهبية التي وضعها العلجوم بشكل تأملي على الطاولة واضحة للعيان، أتمَّ المسألة بخصوصية ولم يترك سوى القليل لمناقشته قدمًا. حصل العلجوم مقابل نقوده على رداء قطني ملون ومريلة وشال وقلنسوة سوداء رثَّة. كان الشَّرط الوحيد الذي وضعته السَّيدة المسنة هو أن تكمَّم وتقيد وتلقى في زاوية. شرحت أنها تأمل بهذه الحيلة غير المقنعة، المدعومة بخيال فاتن استطاعت تقديمه بنفسها أن تحتفظ بمنصبها على الرغم من المظهر المثير للشك للأمور.

ابتهج العلجوم لدى سماعه الاقتراح. قد يسمح له بمغادرة السِّجن بأسلوب ما دون أن تتلطخ سمعته باعتباره شخصًا خطيرًا ويائسًا، فساعد عن طيب نفس ابنة السَّجان في جعل عمتها تظهر قدر الإمكان على أنها ضحية الظروف التي لم يكن لها سلطة عليها.

قالت الفتاة: «الآن دورك أيها العلجوم، اخلع ذلك المعطف وتلك الصُّدرة، أنت على حالك سمين بما فيه الكفاية».

منتفضة بالضَّحك، عمدت إلى إلباسه الرداء القطني الملون، ورتبت الشَّال بطيَّات احترافية، وربطت أشرطة القلنسوة الرثة تحت ذقنه.

قهقهت قائلة: «أنت صورة طبق الأصل عنها، لكني واثقة من أنك لم تبدُ قط محترمًا ولو قليلًا في حياتك كلها سابقًا. الآن وداعًا أيها العلجوم وحظًا سعيدًا. اذهب مباشرة على الطريق التي جئت منها، وإذا قال لك أحد شيئًا، وهذا ممكن الحدوث، فلن يكونوا سوى من الرجال، يمكنك أن تمازحهم قليلًا بالطبع، لكن تذكَّر أنك أرملة وحيدة تمامًا في العالم ولديها سمعة يمكن أن تخسرها».

بقلب مرتجف لكن بخطوة حازمة قدر الإمكان، تقدَّم العلجوم باحتراس نحو ما بدت أنها المهمة الأكثر خطورة ورعونة، لكن سرعان ما تفاجأ باستمتاع عندما وجد إلى أي حد سهلت الأمور عليه، وتذلل قليلًا إزاء فكرة أن كلًا من شهرته والجاذبية التي بدا أنها تلهمها، كانت حقًا تخص شخصًا آخر. بدت هيئة غسالة الملابس الجاثمة في ردائها القطني المألوف جواز مرور لكل باب مسدود وبوابة كئيبة حتى عندما تردد غير واثق من الاتجاه الصَّحيح الذي ينبغي له أن يتخذه، وجد أن الحارس يساعده على الخروج من هذا المأزق عند البوابة التالية حريصًا على الذهاب لتناول الشَّاي مستدعيًا إياه ليأتي على الفور ولا يدعه ينتظر هناك طوال الليل. شكلت النكات المازحة والظريفة التي كان عرضة لها، التي وجب عليه بالطبع أن يرد عليها إجابات فعالة ومحفزة، بالفعل الخطر الرئيس، لأن العلجوم كان حيوانًا ذو إحساس قوي بكرامته وكانت الممازحة غالبًا (فكَّر) فقيرة وخرقاء والنكات تفتقر إلى الظرف كليًا. مع ذلك حافظ على رباطة جأشه بصعوبة كبيرة، لاءم ردوده مع صحبته ومهنته المفترضة، وبذل أفضل ما بوسعه كي لا يتخطى حدود الذَّوق السَّليم.

بدا له أن ساعات مرت قبل أن يعبر الفناء الأخير، رافضًا الدَّعوات الملحة من حجرة الحرس الأخيرة، وتملَّص من ذراعي الحارس الأخير الممدودتين، يتذرع بشغف مصطنع طلبًا لعناق وحيد وداعيٍّ. لكن سمع أخيرًا صوت طقطقة البوابة الفرعية في الباب الخارجي العظيم من خلفه، شعر بالهواء المنعش للعالم الخارجي على جبينه القلق وعرف أنه بات حرًا.

دائخ بالنجاح اليسير لمأثرته الجريئة، مشى سريعًا نحو أضواء البلدة، ليس لديه ولو أدنى فكرة عما عليه أن يفعل فيما بعد، لكنه كان واثقًا تمامًا من أمر واحد، أن عليه أن يتنحى بأسرع ما يمكن من الحي الذي كانت فيه السيدة التي اضطر إلى تمثيلها شخصية معروفة جيدًا وشهيرة.

وفيما كان يسير قدمًا متأملًا لفتت انتباهه أضواء حمراء وخضراء على مسافة ليست بعيدة نحو أحد أطراف البلدة، وصوت لهاث المحركات وشخيرها وتصادم العربات المتحولة وقع على مسامعه. فكَّر: «آها! هذه قطعة من الحظ! محطة قطار هي ما أريده في العالم كله في هذه اللحظة، وأكثر من ذلك، لست بحاجة لتكبد عناء الذهاب إلى البلدة لأستقله، وليس عليَّ أن أدعم هذه الشخصية المهينة بأجوبة بارعة، وهي على الرغم من فعاليتها الكاملة فإنها لا تدعم إحساس المرء باحترامه لذاته».

وعلى ذلك شق طريقه إلى المحطة، وراجع جدول المواعيد، ووجد أن قطارًا ذاهبًا في اتجاه بيته تقريبًا كان من المنتظر أن ينطلق خلال نصف ساعة. قال العلجوم ومعنوياته ترتفع بسرعة «مزيد من الحظ!» وذهب إلى مكتب الحجز لشراء تذكرته.

أعطى اسم المحطة التي عرف أنها الأقرب إلى القرية التي كان قصر العلجوم الريفي أهم معالمها، وتلقائيًا وضع أصابعه باحثًا عن النُّقود الضَّرورية حيث ينبغي أن يكون جيب صدرته. لكنه فوجئ بالرداء القطني الذي وقف إلى جانبه بنبل حتى الآن، الذي كان قد نسي أمره بدناءة، قد تدخل وخيب جهوده. بنوع من كابوس كافح مع الشيء الغريب العجيب الذي بدا أنه يمسك يديه، ويحول جميع الجهود القوية إلى ماء وسخر منه طوال الوقت، فيما انتظر مسافرون آخرون كانوا مصطفين في الطابور من خلفه بفارغ الصبر، يقدمون اقتراحات قيمة إلى حد ما وتعليقات صارمة ومفيدة إلى حد ما. أخيرًا، بطريقة ما، لم يفهم مطلقًا وصحيحًا كيف كسر العوائق وحقق الهدف ووصل إلى حيث توجد جميع جيوب الصُّدرة على الدوام، ووجد أنه ليس فقط لا يوجد نقود، بل ما من جيب لتوضع فيه، وما من صدرة كي يكون لها جيب!

ثار فيه الرعب عندما تذكَّر أنه ترك معطفه وصدرته في زنزانته ومعهما محفظته والنقود والمفاتيح والسَّاعة وأعواد الثقاب ومقلمة وكل ما يجعل الحياة تستحق أن تُعاش، كل ما يميز الحيوان كثير الجيوب، سيد الإبداع، عن الإنتاجات الوضيعة التي لا تملك سوى جيبًا واحدًا أو دون جيوب على الإطلاق، تثب أو تتجول بصورة متساهلة غير مجهزة للمنافسة الحقيقية.

ببؤس بذل جهدًا وحيدًا يائسًا ليتدبر الأمر، وبعودة إلى خلقه القديم الممتاز قال بمزيج من رجل ذي مكانة اجتماعية وأستاذ جامعي: «انظر! أجد أني نسيت محفظتي. فقط أعطني تلك التَّذكرة، لو سمحت، وسأرسل النقود غدًا، أنا معروف جيدًا في هذه الأنحاء».

حدَّق الموظف فيه وفي القلنسوة الرثَّة السَّوداء لحظة ثم ضحك. قال: «يجب أن أفكر في أنك معروفة جيدًا في هذه الأنحاء، لو جربت هذه اللعبة في أحوال كثيرة. ابتعدي عن النافذة من فضلك يا سيدة، أنت تعترضين سبيل المسافرين الآخرين!»

كان رجل عجوز ينخسه في ظهره منذ بضع لحظات، الآن دفعه بعيدًا، والأسوأ من ذلك أنه خاطبه متعاليًّا قائلًا: «يا امرأة»؛ ما أغضب العلجوم أكثر من جميع ما حدث تلك الأمسية.

تجوَّل على غير هدى على المنصَّة حيث كان يقف القطار متحيرًا ومفعمًا باليأس وقد سالت الدُّموع على جانبي أنفه. كان من الصَّعب، فكَّر، أن يكون على مسافة أمان وتقريبًا في البيت، وأن يعترضه نقص بضعة شلنات قذرة وسوء الظَّن التَّافه من قبل موظفين مأجورين. سيكتشف هربه سريعًا جدًا وستبدأ المطاردة، قد يلقى القبض عليه، يشتم ويقيد بالأغلال، يجر ثانية إلى السِّجن، وخبز وماء وقش،

حراسه وعقوباته ستتضاعف، ويا للتعليقات السَّاخرة التي سيسمعها من الفتاة! ما كان يمكن أن يفعل؟ لم يكن سريع القدمين، كان يمكن التعرف على هيئته للأسف.

ألا يمكنه أن يندسَّ تحت مقعد عربة؟ لقد رأى هذه الطريقة معتمدة من قبل تلاميذ المدرسة عندما انحرفت نقود الرحلة المقدمة من قبل آباء حسني الانتباه، إلى نهايات مختلفة أفضل. عندما فكر وجد نفسه أمام القطار الذي زيته سائقه الحنون ومسحه ولاطفه عمومًا، وهو رجل ضخم الجسم يحمل علبة زيت في يد وقطعة من نفايات القطن في الأخرى.

قال سائق القطار: «مرحبًا، يا أماه! ما المشكلة؟ لا تبدين مبتهجة».

قال العلجوم وهو يبكي من جديد: «أوه يا سيدي! أنا غسالة ملابس شقية مسكينة، ولقد ضيعت جميع نقودي، ولا يمكنني دفع ثمن التذكرة، ويجب أن أصل إلى البيت الليلة بطريقة ما، ولا أعرف ماذا عليَّ أن أفعل. يا إلهي، يا إلهي!»

قال سائق القطار متأملًا: «هذا خطب سيئ بالفعل، ضيعت نقودك ولا تستطيعين الوصول إلى البيت، وأعتقد أن هناك عددًا من الأطفال في انتظارك أيضًا؟»

انتحب العلجوم: «عدد كبير منهم. والأبرياء الصِّغار سوف يكونون جائعين-ويعبثون بأعواد الثقاب-ويعبثون بالمصابيح ويتشاجرون بحماس عمومًا. يا إلهي، يا إلهي!»

قال السَّائق الطيب: «حسنًا سأخبرك ما سأفعل، تقولين إنك تعملين في غسيل الملابس، هذا حسن جدًا. وأنا سائق قطار كما ترين جيدًا، ولا أنكر أنه عمل قذر جدًّا. يستهلك القمصان حقًا إلى أن تعبت زوجتي من غسيلها. لو تغسلين عدَّة قمصان من أجلي لدى وصولك إلى البيت وترسلينهم سأمنحك حقَّ الركوب في قطاري. إنه أمر مخالف لقوانين الشَّركة، لكننا لسنا صعبي الإرضاء في تلك الأنحاء البعيدة عن مركز المدينة».

تحوَّل بؤس العلجوم طربًا عندما تسلق بتوق إلى موضع السّائق في القطار. بالطبع لم يسبق له أن غسل قميصًا في حياته، ولم يستطع حتى لو حاول أن يفعل، وبأي حال لم يكن ينوي أن يبدأ، لكنه فكَّر: «عندما أصل إلى البيت بأمان، إلى قصر العلجوم الريفي، وأمتلك ثانية نقودًا وجيوبًا لأضعها فيها، سوف أرسل إلى سائق القطار مبلغًا من المال يكفي ليدفع ثمن غسيل كمية كبيرة من الملابس، وذلك سوف يكون الأمر نفسه أو أفضل منه».

لوَّح الحارس بعلمه المرحِّب، صفَّر سائق القطار في رد مبهج، وخرج القطار من المحطة. عندما ازدادت السُّرعة واستطاع العلجوم أن يرى إلى جانبيه الحقول الحقيقية والأشجار والأسيجة والأبقار والأحصنة، كلها تحلق مارة به، وعندما فكر كيف أن كل دقيقة تقربه من قصر العلجوم الريفي ومن أصدقائه العطوفين، من المال ليخشخش في جيوبه، وسرير ناعم لينام فيه، وأطايب ليأكلها، وثناء وإعجاب عند تلاوته مغامراته وفطنته الفائقة، بدأ يذرع المكان جيئة وذهابًا ويصرخ ويغني

مقاطع أغنية أثارت دهشة السَّائق العظيمة الذي صادف غسالة ملابس من قبل، بين فترات طويلة متقطعة، لكن أبدًا ليس واحدة مثل هذه.

كانوا قد قطعوا من الأميال الكثير الكثير، وكان العلجوم يفكر بالفعل في ما يمكن أن يتناوله على العشاء حالما يصل إلى البيت، عندما لاحظ أن سائق القطار كان ينحني على جانب القطار ويصيخ السَّمع تعلو وجهه علائم الذهول. ثم رآه يصعد نحو الفحم ويحدق من أعلى القطار ثم عاد وقال للعلجوم: «إنه أمر غريب جدًا، نحن آخر قطار يسير في هذا الاتجاه الليلة، ومع ذلك أقسم أني سمعت قطارًا آخر يتبعنا!»

توقَّف العلجوم عن مجونه الأرعن في الحال. أصبح مكتئبًا ورزينًا وجعله ألم رتيب في أسفل عموده الفقري متصلٌ بساقيه يرغب في الجلوس ويحاول يائسًا عدم التفكير في جميع الاحتمالات.

في هذا الوقت كان القمر يشع ساطعًا، وتمكن سائق القطار، وقد وطَّد نفسه على الفحم، من رؤية السِّكة من خلفه على مسافة بعيدة.

نادى في الحال: «يمكنني أن أراه بوضوح الآن! إنه قطار على سكتنا، قادم بسرعة عظيمة! يبدو كما لو أننا ملاحقين!»

حاول العلجوم البائس جاثمًا في غبار الفحم أن يفكر جاهدًا في شيء يفعله وفي داخله رغبة موحشة في النجاح.

صاح سائق القطار: «إنهم يتقدمون سريعًا! والقطار يعج بعدد كبير من الأشخاص على نحو غريب! رجال مثل حراس عتاق يلوحون بأسلحة قديمة، رجال شرطة يعتمرون الخوذات، يلوحون بالهراوات، ورجال يعتمرون قبعات رثة، من الواضح أنهم مخبرون لا مجال للخطأ حتى من هذه المسافة، يرتدون ملابس مدنية، يلوحون بمسدسات وبعصي المشي، جميعهم يلوحون ويصرخون بالأمر نفسه: «توقف، توقف، توقف!»

ثم خرَّ العلجوم على ركبتيه بين الفحم وبكى رافعًا كفيه المشبوكتين مبتهلًا: «أنقذني، فقط أنقذني يا عزيزي السَّيد سائق القطار اللطيف، وسأعترف بكل شيء! أنا لست غسالة الملابس البسيطة التي أبدو عليها! ليس لدي أطفال أبرياء أو غير أبرياء في انتظاري! أنا علجوم... السَّيد العلجوم الشَّهير والمعروف، مالك الأراضي، هربت للتو بجسارتي العظيمة وذكائي من زنزانة كريهة طرحني فيها أعدائي، وإذا أعاد هؤلاء الأشخاص على متن ذلك القطار القبض عليَّ سوف تكون سلاسل وخبز وماء وقش وبؤس مرة أخرى للعلجوم البريء التعيس المسكين!»

نظر سائق القطار نحوه بقسوة شديدة وقال: «قل الحقيقة، لِم وُضعت في السجن؟»

قال العلجوم المسكين وقد احمر وجهه بشدَّة: «لم يكن أمرًا عظيمًا، حسبي أني اقترضت سيارة بينما كان أصحابها يتناولون الغداء، لم يكن لهم حاجة إليها ذلك الحين. لم أنوِ سرقتها حقًا لكن النَّاس -لا سيَّما القضاة- يتخذون مثل هذه الآراء القاسية عن التصرفات الطائشة والمقدامة».

نظر سائق القطار بوقار شديد وقال: «أخشى أنك كنت بالفعل علجومًا خبيثا وينبغي لي تقديمك إلى العدالة المهانة. لكنك -كما هو واضح- في عسر مؤلم وضيق لذا لن أتخلى عنك. أنا من ناحية لا أحب السَّيارات، ومن ناحية أخرى لا أحب تلقي الأوامر من رجال الشُّرطة عندما أكون على متن قطاري. ومرأى حيوان دامع يجعلني دومًا أشعر بأني غريب ورقيق القلب. لذا ابتهج أيها العلجوم! سوف أفعل ما بوسعي، وقد نتغلب عليهم!»

وراحا يجرفان الفحم باهتياج وصنعا منه أكوامًا، هدر الأتون، تطاير الشَّرر، وثب القطار وتأرجح لكن مطارديهم ظلوا يتقدمون ببطء. مسح سائق القطار جبينه بخرقة من القطن مطلقًا تنهيدة وقال: «أخشى أنه لا فائدة أيها العلجوم. كما ترى إنهم يجرون سريعًا ولديهم القطار الأفضل. بقي لنا فقط أمر واحد لنفعله وهو فرصتك الوحيدة، لذا اسمع بانتباه شديد لما سأقوله لك. على مسافة قصيرة قدمًا يوجد نفق طويل، وعلى الجانب الآخر من ذلك تمر السِّكة عبر غابة كثيفة. الآن سوف أقود القطار بأقصى سرعة ممكنة عندما نعبر النفق، لكن الآخرون سوف يبطئون قليلًا بطبيعة الحال خوفًا من حادث. عندما نمر به سوف أوقف المحرك وأدوس على المكابح بقوة قدر الإمكان وعندما تكون اللحظة آمنة لتفعل ذلك يجب أن تقفز وتختفي في الغابة قبل أن يخرجوا من النفق ويرونك. ثم سوف أتقدم بأقصى سرعة ثانية، ويمكنهم مطاردتي لو شاؤوا ذلك طالما يحبون وبقدر ما يحبون. الآن كن مستعدًا لتقفز عندما أخبرك!»

كوَّما المزيد من الفحم ودخل القطار في النَّفق واندفع المحرك وهدر وجلجل إلى أن خرجوا أخيرًا من الجانب الآخر نحو الهواء المنعش وضوء القمر المسالم وشاهدا الغابة تمتد قاتمة ومعينة على كل جانب من جانبي السِّكة. أوقف السَّائق المحرك وشغل المكابح، نزل العلجوم على الدرجة وعندما أبطأ القطار إلى سرعة المشي تقريبًا، سمع السائق ينادي: «الآن اقفز!»

قفز العلجوم وتدحرج على حاجز ترابي واطئ ونهض سليمًا، اندفع نحو الغابة واختفى.

اختلس النظر فرأى قطاره يسرع ثانية ويختفي بسرعة عظيمة. ثم ظهر فجأة من النفق القطار اللاحق يهدر ويصفر، يلوح أفراد طاقمه المتنافرون بأسلحتهم المختلفة ويصرخون: «توقف! توقف! توقف!» بعدما مروا ضحك العلجوم ضحكًا صادقًا للمرة الأولى منذ أن كان مرميًا في السَّجن.

لكنه توقف سريعًا عن الضَّحك عندما تبادر إلى ذهنه أن الوقت الآن متأخر جدًا، والليل مظلم وبارد، وكان في غابة مجهولة دون نقود أو حظ في تناول العشاء، ولا يزال بعيدًا عن أصدقائه وبيته، وشكل الصَّمت القاتل الذي يسود كل شيء بعد هدير وجلجلة القطار نوعًا من الصدمة. لم يجرؤ على مغادرة ملجأ الأشجار، لذا دخل الغابة مع فكرة ترك السكة الحديدية أبعد ما يمكن خلفه.

كان قد أمضى أسابيع كثيرة جدًا بين الجدران، ولذلك وجد الغابة غريبة وعدائية وفكر في أنها تميل إلى السخرية منه. طيور «ملهى الرعيان» مصدرة خشخشتها

الآلية، جعلته يفكر في أن الغابة تعج بالحراس الباحثين الذي يقتربون منه. بومة تهوي نحوه دون ضجَّة، حفَّ جناحها بكتفه، جعلته يقفز وهو على يقين بشع من أنها يد، ثم رفرفت مبتعدة مثل عثَّة تضحك ضحكتها الخفيضة: «هو! هو! هو!» التي فكر العلجوم في أنه تصرف يفتقر إلى حسن الذوق. ما إن التقى بثعلب، توقف وطالعه بطريقة ساخرة وقال: «مرحبًا، أيتها المرأة الغسالة! فردة جوارب وكيس مخدَّة مفقودين هذا الأسبوع! احرصي على عدم حدوث ذلك مرة ثانية!» واختال مبتعدًا يضحك.

نظر العلجوم من حوله باحثًا عن حجر ليرميه به، لكنه لم يفلح في العثور على واحد، وهذا ضايقه أكثر من أي شيء. أخيرًا، باردًا وجائعًا ومتعبًا، اتخذ من شجرة مجوفة ملاذًا، حيث صنع لنفسه سريرًا مريحًا قدر المستطاع من أغصان وأوراق متساقطة، وغطَّ في نوم عميق حتى الصَّباح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

الجميع عابرو سبيل

كان جرذ الماء ضجرًا ولم يعرف لذلك سببًا معينًا. كان ماثلًا للعيان أن أبهة الصَّيف لم تزل في أوجها الأقصى، ورغم أن اللون الأخضر في المساحات المحروثة كان قد تنحى ليأخذ الذهبي مكانه، ولو أن أشجار الغبيراء تحمر، وشراسة مصفرة تقطع الغابات هنا وهناك، لم يزل حضور الضوء والدفء واللون غير منقوص، في غياب أي هواجس باردة من العام المنصرم. لكن الجوقة الثابتة من البساتين والأسيجة كانت قد تراجعت إلى تسبيحة مسائية عادية بعدد قليل من المؤدين، غير أنهم لا يعرفون الكلل، كان طائر أبو الحناء قد أخذ يثبت نفسه مرة أخرى، والهواء امتزج بشعور التغيير والرحيل. كان قد مضى وقت طويل بالطبع على صمت طائر الوقواق، لكن كان أصدقاء كثر آخرون من الطيور مفقودين أيضًا منذ أشهر بعد أن شكلوا جزءًا من المناظر الطبيعية المألوفة ومجتمعها الصَّغير، وبدا أن المصفوفات الكثيفة تنحل باطراد يومًا بعد يوم. رأى الجرذ، المراقب دومًا لكل حركة مجنَّحة، أنها كانت تجنح يوميًا نحو الجنوب، وفكر حتى عندما استلقى في سريره ليلًا أنه يمكنه أن يميز الخفقان عابرًا في الظلمة العلوية، وارتعاش أجنحة الطيور البرمة منصاعة للنداء الآمر.

كان لفندق الطبيعة الكبير موسمه مثل بقيَّة الفنادق. وفيما يحزم النُّزلاء أمتعتهم الواحد تلو الآخر، يسددون الأجرة، ويرحلون، ويتناقص عدد مقاعد مائدة الطعام على نحو مثير للشفقة مع توالي الوجبات، عندما تغلق صفوف من الغرف، ويرفع السّجاد، ويسرّح النُّدل، لا يمكن للمقيمين من النزلاء في هذا الفندق حيث يبيتون ويتناولون وجباتهم، حتى إعادة الافتتاح الكاملة السنة القادمة، إلا أن يكونوا متأثرين بعض الشَّيء بكل هذه الرفرفة وعبارات الوداع، هذه المناقشة الحماسية للخطط والمسارات والمساكن الجديدة، هذا الانكماش اليومي في مجرى الصُّحبة. يضطرب المرء ويكتئب وينزع إلى أن يكون نكدًا. لماذا هذه الرغبة الملحة في التغيير؟ لماذا لا يظلون بهدوء هنا مثلنا ويمرحون؟ أنتم لا تعرفون هذا الفندق خارج الموسم، وكم نتسلى فيما بيننا نحن الذين نبقى ونشهد مرور السَّنة الممتعة كاملة حتى نهايتها. كل شيء حقيقي جدًا بلا شك، يجيب الآخرون دومًا، نحن نغبطكم تمامًا، وربما في سنة أخرى، لكن الآن لدينا التزامات، وهناك تنتظرنا الحافلة عند الباب، حان وقتنا! لذا يرحلون بابتسامة وإيماءة، ونفتقدهم ونشعر بالامتعاض. كان الجرذ حيوانًا من النَّوع المكتفي بذاته، والمتجذر في الأرض، يقيم أينما يذهب، مع ذلك لم يستطع إلا أن يلاحظ ما يتخلل الهواء وأن يشعر بشيء من أثره في عظامه.

مع انطلاق كل هذه الرفرفة كان يصعب على المرء أن يقرَّ بجدية على شيء. مبتعدًا عن جانب الماء حيث انتصب الأسل كثيفًا وطويلًا في جدول أخذ يتثاقل وينخفض، تجوَّل نحو الريف، عبر حقلًا أو اثنين من المراعي التي تبدو الآن مغبرَّة وجافَّة، واندفع في بحر عظيم من القمح الأصفر والمتموج والمدمدم، الزاخر بحركة

هادئة وهمسات صغيرة. هنا أحبَّ أن يتجول غالبًا عبر غابة من سيقان قوية صلبة حملت على رأسها سماؤهم الذَّهبية -سماء كانت ترقص دومًا، تومض، تتحدث برفق، أو تتأرجح بقوة مع الريح العابرة، وتسترد نفسها بخبطة وضحكة مرحة.

كان لديه هنا أيضًا الكثير من الأصدقاء الصِّغار، مجتمع مكتمل بحدِّ ذاته، يعيش حياة تامَّة ونشطة، لكن يجد دومًا لحظة فائضة للثرثرة ولتبادل الأخبار مع زائر. اليوم، مع ذلك، ولو أنهم كانوا لطفاء بما فيه الكفاية، بدا كل من فأر الحقل وفأر الحصاد مهمومًا. كان الكثيرون يحفرون ويشقون الأنفاق بانهماك، تجمَّع آخرون معًا في مجموعات صغيرة يتفحصون خططًا ورسومات لشقق صغيرة، قيل إنها مرغوب فيها ومتراصة، وتقع في مكان ملائم قرب المخازن. كان البعض ينقل الصَّناديق المتربة وسلال الملابس، وانهمك آخرون كثيرًا بالفعل في حزم حاجياتهم، بينما انتشرت في كل مكان أكوام وحزم القمح والشُّوفان والشَّعير وأخشاب الزان والبندق المعدَّة للنقل.

صاحوا حالما رأوه: «ها هو الجرذون العجوز! تعال وساعدنا أيها الجرذ ولا تقف مكتوف اليدين!»

قال جرذ الماء بحدَّة: «أي نوع من الألعاب تلعبون؟ تعلمون أنه لم يحن الوقت بعد للتفكير في مرابع الشِّتاء، لا يزال الوقت مبكرًا!»

شرح فأر حقل بحياء إلى حدٍّ ما: «أوه نعم، نعلم ذلك، لكن من الجيد دومًا أيضًا أن يكون لديك متسع من الوقت، أليس كذلك؟ نحن علينا حقًا نقل جميع الأثاث والحقائب والمؤن من هنا قبل أن تبدأ تلك الآلات المروعة بالقرقعة حول الحقول، ثم كما تعلم يتم اختيار أفضل الشقق سريعًا في هذه الأيام، وإذا تأخرت عليك أن تقنع بأي شيء، وهي بحاجة إلى قدر كبير من العمل أيضًا قبل أن تكون جاهزة للانتقال إليها. بالطبع نحن مبكرين، نعلم ذلك، لكننا فقط بدأنا للتو».

قال الجرذ: «أوه دعكم من البدايات، إنه يوم بهي. تعالوا لنذهب في رحلة تجذيف، أو جولة على طول الأسيجة، أو نزهة في الغابة، أو شيء ما».

أجاب فأر الحقل بعجلة: «حسنًا، لا أظن أننا نستطيع اليوم، شكرًا لك، ربما في يوم آخر، عندما يكون لدينا مزيد من الوقت...»

التفت الجرذ مصدرًا شخير ازدراء وهو ينوي المغادرة، وتعثَّر بصندوق قبعات.

قال فأر الحقل بعناد إلى حدٍّ ما: «لو أن النَّاس يكونون أكثر يقظة ويبصرون طريقهم، ما كانوا ليؤذوا أنفسهم... وينسوا أنفسهم. تذكَّر أن ذلك ينطبق على الجميع أيها الجرذ! من الأفضل أن تجد لك مكانًا لتجلس. ربما نكون خلال ساعة أو اثنتين أكثر حرية لمواكبتك».

«أستطيع أن أرى أنكم لن تكونوا أحرارًا كما تقول، ليس قبل حلول عيد الميلاد»، رد الجرذ بكثير من التذمر، عندما سار بحذر شديد وخرج من الحقل.

عاد إلى نهره ثانية في شيء من اليأس، نهره القديم المخلص الثابت الذي لم يستعد للرحيل يومًا، لم ينتقل ولم يذهب إلى مرابع الشِّتاء.

تلصَّص خلال صفصاف السِّلال المنتشر على حاشية الضِّفة على مجثم طائر سنونو، انضمَّ الآن إلى سنونو ثانٍ ثم ثالث وتحدثت الطيور المتململة معًا بضجر على أغصانها بجدية وبصوت منخفض.

قال الجرذ وهو يتمشى نحوهم: «ماذا؟ الآن، فيم العجلة؟ أرى أنه ببساطة أمر مضحك».

أجاب أول سنونو: «أوه، نحن لن نغادر الآن إذا كان هذا ما تقصده، إننا فقط نضع الخطط ونرتب الأمور. نناقش الأمر كما تعلم، أي مسار سوف نسلك هذه السَّنة وأين سنتوقف؟ هذا كله يشكل نصف التسلية!»

قال الجرذ: «التسلية؟ الآن هذا تمامًا ما لا أفهمه. إذا كان عليكم مغادرة هذا المكان المبهج وأصدقاؤكم الذين سوف يفتقدونكم، وبيوتكم الصَّغيرة التي استقريتم فيها، لا شك عندي أنكم عندما تدق السَّاعة سوف تذهبون بشجاعة وتواجهون جميع المتاعب والمشقات والتغيير والجدة، وتدعون أنكم لستم تعساء. لكن أن ترغبوا في التحدث عنه أو حتى التفكير فيه إلى أن تضطروا حقًا إلى...»

قال السنونو الثَّاني: «لا، أنت لا تفهم، بطبيعة الحال، في البدء نحس بقلق عذب يضطرب في داخلنا، ثم تعود الذكريات واحدة فواحدة، مثل الحمام الزاجل. إنها ترفرف عبر أحلامنا ليلًا، تطير معنا في دورانا وطوافنا في النهار. نتشوق للتحقق بعضنا من بعض، لتبادل الآراء كي نؤكد لأنفسنا أن كل شيء كان صحيحًا حقًا، عندما تعود روائح وأصوات وأسماء الأماكن التي طال نسيانها واحدة فواحدة تدريجيًا ملوحة لنا».

اقترح جرذ الماء بحزن: «ألا يمكنكم أن تتوقفوا فقط هذه السَّنة؟ سوف نفعل جميعنا ما بوسعنا لنجعلكم تشعرون بالارتياح. ليس لديكم فكرة أي تسلية نحظى بها هنا، فيما أنتم بعيدون».

قال السُّنونو الثالث: «حاولت التوقف سنة واحدة، أصبحت مولعًا بالمكان حتى أني تريثت وتركت الآخرين يذهبون دوني عندما حان الوقت. كان كل شيء لبضعة أسابيع جيد بما فيه الكفاية، لكن فيما بعد، أوه يا لطول الليالي المرهق! الأيام الباردة غير المشمسة! الهواء شديد البرودة ورطب وما من حشرة في الأرض! لا لم يكن جيدًا، تحطمت شجاعتي، وذات ليلة باردة عاصفة طرت محلقًا نحو الداخل بسبب العواصف الشَّرقية القويَّة. كانت تثلج بغزارة عندما خفقت بجناحي عبر معابر الجبال العظيمة وكان عليَّ أن أكافح بصلابة لأتجاوزها، لكن لن أنسى أبدًا السعادة التي شعرت بها عندما ضربت الشَّمس الحارَّة ظهري ثانية عندما هبطت سريعًا نحو البحيرات التي تمتد هادئة وشديدة الزرقة تحتي وطعم أول حشرة سمينة أكلتها! كان الماضي مثل حلم سيئ، والمستقبل إجازة سعيدة عندما انتقلت نحو الجنوب

أسبوعًا تلو الآخر بسهولة وكسل، أتريث بقدر ما أجرؤ لكن دومًا أسمع النداء، لا، لدي تحذيري، لم أفكر ثانية في العصيان قط».

ثرثر السنونوان الآخران حالمين: «آه، نعم، نداء الجنوب، الجنوب! أغانيه وألوانه وهواؤه المشع! أوه هل تذكر...» وانزلقوا في تذكر شغوف ناسين أمر الجرذ، الذي أصغى مسحورًا واحترق قلبه في داخله. عرف في داخله أيضًا أن ذلك الوتر الذي كان هاجعًا حتى الآن وغير مشبوه كان يتحرك أخيرًا. مجرد ثرثرة هؤلاء الطيور الذاهبين إلى الجنوب، تقاريرهم الشَّاحبة والمكررة، امتلكت مع ذلك القوة لتوقظ هذا الإحساس الجديد البري وتثيره أكثر فأكثر، ماذا قد تفعل لحظة واحدة من الشيء الحقيقي فيه، لمسة شغوفة واحدة من الشَّمس الحقيقية الجنوبية، نفحة واحدة من العطر الأصلي؟ بعينين مغمضتين تجرأ أن يحلم للحظة في عزوف كامل، وعندما نظر ثانية بدا النهر باردًا وفولاذيًا، الحقول الخضراء رمادية ومعتمة. ثم بدا كما لو أن قلبه المخلص يبكي حزنًا على نفسه الضَّعيفة لخيانته.

سأل طيور السُّنونو بغيرة: «لماذا لا تتوقفون عن العودة إذن؟ ما الذي تجدون أنه يجذبكم في هذا الريف الصَّغير الفقير الأغبر؟»

قال أول سنونو: «وهل تظن أن النِّداء الآخر ليس من أجلنا أيضًا، في وقته المناسب؟ نداء عشب المرج المورق والبساتين الرطبة والدافئة والبحيرات المسكونة بالحشرات، بالماشية التي ترعى، بصنع التبن وكل مباني المزرعة تتجمع حول منزل أفاريز السَّطح المثالية؟»

سأل السُّنونو الثَّاني: «هل تفترض أنك الكائن الحي الوحيد الذي يصبو بشوق تواق لسماع زقزقة طائر الوقواق ثانية؟»

قال الثَّالث: «سوف نشتاق إلى الديار مرة أخرى عندما يحين الوقت، إلى زهور سوسن الماء تتمايل على سطح التَّيار الإنكليزي. لكن اليوم يبدو ذلك شاحبًا ونحيلًا وبعيدًا جدًا. دمنا يرقص الآن على موسيقى أخرى».

ثم شرعوا يثرثرون فيما بينهم مرة أخرى، وهذه المرة كانت ثرثرتهم المدوخة عن بحار بنفسجية، ورمال مصفرَّة، وجدران تسكنها السَّحالي.

تجول الجرذ بلا هوادة مرة أخرى، وصعد الجرف المرتفع برفق من ضفّة النهر الشّمالية، واستلقى مطلًا على سلسلة عظيمة من التلال التي حالت دون رؤيته المزيد جنوبًا، كان هذا الطوق يشكل أفقه البسيط حتى اليوم، مكان قصي بما لا يمكن لأحد أن يتخيله، الحد الذي لا يكمن وراءه شيء يهتم لرؤيته أو لمعرفته. اليوم وهو يحدق جنوبًا تضطرب في قلبه حاجة وليدة، بدت السَّماء الصَّافية فوق كفافها الطويل الخفيض نابضة بالوعود، اليوم، كان اللا مرئي كل شيء، المجهول الحقيقة الوحيدة الواقعية للحياة. كانت على هذا الجانب من التلال الآن المساحة الخالية الحقيقية، على الجانب الآخر تكمن البانوراما المزدحمة والملونة التي كانت عينه الداخلية تراها بوضوح شديد. أي بحار كانت خلفها خضراء قافزة ومتوجة! أي سواحل سابحة في الشَّمس، تلألأت على امتدادها قصور بيض اتجاه غابة الزيتون!

يا لها من موانٍ هادئة مزدحمة بإرساليات بطولية متجهة إلى جزر أرجوانية من التوابل، جزر خفيضة في مياه متراخية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نهض ونزل باتجاه النهر مرة أخرى، ثم غير رأيه وقصد جانب الممر المترب. هناك مستلقيًا نصف مدفون في عقدة السِّياج الكثيف البارد الذي جاوره، استطاع أن يستغرق في أفكاره عن الطريق المعبد وكل ذلك العالم العجيب الذي يقود إليه، عن جميع عابري السبيل أيضًا الذين ساروا عليه، وراحوا ينشدون الحظ والمغامرة أو يعثرون عليهما دون عناء هناك في البعيد... البعيد!

حلٍ وقع أقدام على مسامعه، وظهرت للعيان هيئة شخص يسير بضجر بعض الشَّيء، ورأى أنه جرذ، جرذ مترب جدًّا. عندما وصل إليه المسافر حيَّاه بإيماءة مهذبة بدت كما لو أنها غريبة -تردد لحظة- ثم انحرف عن المسار بابتسامة قانعة وجلس بالقرب منه على العشب البارد. بدا متعبًا، فتركه الجرذ يرتاح دون أن يطرح عليه أي سؤال، متفهمًا بعضًا مما كان يجري في أفكاره، ولم يكن خافيًا عليه أيضًا الأهمية التي تضعها جميع الحيوانات أحيانًا على مجرد رفقة صامتة، عندما تسترخي العضلات المرهقة ويستريح العقل.

كان عابر السَّبيل معروقًا وحاد الملامح ومحني الكتفين بعض الشيء، كانت كفوفه نحيلة وطويلة، عيناه أكثر تغضنًا في الزوايا، وارتدى في أذنيه الوسيمتين الأنيقتين حلقتين ذهبيتين صغيرتين. كان قميصه المنسوج أزرق باهت اللون، كان بنطاله القصير المرقّع والملطّخ مبنيًا على أساس أزرق اللون وحاجياته الصغيرة التي حملها ربطت في منديل قطني أزرق.

بعدما استراح فترة تنهد الغريب واستنشق الهواء وتطلع إليه.

أشار: «كانت تلك النفحة الدافئة في النسيم من البرسيم، وتلك أبقار نسمعها تجز العشب خلفنا وتنفخ بهدوء بين اللقمة والأخرى. أسمع صوت حصادات بعيدة، يعلو خط أزرق من دخان كوخ تجاه الأرض المشجرة. يجري النهر في مكان قريب، لأني أسمع صياح دجاج الماء، وأرى من بنيتك أنك ملاح في المياه العذبة. كل شيء يبدو نائمًا، ومع ذلك يجري طوال الوقت. إنها حياة مليحة تلك التي تعيشها يا صديقي، لا شك الأفضل في العالم، لو أنك فقط تملك ما يكفي من الوقت لتعيشها!»

«نعم، إنها الحياة، الحياة الوحيدة لنعيشها»، أجاب جرذ الماء حالمًا ينقصه يقينه المعتاد المخلص.

أجاب الغريب بحذر: «لم أقل ذلك بالضبط، لكن لا شك إنها الأفضل. لقد جربتها وأعرف. ولأني جربتها للتو -ستة أشهر منها- وأعرف إنها الأفضل، ها أنا هنا متقرح القدمين وجائع، أتسكع مبتعدًا عنها، أتسكع نحو الجنوب خلف النداء القديم عائدًا إلى الحياة القديمة، الحياة التي هي حياتي والتي لن تطلق سراحي».

تأمل الجرذ بينه وبين نفسه: «هل هذا إذن واحد منهم؟» وتجاسر بصعوبة على السُّؤال عن مقصده وبدا أنه يعرِف الجواب جيدًا: «ومن أين أتيت؟»

أجاب عابر السبيل بإيجاز مومئًا نحو الشمال: «مزرعة صغيرة جميلة تمتد في ذلك الاتجاه، أمرها لا يهم. كان لديَّ كل ما قد أحتاج إليه -كل ما كان لديَّ الحق في انتظاره من الحياة، وأكثر، وها أنا ذا! مع ذلك سعيد لكوني هنا أيضًا، سعيد لكوني هنا! الكثير من الأميال الإضافية على الطريق، الكثير من الساعات تقربني مما يتمناه قلبي!»

شخصت عيناه اللامعتان نحو الأفق، وبدا أنه يصيخ السَّمع إلى صوت كان غائبًا عن تلك المساحة الداخلية من الأرض، كان صوتًا بشريًا مترافقًا مع الموسيقى المبهجة عن المراعي والمزارع.

قال جرذ الماء: «أنت لست واحدًا منا، ولست مزارعًا أيضًا، وينبغي لي أن أحكم أنك لا تنتمي إلى هذا الريف».

أجاب الغريب: «صحيح، أنا جرذ بحري، أنا كذلك، والميناء الذي أنحدر منه في الأصل هو القسطنطينية، ولو أني -إذا جاز القول- نوع من أجنبي هناك أيضًا. لا بدَّ أنك سمعت عن القسطنطينية يا صديقي؟ إنها مدينة جميلة وعتيقة وماجدة. ولربما سمعت أيضًا عن سيجور، ملك النرويج، وكيف أبحر إلى هناك بستين سفينة، وكيف عبر هو رجاله الشَّوارع المغطاة على شرفهم بالأرجوان والذَّهب، وكيف نزل الإمبراطور والإمبراطورة وأولموا له على سطح سفينته. عندما عاد سيجور إلى الوطن، ظلّ الكثير من مواطنيه وانتسبوا إلى حرس الإمبراطور، وظل أحد أسلافي أيضًا، وهو نرويجي المولد، مع السُّفن التي قدمها سيجور للإمبراطور. كنا ملاحين على الدَّوام ولا عجب، أما أنا فلم يعد مسقط رأسي وطنًا لي أكثر من أي مرفأ جميل بين القسطنطينية ونهر لندن. أعرفها جميعًا وتعرفني. ضعني على أي من أرصفتها أو شطآنها فأشعر كما لو أني في البيت ثانية».

قال جرذ الماء باهتمام متزايد: «أفترض أنك تذهب في أسفار عظيمة، شهور طوال بعيدًا عن اليابسة ويشح الزاد واحتياطي الماء، ويناجي عقلك المحيط الجليل، وكل ذلك النوع من الأمور؟»

قال جرذ البحر بصراحة: «مطلقًا، مثل هذه الحياة التي تصفها ما كانت لتناسبني على الإطلاق. أنا حصرًا على الساحل ونادرًا ما أبتعد عن اليابسة. ما يروق لي هي الأوقات المبهجة على الشَّط بقدر ما تروق لي أي سفرة بحرية. أوه يا لتلك المواني الجنوبية! رائحتها، المراكب المضاءة ليلًا، السِّحر!»

قال جرذ الماء مرتابًا إلى حدٍّ ما: «حسنًا، ربما اخترت الطريق الأفضل، أخبرني شيئًا عن إبحارك بمحاذاة السَّاحل إذا كان يروق لك ذلك، وأي نوع من المحاصيل قد يأمل حيوان نشيط أن يحمل إلى البيت منها كي يبعث الدِّفء في أيامه الأخيرة بذكريات مجيدة إلى جانب المدفأة، أعترف لك أن حياتي تبدو لي اليوم ضيقة ومحددة بشكل ما»

بدأ جرذ البحر: «بدأت سفرتي الأخيرة التي حطتني في هذا الريف أخيرًا، معلقًا آمالًا عريضة على مزرعتي الداخلية، وستكون مثالًا جيدًا لأي من باقي أسفاري،

وبالفعل تمثل موجزًا عن حياتي الملونة، من مشكلات عائلية كالعادة. ثارت العاصفة المنزلية، ووضعت نفسي على متن سفينة صغيرة تجارية متجهة من القسطنطينية، عبر بحار كلاسيكية تنبض كل موجة من أمواجها بذكرى خالدة، إلى الجزر اليونانية وبلاد المشرق. تلك كانت أيامًا ذهبية وليالي منعشة! خروجًا ودخولًا من الميناء طوال الوقت، أصدقاء قدامى في كل مكان، نائم في معبد بارد أو صهريج ماء محطم في أثناء حر النهار، وليمة وأغنية بعد المغرب، تحت نجوم عظيمة في السَّماء المخملية! ثم استدرنا وأبحرنا بمحاذاة ساحل البحر الأدرياتيكي، وكانت شواطئه تسبح في جو من العنبر والعقيق الوردي والزبرجد، نستلقي في موانٍ واسعة محاطة باليابسة، تجولنا عبر المدن القديمة والنبيلة، إلى أن -أخيرًا- عندما أشرقت الشَّمس ذات صباح بجلال ملكي من خلفنا، ركبنا إلى البندقية عبر درب من ذهب. أوه، البندقية مدينة ممتازة، حيث يمكن لجرذ أن يتجوَّل على هواه ويستمتع بوقته! أو عندما يتعب من التَّجول، يمكنه الجلوس إلى حافَّة القناة الكبرى ليلًا، يستمتع مع أصدقائه، عندما يكون الهواء زاخرًا بالموسيقى، والسَّماء مرصَّعة بالنجوم، والأضواء تومض وتتلألأ على المقدمات الفولاذية الملمعة لزوارق الجندول المتمايلة والمتراصة، حتى أنك تستطيع أن تسير عليها وتقطع القنال من جانب إلى آخر! ثم الطعام... هل تحب المحار؟ حسنًا، حسنًا، لن نتريث على ذلك الآن».

لبث صامتًا إلى حين وجرذ الماء صامت أيضًا ومسحور، طفا على قنوات حلمية وسمع أغنية شبحية تصدح عاليًا بين الجدران الرمادية والضبابية التي يلفها الموج.

واصل جرذ البحر: «أبحرنا نحو الجنوب مرة أخرى أخيرًا، وتريثنا عند السَّاحل الإيطالي إلى أن وصلنا أخيرًا إلى باليرمو، وهناك ذهبت مدة طويلة في استراحة سعيدة على الشَّاطئ. أنا لا أقضي مطلقًا وقتًا طويلًا على سفينة واحدة، لأن المرء يصبح أحادي التفكير ومتحيزًا. إلى جانب أن صقلية واحدة من أراضي الصَّيد السَّعيدة، أعرف الجميع هناك وأساليب حياتهم تناسبني تمامًا. أمضيت أسابيع كثيرة مبهجة في الجزيرة مع أصدقاء داخل البلاد. عندما عاودني الشعور بالضجر انتهزت فرصة سفينة كانت متجهة إلى سردينيا وكورسيكا، وشعرت بمنتهى السعادة عندما لامس النسيم العليل ورذاذ البحر وجهي مرة أخرى».

سأل جرذ الماء: «لكن أليس الطقس حارًا جدًا وخانقًا هناك في... مهلًا، ما الاسم الذي تطلقه عليها؟»

نظر الملاح إليه بشبهة غمزة وأشار ببساطة شديدة: «أنا محنَّك، مقصورة القبطان جيدة لي بما فيه الكفاية».

تمتم الجرذ غارقًا في تفكير عميق: «إنها حياة قاسية بكل المقاييس».

أجاب الملاح برزانة، مع غمزة سريعة: «للطاقم هي كذلك».

واصل: «من كورسيكا ركبت سفينة كانت تحمل الخمر إلى البر الرئيس. وصلنا إلى آلاسي، وفي المساء استلقينا وحملنا دنان الخمر ورفعناها عن ظهر المركب

وربطنا واحدًا إلى الآخر في طابور طويل. ثم صعد الطاقم إلى القوارب وجذفوا نحو الشَّاطئ، يغنون فيما هم ذاهبون، يجرون وراءهم الموكب الطويل من الدِّنان كما لو أنها ميلٍ من الدلافين. الخيول التي كانت في انتظارهم على الرمال، جرت الدِّنان على الشَّارع المتحدر للبلدة الصَّغيرة، بنشاط ممتاز وقعقعة وتدافع. عندما نقل آخر دن ذهبنا وانتعشنا واسترحنا وسهرنا حتى وقت متأخر من الليل مع أصدقائنا، وصباح اليوم التالي ذهبت نحو غابات الزيتون العظيمة من أجل نومة خفيفة واستراحة. لأني الآن انتهيت من الجزر والمرافئ والسُّفن كانت موفورة، لذا أعيش حياة متبطلة بين الفلاحين، مستلقيًا أشاهدهم يعملون، أو متمددًا في الأعلى إلى جانب التلة، والبحر المتوسط الأزرق تحتي في البعيد. وهكذا بتفصيل تام، على مراحل يسيرة، جزئيًا سيرًا على الأقدام، وجزئيًا في البحر إلى مرسيليا، ولقاء رفقاء السُّفن القدامى، وزيارة سفن عظيمة تبحر في المحيط والولائم مرة أخرى. بالحديث عن المحار! عجبًا أحيانًا أحلم بمحار مرسيليا وأستيقظ باكيًا!»

قال جرذ الماء المهذَّب: «هذا يذكرني أنك صدف أن أشرت إلى شعورك بالجوع، وكان عليَّ أن أتحدث قبل الآن. بالطبع، ستتوقف وتتناول وجبة غدائك معي؟ جحري قريب من هنا، إن الوقت تجاوز الظهر بقليل، ومرحبًا بك لمشاركتي الموجود من الطعام».

قال جرذ البحر: «ذلك لطف منك وإخاء، كنت بالفعل جائعًا عندما جلست، ومنذ أن ذكرتُ المحار سهوًا شعرت بندم عظيم. لكن ألا يمكنك أن تجلبه إلى هنا؟ أنا لست مولعًا جدًا بالذّهاب تحت الأرض إلا إذا اضطررت لذلك، ثم بينما نأكل يمكنني أن أخبرك المزيد عن أسفاري والحياة الممتعة التي أعيشها، على الأقل إنها ممتعة جدًا لي ومن خلال اهتمامك أحكم أنها تظهر نفسها لك، في حين لو ذهبنا إلى الداخل هناك احتمال كبير من أني سأغفو في الحال».

قال جرذ الماء: «هذا بالفعل اقتراح ممتاز» وأسرع إلى البيت. أخرج هناك سلة الغداء وملأها بوجبة بسيطة متذكرًا أصل الغريب وتفضيلاته، وحرص على أن يضمنها رغيفًا من الخبز الفرنسي، سجق مفعم بالثوم، بعض الجبنة التي ساحت وذابت، وقارورة طويلة العنق مكسوة بالقش حيث تمددت أشعة الشَّمس مسفوكة ومدخرة على منحدرات جنوبية بعيدة. وهكذا عاد محملًا بسرعة تامة واستحى من متعة شعر بها لما أثنى رجل البحر العجوز على ذوقه وحكمته وعندما أفرغا معًا السلة وفرشا المحتويات على العشب على جانب الطريق.

واصل جرذ البحر ما إن أسكت جوعه بعض الشيء، قصَّة سفرته الأخيرة وقاد سامعه البسيط من مرفأ إلى مرفأ إسبانيا، وحط به في لشبونة واوبورتو وبوردو، وعرفه على موانى كورنوول وديفون الممتعة، وهكذا عبر القناة إلى رصيف الميناء الأخير حيث نزل بعد هبوب معاكس طويل للرياح، مدفوعين بالعاصفة ومسفوعين بعوامل الطقس والتقط أولى اللمحات والتباشير السحرية بربيع آخر، ما دفعه إلى الذهاب مسرعًا في تسكع طويل داخل البلاد تائقًا إلى تجربة الحياة في مزرعة هادئة بعيدة جدًا عن الضربات المرهقة لأي بحر.

مسحورًا ومرتعشًا بالانفعال، تبع جرذ الماء المغامر فرسخًا تلو الآخر على خلجان عاصفة، عبر مراس محتشدة، عبر حانات في مرفأ على مد منطلق، على أنهار متعرجة تخفي بلداتها الصَّغيرة المنشغلة حول منعطف فجائي، وتركه بتنهيدة نادمة غرست في مزرعته الداخلية الرتيبة التي لم يرغب أن يسمع عنها شيئًا.

بحلول هذا الوقت كانت وجبتهما قد انتهت، والملاح بعد أن انتعش وتقوَّى، صار صوته أكثر حيوية، وأضاءت عينه بألق بدا ملتقطًا من منارة بحرية بعيدة، مالئًا كأسه من غلَّة كرمة الجنوب الحمراء والمتألقة، ومائلًا نحو جرذ الماء، حدَّق فيه وثبته جسدًا وروحًا فيما كان يتحدث. كان لتلك العينين لون من زبد متبدل أخضر يشوبه لون البحار الشمالية الطافرة الرمادي، شعت في الكأس ياقوتة حارة بدت قلب الجنوب بالذات، تنبض من أجله هو الذي امتلك الشجاعة كي يستجيب لنبضها. استولت الأضواء المزدوجة، الرمادي المتبدل والأحمر الثابت، على جرذ الماء وثبتته مسحورًا عاجزًا. تراجع العالم الهادئ خارج أشعتها بعيدًا وكفَّ عن الوجود. وتدفق الحديث، الحديث الرائع -كان خطابًا بالكامل أو تحول أحيانًا إلى أغنية- نشيد بحارة يزنون المرساة المتقطّرة، همهمة أغطية عمود التوجيه الجهيرة في إعصار شمال شرقي عات، أغنية صياد سمك يسحب شباكه عند مغيب الشَّمس إزاء سماء مشمشية اللون، أوتار قيثار وماندولين من جندول أو قارب؟ هل تحول إلى صرخة الريح، حزينة في البدء، ثاقبة بغضب عند اشتداد الريح، تعلو إلى صفير ممزق، تغرق إلى مجرى موسيقي من الهواء عن حافة الشِّراع المنفوخ؟ بدا المستمع المسحور أنه يسمع جميع هذه الأصوات، ومعها يسمع شكوى النوارس الكبيرة والصَّغيرة الجائعة وقصف الموجة المتكسرة الخفيف، وصرخة الحصى المحتج. عائدًا إلى الحديث ثانية، وكان يتبع بقلب خافق مغامرات عشرات المرافئ والمشاجرات والهروب وسباق السَّيارات والصُّحبة والمشاريع المجيدة، أو بحث في جزر عن الكنز، اصطاد السَّمك في بحيرات ضحلة وأمضى اليوم غافيًا على رمل أبيض دافئ. سمعه يروي عن صيد السَّمك في أعماق البحار وعن تجمعات فضية عظيمة في شبكة يبلغ طولها ميلًا، عن مخاطر مفاجئة وضجيج الأمواج المتكسرة في ليل غير مقمر، أو الأقواس الطويلة للسفينة العظيمة تتشكل عاليًا عبر الضَّباب عن عودة مرحة إلى البيت، الرأس البحري تبدى بخمائله الجميلة، وأضواء الميناء انفتحت، والمجموعات مرئية بخفوت على الرصيف، وحبات البَرد الكبيرة، ورذاذ حبل المرسى، وصعود الشَّارع الصَّغير الشاهق نحو الوهج المريح لنوافذ ذات ستائر حمراء.

أخيرًا وهو مستغرق في أحلام اليقظة، بدا له أن المغامر نهض على قدميه لكن كان لا يزال يتحدث ويقبض عليه بعينيه الرماديتين كالبحر.

كان يقول برفق: «أما الآن، فأنا سوف أمضي في طريقي نحو الجنوب الغربي عدة أيام طويلة ومغبرة، إلى أن وصلت أخيرًا إلى البلدة البحرية الصَّغيرة الرمادية التي أعرفها حقَّ المعرفة، والتي تتشبث على طول جانب واحد منحدر من الميناء. هناك عبر مداخل مظلمة تنظر نحو سلالم من درجات حجرية تتدلى منها عناقيد كبيرة من زهور النَّاردين، وتنتهي في رقعة من ماء أزرق فوَّار. المراكب الصَّغيرة التي

تنبسط مقيدة إلى حلقات ودعامات الجدار البحري القديم مطلية بألوان مبهجة مثل تلك التي كنت أتسلقها دخولًا وخروجًا في طفولتي، يتقافز سمك السَّلمون على طلائع المد، أسراب من سمك الإسقمري يتلألأ وتلعب على جوانب الرصيف والشَّواطئ الأمامية، وبمحاذاة النوافذ تنزلق السُّفن الكبيرة ليل نهار نحو مراسيها أو إلى الأمام نحو البحر الواسع. هناك عاجلًا أم آجلًا، تصل سفن جميع الأمم الملاحية، وتغادر سفينتي المختارة مرساها في ساعتها المقررة. سوف آخذ وقتي، أتوانى وأقيم، إلى أن تكون السفينة المناسبة أخيرًا في انتظاري تتمايل في وسط المجرى، مثقلة، يشير قوسها نحو المرفأ. سوف أنزلق على السَّطح بواسطة قارب أو أتسلق حبلًا من حبالها الثخينة، ثم أستيقظ ذات صباح على غناء البحارة وتسكعهم وطنين آلة الرفع، ثم تأتي حشرجة سلسلة المرساة وهي تسحب في جو من المرح. سوف نقلع بذراع المرفاع والشِّراع الأمامي، فتنزلق المنازل البيضاء على جانب المرفأ ببطء مارة بنا بينما نمضي في طريقنا، وسوف تبدأ الرحلة! بينما تتقدم نحو الرأس البحري سوف تكتسي بالشراع، وبعد ذلك، ما إن تصبح في الخارج، صفعة البحار العظيمة الخضراء المدوية عندما تجري في أعقاب الريح مشيرة إلى الجنوب!

وأنت، أنت ستأتي أيضًا، يا أخي الصَّغير، لأن الأيام تمضي ولا تعود مطلقًا، والجنوب لا يزال ينتظرك. غامر واسمع النِّداء، الآن قبل أن تمر اللحظة التي لا رجعة عنها! ليس عليك سوى أن تغلق الباب خلفك وتخطو خطوة مبهجة إلى الأمام، وها أنت خارج الحياة القديمة وداخل الحياة الجديدة! ثم ذات يوم، ذات يوم بعيد، عد إلى البيت ببطء لو شئت، بعدما يكون الكوب قد فرغ واللعبة لعبت، واجلس إلى نهرك الهادئ وفي صحبتك ذخيرة من ذكريات جيدة. يمكنك بسهولة أن تلحق بي على الطريق لأنك شاب وأنا أشيخ وأسير برفق شديد. سأتريث وأنظر إلى الخلف وأخيرًا بالتأكيد سوف أراك قادمًا تواقًا وخاليًا من الهموم، والجنوب كله أمامك!»

تلاشى الصَّوت وانقطع كما يتناهى بوق حشرة صغير بسرعة إلى الصَّمت، أخيرًا لم يرَ جرذ الماء، المشلول والشَّاخص، سوى بقعة بعيدة على سطح الطريق الأبيض.

نهض بشكل تلقائي وباشر في إعادة حزم سلة الغداء بعناية دون تسرع. عاد بشكل تلقائي إلى البيت وجمع بضع حاجيات صغيرة وكنوز خاصة كان مولعًا بها ووضعها في حقيبة، يتصرف بتعمد بطيء وينتقل في أرجاء الغرفة كالمسرنم، يصغي بشفاه منفرجة. رمى الحقيبة على كتفه، اختار بعناية عصا متينة لسفره وخطا عبر العتبة دون عجلة لكن دون تردد على الإطلاق، في الوقت نفسه الذي ظهر فيه الخلد عند الباب.

«عجبًا، إلى أين أنت ذاهب يا جرذون؟» سأل الخلد بدهشة عظيمة ممسكًا به من ذراعه.

«ذاهب نحو الجنوب مع البقية»، تمتم الجرذ بنبرة رتيبة حالمة دون أن ينظر إليه على الإطلاق. «نحو البحر أولًا، ثم على متن سفينة، وهكذا إلى الشَّواطئ التي تناديني!»

دفع بإصرار إلى الأمام دونما تسرع حتى الآن، لكن بثبات شديد على الهدف، غير أن الخلد وقف الآن مذعورًا تمامًا أمامه ينظر في عينيه فرأى أنهما صقيلتان وثابتتان وتحولتا إلى لون رمادي مخطط ومتبدل، ليستا عيني صديقه بل لحيوان آخر! اشتبك معه بقوة وجره إلى الدَّاخل، وألقاه أرضًا وثبَّته.

كافح الجرذ بيأس لبضع لحظات، ثم بدا أن قوته تغادره فجأة، واستلقى ساكنًا ومنهكًا، يرتجف مغمض العينين. ساعده الخلد في الحال على النهوض وأقعده على كرسي فجلس منهارًا ومنكمشًا على نفسه، تهز جسده رعشة عنيفة تتحول مع الوقت إلى نوبة هستيرية من نحيب جاف. أغلق الخلد الباب ورمى المفتاح في درج وأقفله، وجلس بهدوء على الطاولة إلى جانب صديقه ينتظر عبور النوبة الغريبة. تدريجيًا غط الجرذ في غفوة مضطربة قطعتها بدايات وهمهمات مشوشة عن أشياء غريبة وجامحة ودخيلة على الخلد غير المتنور، ثم عبر إلى سبات عميق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مشغول البال تركه الخلد إلى حين وانهمك في أمور منزلية، وكان الظلام قد حل عندما عاد إلى الردهة ووجد أن الجرذ لم يبارح مكانه، يقظًا فعليًا لكن متلكئًا وصامتًا ومغتمًا. ألقى نظرة سريعة إلى عينيه فوجدهما صافيتين وداكنتين وبنيتين ثانية كسابق عهده بهما، ما منحه شعورًا بالارتياح عظيمًا، ثم جلس وحاول أن يبهجه ويساعده على سرد ما حدث له.

بذل الجرذ المسكين قصارى جهده لشرح الأمور شيئًا فشيئًا. ولكن كيف يمكنه أن يعبر بكلمات باردة عما كان في جله اقتراحًا؟ كيف يتذكر لمنفعة شخص آخر أصوات البحر المؤرقة التي أنشدت له، كيف تستنسخ بشكل غير مباشر سحر ذكريات البحار وهي أكثر من أن تعد أو تحصى؟ حتى بالنسبة إليه، الآن وقد كسرت التعويذة وذهب السِّحر، وجد صعوبة في حساب ما بدا منذ بضع ساعات الشيء الوحيد الذي لا مفر منه. ليس من المستغرب إذن أنه فشل في نقل أي فكرة واضحة عما كان عليه في ذلك اليوم إلى الخلد.

كان هذا واضحًا للخلد: النوبة أو الهجمة قد رحلت وتركته سليم العقل ثانية، ولو أنه مرتج وطريح الإرهاق. لكنه بدا أنه فقد اهتمامه الآني بالأمور التي نحت لتشكل حياته اليومية، وبكل تنبؤ مستحب للأيام المقبلة والأحداث التي كان سيحملها الموسم المتغير بالتأكيد.

بعدئذٍ حوَّل الخلد حديثه عرضًا ودون مبالاة ظاهرية نحو الحصاد الذي كان يجمع، والعربات الشَّاهقة وفرقها المجهدة، الأكداس المتنامية والقمر الكبير يسطع على مساحات جرداء من الأرض تتناثر فيها الحُزم. تحدَّث عن التفاح المحمر في الأرجاء، عن البندق المسمر، عن الأغذية المحفوظة والمخللات، وعن تقطير

العصائر، إلى أن وصل شيئًا فشيئًا إلى منتصف الشتاء، أفراحه الحماسية، وحياته المكنونة في الحجرات الصَّغيرة، ثم أصبح ببساطة غنائيًا.

بدأ الجرذ تدريجيًا بالجلوس والمشاركة. أشرقت عينه الغبشة وتخلى عن بعض اهتمامه بالإصغاء إلى صوت ما.

في هذا الوقت انسحب الخلد اللبق بهدوء وعاد حاملًا قلم رصاص وبعض الأوراق وضعها على الطاولة في متناول صديقه.

أشار: «لقد مرَّ بالفعل وقت طويل منذ أن قرضت الشَّعر آخر مرة، يمكنك أن تجرب هذا المساء بدلًا من... حسنًا، بدلًا من المبالغة في التفكير في الأمور. أظن أن حالتك ستتحسن عندما تدون شيئًا باختصار، ولو بعض القوافي فحسب».

دفع الجرذ الأوراق بعيدًا عنه بضجر، لكن الخلد الحصيف انتهز الفرصة ليغادر الغرفة، وعندما اختلس النَّظر ثانية بعد حين، كان الجرذ منهمكًا ومعرضًا عن سماع العالم، يخربش ويمص رأس قلم الرصاص بالتعاقب. صحيح أنه كان يمص القلم أكثر مما يخربش، لكن كان مفرحًا للخلد أن يعرف أن الشِّفاء بدأ على الأقل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

المزيد من مغامرات العلجوم

كان الباب الرئيس للشجرة المجوَّفة يتجه نحو الشَّرق، وهذا جعل العلجوم يستيقظ في ساعة مبكِّرة، من جهة بسبب ضوء الشَّمس المتدفق نحوه، ومن جهة أخرى بسبب برودة أصابع قدميه المفرطة التي جعلته يحلم أنه في البيت، في السَّرير، في غرفته الجميلة بنافذتها الفريدة بطرازها المعماري التيودوري، في ليلة شتائية باردة، ومفارش سريره قد نهضت تشتكي وتحتج لأنها لم تعد تستطيع احتمال البرد أكثر من ذلك، وجرت إلى الطابق الأرضي، إلى نار المطبخ ابتغاء للدفء، وكان قد لحق بها حافي القدمين على امتداد أميال وأميال من الممرات المرصوفة بالحجارة، قارسة البرودة، يجادلها ويتوسل إليها أن تتعقل. ربما كان من الممكن أن يستيقظ في وقت أبكر لولا أنه نام بضعة أسابيع على القش على أحجار لوحية وكاد ينسى ملمس الأغطية السَّميكة المسحوبة حول ذقنه جيدًا.

جلس وبدأ يفرك عينيه ثمَّ أصابع قدميه المتذمرة، تساءل للحظة عن مكانه، متلفتًا من حوله باحثًا عن جدار حجري مألوف ونافذة صغيرة تسدها القضبان، ثم وثب قلبه وتذكَّر كل شيء؛ هروبه وإفلاته وملاحقته، تذكر أولًا وأفضل من كل شيء آخر أنه كان حرًا!

حرًّا! كانت الكلمة والفكرة بمفردهما تساويان خمسين غطاء. عندما فكَّر في العالم البهيج في الخارج ينتظر بتوق دخوله الظافر، مستعدًا لخدمته وتملقه، هلوعًا لمساعدته وللبقاء بصحبته كما كان دومًا في الماضي قبل أن تدركه التعاسة، شعر بالدفء من رأسه حتى أخمص قدميه. انتفض وأزال أوراق الأشجار اليابسة من شعره بأصابعه وبزينته التامة خرج نحو شمس الصَّباح المريحة، يشعر بالبرد لكن بالثِّقة أيضًا، بالجوع لكن مفعمًا بالأمل، تبدَّد كل رعب مثير للأعصاب من اليوم السابق بالراحة والنَّوم وأشعة الشَّمس الصَّريحة والمشجعة.

كان العالم برمته ملكًا له في ذلك الصَّباح الصَّيفي الباكر. كانت الغابة النَّدية متوحدة وساكنة عندما شقَّ طريقه فيها بحذر: كانت الحقول الخضراء التي أعقبت الأشجار ملكًا له ليفعل معها ما يحلو له، الطريق نفسه، عندما وصل إليه في تلك الوحشة التي كانت تسود كل شيء، بدا مثل كلب شارد يبحث بلهفة عن الصُّحبة. مع ذلك كان العلجوم يبحث عمَّن بوسعه أن يتكلم ليخبره بوضوح أي طريق ينبغي أن يسلك. كل شيء جيد عندما يكون قلبك خاليًا من الهموم ووعيك صافٍ وفي جيبك نقود ولا أحد يجوب الريف بحثًا عنك كي يقتادك إلى السِّجن ثانية، ليتبع الطريق إلى حيث يومئ ويشير، غير آبهٍ إلى أين. شعر العلجوم بقلق شديد وقد كان شخصًا عمليًا، وكان بوسعه أن يركل الطريق لصمته العاجز عندما كان لكل دقيقة أهميتها له.

كان الطريق الريفي المحتشم قد انضم الآن إلى أخ صغير خجول على شكل قناة، أخذ بيده وتمشى إلى جانبه بثقة تامة، لكن مع اللسان المعقود نفسه، موقف صمت تجاه الغرباءِ. قال العلجوم لنفسه: «دعك منهما! لكن بأي حال يوجد أمر وحيد

واضح. لا بدّ أنهما آتيان من مكان ما وذاهبان إلى مكان ما. لا يمكنك أن تغض الطرف عن ذلك أيها العلجوم، يا فتاي!» وهكذا سار بصبر إلى حافة الماء.

حول منحنى في القناة جاء حصان وحيد يتهادى في مشيته، مطأطئ الرأس كما لو أنه مستغرق في التفكير. من آثار حبل معلق إلى طوقه امتد خيط طويل، مشدود لكنه ينخفض مع خطواته الواسعة، ومن الجزء الآخر منه ترشح قطرات لؤلؤية. ترك العلجوم الحصان يمر ووقف ينتظر ما كانت الأقدار ترسل له.

بدوامة لطيفة من ماء هادئ عند مقدمته المثلمة، انزلق الصَّندل على مقربة منه، حافته العلوية مطلية بألوان مبهجة استوت مع مسارِ السَّحب، فيه امرأة ضخمة وسمينة بمفردها، تعتمر قلنسوة من الكتان اتقاء حرّ الشَّمس، تمد ذراعها القوية على ذراع الدَّفة.

قالت للعلجوم عندما تجاورت معه في الخطو: «صباح لطيف يا سيدتي!»

أجاب العلجوم بتهذيب، فيما هو سائر على طول مسار السَّحب جنبًا إلى جنب معها: «أعتقد أنه كذلك يا سيدتي! أجرؤ على القول إنه صباح لطيف لهؤلاء الذين ليسوا في ورطة محزنة، كما هو حالي. ها هي ابنتي المتزوجة ترسل لي مبرقة أن أذهب إليها في الحال، وها أنا ذاهبة غير عالمة ما الذي يحدث أو سوف يحدث، لكن خائفة من الأسوأ كما قد تفهمين يا سيدتي لو كنت أمًا بدورك. ولقد تركت عملي ليعتني بنفسه.. أنا أعمل في غسيل وكوي الملابس، لا بدَّ أنك تعرفين يا سيدتي، ولقد تركت أطفالي الصِّغار ليعتنوا بأنفسهم، وليس هنا مجموعة أكثر إيذاء وإزعاجًا من الأطفال الصِّغار يا سيدتي، ولقد خسرت جميع نقودي وضيعت طريقي، أما ما قد يحدث لابنتي المتزوجة، عجبًا، لا أحب أن أفكر فيه يا سيدتي!»

سألت المرأة: «أين تسكن ابنتك المتزوجة يا سيدتي؟»

أجاب العلجوم: «تقيم قريبًا من النهر يا سيدتي، قريبًا من منزل جميل يدعى قصر العلجوم الريفي، وهو يقع في مكان قريب من هذه الأنحاء. ربما قد تكونين سمعت عنه».

أجابت المرأة: «قصر العلجوم الريفي؟ عجبًا، أنا ذاهبة في ذلك الاتجاه، هذه القناة تتحد مع النهر بعد مسافة عدة أميال إلى الأمام، يعلو قصر العلجوم الريفي قليلًا، ثم بعد ذلك إنها مسيرة سهلة. تعالي معي في المركب وسأقلّك إلى هناك».

أدارت الصَّندل وجنحت به نحو الضفّة، ووطأ العلجوم متنه برشاقة مطلقًا الكثير من عبارات الشُّكر الممتنة والمتواضعة، وجلس برضا عظيم. فكَّر: «حظ العلجوم ثانية! أنا أتفوق دومًا!»

قالت المرأة بتهذيب، فيما انحدرا في المجرى قدمًا: «إذن أنت تعملين في غسيل الملابس يا سيدتي؟ أعتقد أنه عمل ممتاز هذا الذي تقومين به أيضًا، إن لم أكن أبالغ كثيرًا بقول ذلك».

قال العلجوم بحيوية: «إنه أفخر الأعمال في الريف عمومًا، جميع الأعيان يأتون إلي؛ لن يذهبوا إلى أي شخص آخر مهما كلَّفهم الأمر، هم يعرفونني جيدًا. كما ترين، أنا أفهم عملي كاملًا، وأهتم شخصيًا بكل شيء؛ الغسيل والكوي والمعالجة بالنشاء، وترتيب قمصان الرجال الفاخرة من أجل ملابس المساء، كل شيء معد تحت ناظري!»

سألت المرأة باحترام: «لكن قطعًا لا تقومين بكل ذلك العمل بمفردك يا سيدتي؟»

قال العلجوم بخفَّة: «أوه، لدي فتيات، عشرون فتاة أو نحو ذلك العدد، يعملن دومًا. لكن تعلمين كيف تكون الفتيات يا سيدتي! فتيات صغيرات وقحات، هذا ما أطلقه عليهن!»

قالت المرأة بحماس شديد: «وأنا أيضًا، لكني أعتقد أنك أعدتهنَّ إلى جادَّة الصَّواب، تينك المتصيدات المتكاسلات! وهل أنت مولعة كثيرًا بالغسيل؟»

قال العلجوم: «أحبُّه، أنا شغوفة به ببساطة. ما من سعادة تضاهي سعادتي عندما أضع ذراعي في حوض الغسيل. لكن من ناحية أخرى أجده عملًا مريحًا جدًّا لي؛ ما من مشكلة على الإطلاق، متعة حقيقية، أؤكد لك يا سيدتي!»

قالت المرأة متأملة: «يا له من حظ سعيد اللقاء بك! حظٌّ سعيد لكلينا!»

سأل العلجوم بانفعال: «عجبًا، ماذا تعنين؟»

أجابت المرأة: «حسنًا، انظري نحوي الآن، أحبُّ الغسيل أيضًا، مثلما تحبينه تمامًا، إضافة إلى ذلك، سواء كنت أحبه أم لا، عليَّ غسل ملابسي بطبيعة الحال، منتقلة من مكان إلى آخر كما هو الحال. الآن، زوجي رجل يتملَّص من عمله ويترك لي الصَّندل، لذا لا يمكنني على الإطلاق أن أحظى ولو بلحظة لكي أهتمَّ بأموري. في الحقيقة، كان يجب أن يكون هنا الآن، إما يقود أو يعتني بالحصان، ولو أن الحصان لحسن الحظ لديه ما يكفي من الفهم ليعتني بنفسه. بدلًا من ذلك ذهب مع الكلب في محاولة لاصطياد أرنب للعشاء في مكان ما. يقول إنه سوف يلحق بي عند الهويس التالي. حسنًا، هذا قد يحدث، لا أثق به ما إن يخرج مع ذلك الكلب الذي يزيده سوءًا. لكن في غضون ذلك كيف يمكنني أن أنتهي من الغسيل؟»

قال العلجوم إذ لم يرق له الموضوع: «أوه، لا تهتمي بشأن الغسيل، حاولي أن تضعي تركيزك على ذلك الأرنب. أنا واثق من أنه سيكون أرنبًا لذيذًا وسمينًا وصغير السِّن. هل لديك بصل؟»

قالت المرأة: «لا أستطيع أن أضع تركيزي على أي شيء سوى الغسيل، وأتساءل كيف يمكنك التحدث عن الأرانب وأمامك مثل هذا التوقع المبهج. ستجدين في زاوية المقصورة كومة من الأشياء التي تخصني. لو تتناولين فقط واحدًا أو اثنين من النوع الأكثر لزومًا- لن أجرؤ على وصفها لسيدة مثلك، لكن ستتعرفين إليها من نظرة واحدة؛ ضعيها في حوض الغسيل فيما نحن ذاهبتان. عجبًا، ستكون متعة لك كما تقولين حقًا وعون حقيقي لي. ستجدين حوض غسيل في المتناول وصابونًا وإبريقًا على الموقِد، وجردلًا لسحب الماء من القناة. ثم سأكون واثقة من أنك تستمتعين

بوقتك بدلًا من الجلوس هنا مكتوفة اليدين تنظرين إلى المشهد وتتثاءبين منخفضة الرأس».

قال العلجوم الآن مرعوبًا بالكامل: «هيه، دعيني أقود! فتستطيعين الغسيل على طريقتك. قد أفسد ملابسك أو قد لا أغسلهم كما ترغبين. أنا معتادة أكثر على ثياب الرجال. إنه اختصاصي».

أجابت المرأة في الصَّندل ضاحكة: «أدعك تقودين؟ تحتاج قيادة الصندل على نحو مناسب إلى قدر من التمرين. ناهيك عن أنه عمل رتيب، وأريدك أن تكوني سعيدة. لا، ستغسلين ما دمت شديدة الولع به وسألزم بالقيادة التي أفهمها. لا تحرميني من بهجة استضافتك!»

كان العلجوم مزنوقًا بالفعل. بحث عن مهرب في هذا الاتجاه وذاك، ورأى أنه كان بعيدًا جدًا عن الضّفة فتعذر عليه أن يثب وثبة سريعة واستسلم لقدره بكآبة. فكر يائسًا: «لو يتوقف الأمر على ذلك، أفترض أن أي أحمق يستطيع أن يغسل!»

جلب الحوض والصَّابون واللوازم الأخرى من المقصورة، اختار بعض الثياب بطريقة عشوائية، حاول أن يتذكر ما رآه في لمحات عابرة عبر نوافذ حجرات الغسيل، وانطلق يعمل.

مرت نصف ساعة طويلة، شهدت كل دقيقة منها على ازدياد غضب العلجوم. كل ما استطاع فعله للأشياء لم يبد أنه يرضيها أو يجديها نفعًا. حاول الملاطفة، الضَّرب، اللكم، ابتسمت له من الحوض دون أن تتغير، سعيدة في خطيئتها الأصلية. نظر مرة أو مرتين بعصبية من فوق كتفه نحو المرأة، لكن بدا أنها تنظر أمامها مستغرقة في القيادة. تألم ظهره كثيرًا، ولاحظ خائفًا أن كفيه أخذتا بالتغضن. الآن كان العلجوم فخورًا جدًا بكفيه. تمتم بينه وبين نفسه بكلمات يجب ألا تصدر عن شفتي أي امرأة غسالة أو علجوم، وانزلقت الصابونة للمرة الخمسين من بين يديه.

أفزعه صوت ضحك عال جعله ينتصب قائمًا وينظر حوله. كانت المرأة تستند إلى الوراء وتضحك بشدة إلى أن جرت الدُّموع على خديها.

قالت لاهثة: «لقد كنت أراقبك طوال الوقت. فكرت منذ البداية في أنك لا بد أن تكوني دجالة، من طريقتك المغرورة في التحدث. يا لك من غسالة ملابس جميلة! أعتقد أنك لم تغسلي في حياتك يومًا ولو حتى قماشة تجفيف الصُّحون!»

مزاج العلجوم الذي كان يكظم غيظه منذ وقت طويل، ثارت ثائرته فعليًا وفقد السَّيطرة على نفسه تمامًا.

صرخ: «أيتها المرأة السَّمينة اللئيمة الدنيئة! لا تتجاسري على التَّحدث عمن هم أفضل منك بتلك الطريقة! غسالة ملابس بالفعل! عليك أن تعلمي أني علجوم، علجوم معروف جيدًا ومحترم ومميز، ربما تكون سمائي ملبدة بالغيوم قليلًا في الوقت الراهن، لكن لن تسخر مني امرأة تقود صندلًا!»

اقتربت المرأة منه وحدّقت تحت قلنسوته من كثب وبحماس. صاحت: «عجبًا، ها أنت ذا هنا!! حسنًا، يا إلهي! علجوم مروِّع ومقرف وكريه! وفي صندلي النظيف اللطيف أيضًا! الآن ذلك أمر لن أقبل به».

أرخت ذراع الدَّفة للحظة. امتدت ذراع واحدة كبيرة مرقَّشة وأمسكت العلجوم من ساقه الأمامية فيما قبضت الذراع الأخرى عليه بسرعة من ساقه الخلفية. ثم انقلب العالم فجأة رأسًا على عقب، بدا كما لو أن الصندل يرفرف بخفَّة في عرض السَّماء، صفرت الرياح في أذنيه، ووجد العلجوم نفسه محلقًا في الهواء يدوِّم بسرعة فيما هو ذاهب.

بدت المياه باردة تمامًا عندما وصل إليها أخيرًا بدفقة صاخبة، ولو أن برودتها لم تكن كافية لتخفف من عنفوان روحه المتفاخرة، أو تخمد سخونة مزاجه الغاضب. صعد إلى السَّطح يبقبق وعندما أزال الطحالب من عينيه، أول ما رآه كان المرأة السمينة تنظر إليه من مؤخرة الصَّندل المتراجع وتضحك، وأقسم وهو يسعل ويختنق أن يكون معها.

كافح للخروج نحو الشَّط، لكن الرداء القطني عرقل جهوده كثيرًا وعندما لمس الأرض في النهاية وجد أن صعود هذه الضفَّة المتحدِّرة صعب دون عون من أحد. كان عليه أن يستريح دقيقة أو اثنتين لالتقاط أنفاسه، ثم جمع تنورته المشبعة بالماء فوق ذراعيه وبدأ يجري خلف الصَّندل بأقصى ما تمكنت ساقيه على حمله من سرعة، محمومًا بالغضب ومتعطشًا للانتقام.

كانت المرأة لما تزل تضحك عندما أصبح مجاورًا لها.

صرخت: «ضعي نفسك في معصرة غسيلك يا غسالة الملابس، واكوي وجهك واطويه، وستبدين مثل علجوم محترم المظهر تمامًا!»

لم يتوقَّف العلجوم أبدًا ليجيب. أراده انتقامًا قاسيًا وليس ظفرًا رخيصًا فارغًا شفهيًا، ولو أنه امتلك أمرًا أو اثنين في عقله لربما أحب قولهما. رأى ما أراده نصب عينيه. جرى بسرعة واستولى على الحصان وفك حبل السَّحب ورماه، قفز بخفَّة على ظهر الحصان وحثَّه على العدو بركله بقوة على الجانبين. قاد نحو الريف المفتوح مبتعدًا عن مسار السَّحب يتمايل بحصانه على طريق كثير الأخاديد. ما إن نظر خلفه حتى رأى أن الصَّندل جنح نحو الجانب الآخر للقناة، وكانت المرأة تومئ بوحشية وتصرخ: «توقَّف، توقَّف، توقَّف!»

قال العلجوم ضاحكًا: «لقد سمعت تلك الأغنية من قبل»، فيما واصل همز حصانه إلى الأمام في انطلاقته الجامحة.

لم يكن الحصان الذي كان يجر الصندل قادرًا على بذل أي جهد، كان مثبتًا تمامًا، وسرعان ما انحسر عدوه إلى خبب وخببه إلى سير متمهل، لكن العلجوم كان راضيًا تمامًا بهذا عالمًا أنه مهما يكن من أمر كان يتحرك والصندل لم يكن يفعل. كان قد استعاد مزاجه تمامًا الآن وقد أقدم على فعل شيء ظنه ذكي حقًا وأرضاه أن يسير متمهلًا بهدوء في الشَّمس ينخس حصانه على امتداد الطرق الفرعية

والجسور، ويتناسى الوقت الطويل الذي مر منذ أن تناول وجبة مشبعة، إلى أن أصبحت القناة بعيدة جدًا خلفه.

كان قد قطع مع حصانه بضعة أميال، والنُّعاس يداهمه في أشعة الشَّمس الحارة، عندما توقَّف الحصان وحنى رأسه وشرع يقضم العشب، والعلجوم استيقظ تمامًا، أنقذ نفسه بعناء من السُّقوط. التفت حوله ووجد أنه في أرض مشاعة فسيحة تتناثر فيها رقع من نباتات القندول والعليق على مد النظر. وقف قربه كرفان غجري قذر وإلى جانبه جلس رجل على جردل مقلوب رأسًا على عقب، يدخن بانهماك شديد ويحدِّق إلى العالم الفسيح. كانت هناك نار من عصي تتقد بالقرب، وفوق النار علق قدر حديدي ومن ذلك القدر تصاعدت فقاعات وأصوات غرغرة وبخار موحٍ وغامض.

أيضا روائح -روائح دافئة غنية ومختلفة- تضافرت وتحابكت وجدلت نفسها أخيرًا في رائحة كاملة مثالية ومبهجة بدت كما لو أن روح الطبيعة نفسها تتخذ شكلًا وتظهر لأطفالها، ربَّة حقيقية، أمًا معزية ومواسية. عرف العلجوم الآن جيدًا أنه لم يكن جائعًا حقًا سابقًا. كان ما شعر به سابقًا خلال النهار مجرد غثيان تافه. هذا كان الشيء الحقيقي أخيرًا، وما من خطأ، ووجبت معالجته بسرعة أيضًا وإلا فإن مشكلة ستصيب شخصًا أو شيئًا ما. نظر إلى الغجري بعناية متسائلًا بغموض هل سيكون من السهل مصارعته أو تملقه. إذن جلس هناك وتنشَّق ونظر إلى الغجري، والغجري جلس ودخَّن ونظر إليه.

أخرج الغجري غليونه من فمه في الحال وقال بغير اكتراث: «هل تريد أن تبيع حصانك ذاك؟»

كان العلجوم مأخوذًا تمامًا. لم يعرف أن الغجر مولعين جدًا بالأحصنة ولم يفوتوا فرصة أبدًا لاقتنائها، ولم يفكر في أن القوافل تنتقل دومًا وتحتاج إلى من يجرها. لم يكن قد خطر له أن يبيع الحصان لكن اقتراح الغجري بدا أنه يمهد الطريق نحو أمرين أرادهما بشدة؛ نقود جاهزة وفطور مشبع.

قال: «ماذا؟ أنا أبيع حصاني الجميل الفتي هذا؟ أوه، لا، هذا مستحيل. من سوف يوصل الغسيل إلى زبائني كل أسبوع؟ إضافة إلى ذلك، أنا مولعة به كثيرًا، وهو ببساطة شغوف بي».

اقترح الغجري: «حاولي أن تحبي حمارًا، بعض الناس يفعلون ذلك».

واصل العلجوم: «يبدو أنك لا تفهم أن هذا الحصان الممتاز هو من سلالة تتفوق عليكم جميعًا. إنه حصان ذو نسب، هو من ناحية ليس الجزء الذي تراه بالطبع، بل جزء آخر. وهو حصان من سلالة الهاكني، حائز على جوائز أيضًا في وقت من الأوقات؛ كان ذلك في زمن قبل معرفتك به، لكن يمكنك مع ذلك أن تعرف من نظرة، لو كنت تعلم شيئًا عن الخيول. لا، أنا لا أفكر في ذلك ولو للحظة. مع ذلك، كم يمكن أن تدفع لي مقابل هذا الحصان الفتي الجميل؟»

نظر الغجري إلى الحصان، ثم نظر إلى العلجوم باهتمام مماثل ونظر إلى الحصان ثانية. قال باختصار: «شلن واحد لكل ساق»، والتفت مواصلًا التدخين يحاول أن يحدق إلى العالم الفسيح برزانة.

صاح العلجوم: «شلن مقابل كل ساق؟ لو تسمح، يجب أن آخذ بعض الوقت لأفكر في الأمر وأرى ما قد يتأتى».

ترجَّل عن حصانه وتركه ليرعى العشب، وجلس إلى جانب الغجري وأجرى بعض العمليات الحسابية على أصابعه، وقال أخيرًا: «شلن لكل ساق؟ عجبًا، هذا يعني أربعة شلنات تمامًا وليس أكثر. أوه لا، لا أستطيع التفكير في قبول أربعة شلنات مقابل حصاني الفتي الجميل هذا».

قال الغجري: «حسنًا، سأخبرك ماذا سأفعل. سأجعلها خمسة شلنات بزيادة قيمتها ثلاثة شلنات وستة بنسات عما يستحق الحيوان. وهذه كلمتي الأخيرة».

ثم جلس العلجوم يقلِّب الرأي طويلًا وعميقًا. لأنه كان جائعًا ومفلسًا تمامًا، ومع ذلك بطريقة ما لم يعرف طول المسافة التي تفصله عن البيت، وربما لا يزال الأعداء يبحثون عنه. قد تبدو خمسة شلنات لواحد في مثل هذه الحالة مبلغًا كبيرًا من المال. من ناحية أخرى لم يبد كثيرًا أنه مبلغ مناسب ثمنًا لحصان. إذن ثانية لم يكلفه الحصان شيئًا، لذا كل ما يحصل عليه هو ربح صاف. قال بحزم أخيرًا: «انظر هنا أيها الغجري، أقول لك ما سأفعل وهذه الكلمة الأخيرة عندي. عليك أن تناولني ستة شلنات وستة بنسات عدًا ونقدًا وإلى هذا عليك أن تقدِّم لي فطورًا بقدر ما أستطيع أن آكل بجلسة واحدة بالطبع من ذلك القدر الحديدي الذي لا يتوقف عن إرسال مثل هذه الروائح اللذيذة والمثيرة. بالمقابل سأقدِّم لك حصاني الفتي النشيط مضمنًا العدَّة الجميلة كلها وغطاء السَّرج الذي عليه مجانًا. إذا لم يكن ذلك جيدًا بما فيه الكفاية لك قل وسأمضي. أعرف رجلًا قريب من هنا لطالما أراد شراء هذا الحصان منذ سنوات».

دمدم الغجري على نحو مخيف، وأعلن لو أنه أقدم على عقد المزيد من ذلك النوع من الصفقات سيكون مدمرًا. لكن في النهاية سحب كيسًا قماشيًا قذرًا من أعماق جيب بنطاله، وعدَّ ستة شلنات وستة بنسات في كفِّ العلجوم. ثم اختفى في الكرفان للحظة وعاد بطبق كبير حديدي وسكين وشوكة وملعقة. أمال القدر فبقبق تيَّار بهي من يخنة غنية ساخنة في الطبق. كانت بالفعل اليخنة الأكثر جمالًا في العالم، أعدَّت من الحجل، وطائر التَّدرج، والدَّجاج، والأرنب البري، والأرانب، وأنثى الطاووس، والدَّجاج الحبشي، وشيء أو اثنين آخرين. وضع العلجوم الطبق على حجره وهو على وشك البكاء، وأكل واستمر بطلب المزيد، ولم يبدِ الغجري منه تذمرًا قط. ظنَّ أنه لم يتناول فطورًا جيدًا في حياته مطلقًا.

بعدما تناول العلجوم من اليخنة بقدر ما اعتقد أنه يستطيع أن يأكل، نهض وودَّع الغجري وودع الحصان وداعًا عطوفًا، والغجري الذي عرف ضفة النهر جيدًا دلَّه على الطريق الذي عليه أن يسلكه وانطلق في أسفاره ثانية منشرح الصَّدر. كان بالفعل علجومًا مختلفًا تمامًا عن الحيوان الذي كان عليه قبل ساعة. كانت أشعة

الشمس ساطعة، فجفت ملابسه الرطبة تمامًا، والمال يملأ جيوبه مرة أخرى، كان يقترب من البيت والأصدقاء والأمان، وأفضل من كل شيء، تناول وجبة حقيقية ساخنة ومغذية وشعر أنه كبير وقوي وغير مهتم وواثق بنفسه.

وفيما هو يتسكع بمرح فكَّر في مغامراته وبهروبه وكيف استطاع دومًا أن يجد مخرجًا كلما بدت الأمور تسوء، وبدأ كل من تفاخره وغروره ينتفخان في داخله. قال لنفسه عندما سار وذقنه في الهواء: «هو، هو! يا لي من علجوم ذكي! بالتأكيد لا يوجد حيوان يساويني في الذكاء في العالم أجمع! حبسني أعدائي في السِّجن وأحاطوني بالحراس وراقبني الخفر ليل نهار فتسللت من بينهم جميعًا ببراعة مقترنة بالشَّجاعة وحسب. لاحقوني بقطارات، ورجال شرطة، ومسدسات، فرقعت أصابعي في وجههم واختفيت ضاحكًا في الفضاء. للأسف رمتني امرأة بدينة الجسد وخبيثة العقل في قناة. ماذا عنها؟ أسبح نحو الشَّاطئ، أستولي على حصانها وأنطلق به منتصرًا، وأبيع الحصان مقابل ملء جيب من النقود وفطور استثنائي! هو، هو! أنا العلجوم، العلجوم الوسيم الشَّهير الناجح!» انتفخ كثيرًا بالغرور ووصل به الأمر إلى حد أنه ألَّف أغنية فيما هو سائر في مديح نفسه ورفع عقيرته بغنائها ولو أنه لم يكن هناك أحد ليسمعها سواه. ربما كانت الأغنية الأكثر غرورًا التي ألفها حيوان على الإطلاق.

امتلك العالم أبطالًا عظماء،

كما أظهرت كتب التاريخ،

لكن لم ينل اسم شهرة مطلقًا

مقارنة مع شهرة العلجوم!

الرجال الأذكياء في أوكسفورد

يعرفون كل ما ينبغي معرفته.

لكن ما من أحد منهم يعرف نصف

ما يعرفه السَّيد علجوم الذكي!

جلست الحيوانات في سفينة نوح وبكت،

تدفقت دموعها في سيول جارفة.

من كان الذي قال، هناك أرض قدما؟

السَّيد علجوم الشجاع!

الجيش كله أدى التحية

فيما هم سائرون على طول الطريق.

هل كان ذلك الملك؟ أو المارشال كيتشنر؟

لا. لقد كان السيد علجوم.

الملكة ووصيفاتها بالانتظار

جلسن إلى النافذة يخطن.

صاحت: «انظروا! من ذلك الرجل الوسيم؟»

أجبن: «السيد علجوم».

كان هناك قدر كبير إضافي من النَّوع نفسه، لكنه مزهو كثيرًا بنفسه فلا يمكن تدوينه. تلك أبيات ملطّفة.

غنَّى في أثناء سيره، وسار في أثناء غنائه، وازداد انتفاخًا مع كل دقيقة. لكن فخره سينهار قريبًا انهيارًا قاسيًا.

وصل إلى الطريق العام بعد بضعة أميال من الممرات الريفية، وعندما التفت إليه ونظر إلى امتداده الأبيض رأى بقعة تقترب منه، تحولت إلى نقطة ثم إلى لطخة ثم إلى شيء مألوف جدًّا، وابتهج لسماع نغمة تحذير مزدوجة معروفة جيدًا.

قال العلجوم المنفعل: «هذا شيء مثل حياة حقيقية ثانية، هذا مرة أخرى العالم العظيم الذي كنت غائبًا عنه وقتًا طويلًا! سأحييهم أخوتي في القيادة، وأقص عليهم حكاية من النوع الذي كان ناجحًا جدًا فيما مضى، وسيمنحون لي توصيلة بالطبع، ثم سأتحدث إليهم أكثر وربما بقدر من الحظ ينتهي بهم الأمر إلى إيصالي إلى قصر العلجوم في سيارة! تلك سوف تكون هزيمة للغرير!»

خطا بثقة نحو الطريق ليهتف للسيارة التي تقدمت بسرعة خفيفة مبطئة، عندما اقتربت من الدَّرب أصبح فجأة شديد الشُّحوب، داهمه خوف عظيم، اصطكت ركبتاه وخارتا تحته وانثنى على نفسه وانهار وأحس بألم مغث في داخله. وكان الحيوان التعيس محقًا في ذلك، لأن السيارة المقتربة كانت السَّيارة نفسها التي سرقها من فناء فندق الأسد الأحمر في ذلك اليوم المشؤوم، عندما بدأت جميع متاعبه والناس فيها كانوا نفس الأشخاص الذين جلس وراقبهم إلى الغداء في حجرة القهوة!

انهار على الطريق في كومة رثَّة بائسة، متمتمًا في يأس: «لقد انتهى كل شيء! كل شيء انتهى الآن! السلاسل ورجال الشُّرطة ثانية! السِّجن ثانية! الخبز اليابس والماء ثانية! أوه يا لي من أحمق! من أجل ماذا ذهبت أختال في الريف، أنشد الأغاني المتباهية، وأحيي النَّاس في وضح النهار على الطريق السَّريع بدلًا من الاختفاء حتى الغروب والتسلل إلى البيت بهدوء من الطرق الخلفية! أوه يا للعلجوم المنحوس! أوه يا له من حيوان سيئ الحظ!»

اقتربت السَّيارة الرهيبة ببطء شيئًا فشيئًا، إلى أن سمعها تتوقف أخيرًا على مقربة منه تمامًا. خرج سيدان اثنان وسارا حول الكومة المرتجفة من شدة البؤس الممددة على الطريق، وقال أحدهما: «أوه يا إلهي! هذا حزين جدًا! هنا شيء عجوز ومسكين -غسالة على ما يبدو- فقدت الوعي على الطريق! ربما هزمها الحر،

المسكينة، أو ربما لم تتناول أي طعام اليوم. دعنا نحملها إلى السَّيارة ونأخذها إلى أقرب قرية حيث من المؤكد لديها أصدقاء».

رفعا العلجوم برقَّة إلى السَّيارة ودعماه بالمساند الناعمة وأكملا طريقهما.

عندما سمعهما العلجوم يتحدثان بلطف شديد وبتعاطف، عرف أنهما لم يتعرفا إليه، فبدأ يستعيد شجاعته وفتح إحدى عينيه أولًا بحذر ثم الأخرى.

قال أحد الرجلين: «انظر! إنها أفضل الآن. الهواء العليل يجديها نفعًا. كيف تشعرين الآن يا سيدتي؟»

قال العلجوم بصوت ضعيف: «أشكرك بلطف يا سيدي، أنا أشعر بتحسن كبير!»

قال الرجل: «هذا صحيح، الآن اهدئي ولا تحاولي الكلام».

قال العلجوم: «لن أفعل، كنت فقط أفكر لو يمكنني الجلوس في المقعد الأمامي هناك إلى جانب السَّائق حيث يمكنني استنشاق الهواء العليل يهب في وجهي تمامًا ولا بدَّ أن أكون على ما يرام سريعًا ثانية».

قال الرجل: «يا لها من امرأة متعقِّلة! بالطبع يمكنك أن تفعلي». وهكذا ساعدا العلجوم بعناية على الجلوس في المقعد الأمامي إلى جانب السَّائق وانطلقوا ثانية.

كان العلجوم قد عاد إلى طبيعته ثانية الآن. جلس ونظر من حوله وحاول أن يقهر الارتجاف، اللهفة، الرغبات القديمة الملحة التي ثارت وأزعجته وتملكته كليًا.

قال لنفسه: «إنه القدر! لماذا تماحك؟ لماذا تكافح؟» والتفت إلى السَّائق إلى جانبه.

قال: «من فضلك سيدي، أتمنى أن تسمح لي بلطف أن أجرب قيادة السَّيارة قليلًا. لقد كنت أراقبك بعناية ويبدو لي الأمر بالغ السهولة ومثيرًا للاهتمام، وأحب أن أخبر أصدقائي أني قدت سيارة مرة!»

ضحك السَّائق بحماس لسماع المقترح، حتى أن الرجل استفسر عن الأمر. عندما سمع قال: «جيد يا سيدتي! أحبُّ روحك. دعها تجرب واعتني بها، لن تتسبب بأي أذى». فابتهج العلجوم.

تسلَّق العلجوم المقعد الذي أخلاه السَّائق بلهفة، أمسك عجلة القيادة بيديه، استمع بتواضع مصطنع إلى التعليمات المقدمة له، وشغَّل السَّيارة، لكن ببطء شديد وبعناية أولًا لأنه كان مصممًا على أن يكون حصيفًا.

صفَّق الرجلان في الخلف وهتفا استحسانًا وسمعهما العلجوم يقولان: «كيف تبلي بلاء حسنًا! تخيل غسالة ملابس تقود سيارة بمثل هذه الجودة من المرة الأولى!»

زاد العلجوم السُّرعة قليلًا ثم أسرع فأسرع.

سمع الرجلان يناديان محذرين: «احذري أيتها الغسالة!» وهذا أزعجه وبدأ يفقد رشده.

حاول السَّائق التَدخل لكنه ثبَّته في مقعده بمرفقه، وانطلق بأقصى سرعة. اندفاع الهواء في وجهه، دمدمة المحركات، والسيارة تثب وثبًا خفيفًا من تحته، أسكرت دماغه الضَّعيف. صرخ بإهمال: «غسالة بالفعل! هو! هو! أنا العلجوم خاطف السَّيارة، كاسر السِّجن، العلجوم الذي يهرب دومًا! اجلسوا بهدوء وستعرفون كيف تكون القيادة حقًا لأنكم بين يدي العلجوم الشَّهير الماهر الذي لا يخاف مطلقًا!»

بصرخة رعب نهضت المجموعة بكاملها ورموا بأنفسهم عليه. صاحوا: «أمسكه! أمسك العلجوم الحيوان الخبيث الذي سرق سيارتنا! أوثقه، قيده بالسلاسل، جره إلى أقرب مخفر شرطة! ليسقط العلجوم الخطير واليائس!»

للأسف! كان عليهم أن يفكروا، كان عليهم أن يكونوا أكثر حصافة، كان عليهم أن يتذكروا أن يوقفوا السَّيارة بطريقة ما قبل أن يمزحوا أي مزحة من ذلك النَّوع. بنصف دورة من عجلة القيادة جعل العلجوم السَّيارة ترتطم بالسياج الواطئ الممتد على جانب الطريق. قفزة واحدة عظيمة، صدمة عنيفة ثم كانت عجلات السيارة تخوض في وحل بركة الأحصنة السَّميك.

وجد العلجوم نفسه يطير في الهواء باندفاعة قوية صاعدة وتقوس دقيق شبيهة بحركة طائر السنونو. أحبَّ الحركة، وكان يبدأ في التساؤل هل ستستمر إلى أن ينمو له جناحان ويتحول إلى طائر علجوم، عندما حطَّ على ظهره وخبط على عشب المرج الوفير النَّاعم. جلس فاستطاع أن يرى السَّيارة في البركة مغمورة تقريبًا، كان الرجلان والسَّائق مثقلين بمعاطفهم الطويلة يتخبطون بعجز في المياه.

استعاد عافيته مجددًا بسرعة وانطلق يجري عبر الريف بأقصى ما استطاع من قوة، يزحف عبر الأسيجة، ويقفز فوق الخنادق، ويثب عبر الحقول، إلى أن انقطعت أنفاسه ونال منه الإرهاق، وكان عليه أن يتحول إلى سير هين. عندما التقط أنفاسه بطريقة ما وكان قادرًا على التفكير بهدوء بدأ يقهقه، ومن القهقهة تحوَّل إلى الضَّحك، وضحك إلى أن كان عليه أن يجلس تحت سياج. «هو! هو!» صاح في ابتهاج غامر من شدَّة الاعجاب بالنفس. «العلجوم ثانية! العلجوم يتفوَّق كالعادة! من الذي حملهم على أن يمنحوه جولة؟ من تمكن من الوصول إلى المقعد الأمامي طلبًا للهواء النقي؟ من أقنعهم بأن يرى إذا كان يستطيع القيادة؟ من حطَّ بهم جميعًا في بركة الأحصنة؟ من هرب محلقًا بمرح وسالمًا عبر الهواء، تاركًا المتنزهين المتعصبين والمتذمرين والهيابين في الوحل حيث مكانهم الطبيعي بحق؟ لماذا، العلجوم بالطبع، العلجوم الذكي، العلجوم العليم، العلجوم الجيد!»

ثم انفجر بالغناء ثانية، وأنشد بصوت عالٍ:

السَّيارة مضت، بوب-بوب-بوب،

عندما أسرعت على طول الطريق.

من قادها إلى بركة؟

المبدع السَّيد علجوم!

أوه كم أنا ذكي! كم أنا ذكي، كم أنا ذكي، يا لشدة ذكائي!

جعلته ضجة خفيفة من بعيد خلفه يدير رأسه وينظر. «أوه يا للرعب! يا للبؤس! يا لليأس!»

بعد مسافة حقلين تقريبًا، كان يرى سائقًا يضع طماقًا لحذائه الجلدي ورجلي شرطة ضخمين ريفيين يجريان نحوه بأسرع ما في وسعهم!

قفز العلجوم المسكين على قدميه وانطلق مسرعًا ثانية بقلب يخفق بشدة. «أوه يا إلهي!»، تنفس بشدة وهو يلهث، «يا لي من أحمق! يا لي من مزهو وطائش! أتفاخر ثانية! أصرخ وأنشد الأغاني ثانية! أجلس بهدوء وأتبجَّح ثانية! يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي!»

نظر خلفه ورأى أنهم كانوا يلحقون به فأصابه الذعر. واصل الجري بيأس لكنه استمر في النظر إلى الخلف ورأى أنهم لا يزالون يلحقون به بثبات. بذل أقصى جهده لكنه كان حيوانًا سمينًا بساقين قصيرتين، وظلوا يلاحقونه. استطاع سماعهم يقتربون منه الآن. توقف ليرى أين كان ذاهبًا وكافح بتهور وبجموح وهو ينظر إلى الخلف من فوق كتفه نحو العدو الجديد المنتصر، عندما خارت الأرض تحت قدميه فجأة، استنشق الهواء ووجد نفسه في المياه العميقة مغمورًا حتى أذنيه، مياه سريعة، تشقه بقوة لم يستطع مساجلتها، وعرف أنه في ذعره الأعمى ركض مباشرة في النهر!

صعد إلى السَّطح وحاول التَّمسك بالقصب والأسل النَّامي على طول حافَّة المياه قريبًا تحت الضّفة، لكن التيار كان من القوة حتى أنه انتزعها من بين يديه. لهث العلجوم المسكين: «أوه يا إلهي! لو أسرق سيارة ثانية! لو أغني بزهو أغنيه أخرى»، ثم نزل وصعد يبقبق مقطوع الأنفاس. رأى في الحال أنه كان يقترب من فجوة كبيرة مظلمة في الضِّفة، فوق رأسه تمامًا، ولما شقَّ طريقه بجهد في التيار مدَّ كفَّه وأمسك الحافَّة وتوقَّف. ثم سحب نفسه ببطء وبصعوبة من المياه، إلى أن تمكن أخيرًا من أن يسند مرفقيه على حافَّة الفجوة. ظل هناك بضع دقائق يلهث وينفخ؛ فقد كان منهكًا تمامًا.

عندما تنهَّد ونفخ وحدَّق أمامه في الفجوة المظلمة، شعَّ شيء صغير متألق وتلألأ في أعماقها مقتربًا نحوه. عندما اقترب، تدريجيًا نما وجه من حوله وكان وجهًا مألوفًا!

كان بنيًّا وصغيرًا وذا شارب.

كان وقورًا ومدوَّرا ذا أذنين صغيرتين وشعر أملس.

كان وجه جرذ الماء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الحادي عشر

عصفت دموعه مثل زوابع الصَّيف

مدَّ الجرذ كفه البنيّة الصغيرة الملساء وأمسك العلجوم بحزم من نقرته ورفعه بقوة وسحبه، ببطء صعد العلجوم المشبع بالماء لكن بثبات على حافَّة الجحر، إلى أن وقف أخيرًا سالمًا وآمنًا في الردهة، لا شك مخططًا بالوحل والطحلب، يسيل منه الماء لكنه سعيد ومنشرح النَّفس كما في السَّابق. الآن وقد لقي نفسه مرة أخرى في منزل صديق، بعد أن انتهت المراوغات والتحايلات، واستطاع أن يخلع قناعًا لم يكن لائقًا به وتطلَّب الكثير كي يرقى إلى مستواه.

صرخ: «أوه يا جرذون! لا تستطيع أن تتخيل الأوقات العصيبة التي كنت أمر بها منذ رأيتك آخر مرة! يا لها من محاكمات، وآلام، وكل شيء مطبوع بنبل كبير! ثم إدبار، وتنكُّر، وحيل خطط لها جميعًا ونفذت بذكاء! كنت في السِّجن، وخرجت منه بالطبع! رميت في قناة، فسبحت نحو الشَّاطئ! سرقت حصانًا، بعته لقاء مبلغ كبير! خدعت الجميع، جعلتهم يفعلون بحسب مشيئتي بالضَّبط! أوه أنا علجوم ذكي وما من غلطة! ماذا تظن كانت آخر مآثري؟ فقط انتظر حتى أخبرك...»

قال جرذ الماء بوقار وبحزم: «اصعد أيها العلجوم إلى الطابق الأعلى في الحال، واخلع تلك الخرقة القديمة من القطن التي تبدو كما لو أنها كانت في السابق لغسالة ملابس، ونظِّف نفسك كاملًا، وارتد بعضًا من ملابسي وحاول أن تنزل وأنت في هيئة رجل محترم لو أمكنك ذلك، لأن عيني لم تقع مطلقًا طوال حياتي على شيء رثّ الهيئة وغير مهندم وحقير المظهر أكثر مما أنت عليه! الآن كفَّ عن الاختيال والجدال واذهب! هناك أمر أرغب أن أحدثك عنه لاحقًا!»

أولًا كان العلجوم يرغب بشدة في التَّوقف والرد عليه، فقد اكتفى من تلقي الأوامر عندما كان في السِّجن، وهنا كان الأمر يبدأ من جديد ثانية فيما يبدو، ومن قبل جرذ أيضًا! مع ذلك لمح نفسه في المرآة الموضوعة فوق منصب القبعات، والقلنسوة الرثَّة السوداء تتدلى فوق إحدى عينيه، فغير رأيه وذهب بسرعة كبيرة وبتذلل إلى الطابق الأعلى إلى غرفة ملابس الجرذ. هناك اغتسل جيدًا وفرك جسده وبدل ملابسه، ووقف وقتًا طويلًا أمام المرآة يتأمَّل نفسه بفخر ورضا، ويفكر في أن الناس لا بد أنهم جميعًا حمقى تمامًا عندما اعتقدوا للحظة واحدة أنه غسالة ملابس.

عندما نزل إلى الطابق الأرضي ثانية كان هناك مأدبة صغيرة على الطاولة، وشعر العلجوم بسعادة غامرة لرؤيتها لأنه قد مرَّ ببعض التجارب المرهقة ومارس مقدارًا وافرًا من التَّمارين القاسية منذ الفطور الممتاز الذي قدَّمه له الغجري. في أثناء الطعام قص العلجوم على الجرذ جميع مغامراته منبهًا إياه خصوصًا إلى ذكائه، وحضور بديهته في حالات الطوارئ، ودهائه في المواقف الحرجة، وأوضح بالأحرى أنه حظي بتجربة شديدة الثراء ومبهجة. لكن كلما تحدث وتفاخر أصبح الجرذ جادًا وصامتًا.

عندما قال العلجوم أخيرًا كل ما في نفسه إلى أن توقف تمامًا، حل الصَّمت إلى حين ثم قال الجرذ: «الآن أيها العلجوم، لا أريد أن أتسبب لك بالألم بعد كل ما عانيته بالفعل، لكن بجدية، ألا ترى الحماقات التي كنت ترتكبها؟ باعترافك الشَّخصي كنت مغلول اليدين ومسجونًا وتتضور جوعًا ومطاردًا وهلعًا على حياتك ومهانًا، وموضع سخرية، وملقى في المياه بشكل مخزي -من قبل امرأة أيضًا! أين التفكّه في ذلك؟ من أين تأتي التسلية؟ وكل ذلك لأنك اضطررت إلى أن تذهب وتسرق سيارة. أنت تعرف أن السَّيارات لم تأتيك يومًا بشيء سوى المتاعب من اللحظة الأولى التي يقع فيها بصرك على واحدة. لكن إذا كنت ستتحطم معها بعد خمس دقائق من انطلاقتك، وهذا ما يحدث عمومًا، لماذا تسرقها؟ كن كسيحًا لو تظن أنه أمر مثير، كن مفلسًا من باب التغيير إذا صممت على ذلك: لكن لماذا تختار أن تكون سجينًا؟ متى ستتعقل وتفكّر في أصدقائك، وتحاول أن تكون مصدر فخر لهم؟ هل تفترض أني أستمتع على سبيل المثال لسماع الحيوانات تقول عندما ألتقي بهم أني الرجل الذي يصاحب السُّجناء؟»

الآن، كانت خصلة معزية في شخصية العلجوم أنه حيوان طيب القلب، ولا يهتم إذا ما خاطبه بعنف هؤلاء الذين كانوا أصدقاء حقيقيين له. وحتى عندما يكون مصممًا على أمر ما استطاع دومًا رؤية وجهة النظر الأخرى.

لذلك، ومع أن الجرذ كان يتحدث بجدية بالغة، ظلّ العلجوم يقول لنفسه بشكل متمرد: «لكن كان الأمر ممتعًا، مع ذلك! تسلية مريعة!» وراح يصدر ضوضاء غريبة مكبوتة في داخله: «ك-ي-كك- كك- كك- وبووب... ب... ب »، وأصوات أخرى تشبه شخيرًا مخنوقًا أو صوت فتح زجاجات المياه الغازية، مع ذلك عندما انتهى الجرذ تمامًا من كلامه، أخذ نفسًا عميقًا وقال بلطف شديد وتذلل: «صحيح تمامًا يا جرذون! كم أنت عميق دومًا! نعم، لقد كنت عجوزًا أحمق متفاخرًا، يمكنني تمامًا رؤية ذلك، لكن سأصير علجومًا جيدًا، ولن أفعل ذلك بعد الآن. أما السيارات، فلم أكن على الإطلاق شديد الولع بها منذ غطستي الأخيرة في النهر. الحقيقة هي أني بينما كنت أتسكع وألتقط أنفاسي على حافة جحرك، خطرت لي فكرة مفاجئة، فكرة رائعة حقًا، عن الزوارق المزودة بمحرك. على رسلك، على رسلك! لا تستنفر هكذا أيها الفتى الكبير وتبطش وتفسد الأمور، كانت مجرد فكرة ولن نتحدث عنها الآن أكثر من ذلك. سنحتسي قهوتنا، وندخن، ونتحدث بهدوء، ثم سوف أتمشى نحو قصر العلجوم، وأرتدي ملابسي الخاصَّة، وأضع الأمور في نصابها ثانية. لقد اكتفيت من المغامرات. يجب أن أعيش حياة هادئة ومحترمة وركينة، أتسكع حول ممتلكاتي وأطورها، وأقوم ببعض أعمال البستنة أحيانًا. سيكون هناك دومًا القليل من الطعام كي يتعشى أصدقائي عندما يأتون لرؤيتي، وسوف أحتفظ بعربة خفيفة لأسير وئيدًا فيها حول الريف، تمامًا كما اعتدت أن أفعل في الأيام السَّالفة الجيدة، قبل أن يتملكني الضَّجر ورغبت في أن أفعل ما أريد».

صاح الجرذ بانفعال شديد: «تتمشى نحو قصر العلجوم؟ عمَّ تتحدث؟ هل تعني أنك لم تسمع؟»

قال العلجوم وقد شحب وجهه إلى حدٍّ ما: «سمعت بماذا؟ هيا يا جرذون! سريعًا! أخبرني! ما الذي لم أسمعه؟»

صرخ الجرذ وهو يضرب بقبضته الصَّغيرة على الطاولة: «هل تقصد أن تقول لي إنك لم تسمع شيئًا عن القاقم وابن عرس؟»

صاح العلجوم وأطرافه ترتجف: «ماذا، أبناء الغابة البرية؟ لا، ولا كلمة! ماذا كانوا يفعلون؟»

واصل الجرذ: «وعما فعلوه من استيلاء على قاعة العلجوم؟»

أسند العلجوم مرفقيه على الطاولة، وذقنه على كفيه، ونبعت دمعة كبيرة في كل واحدة من عينيه، فاضت وتساقطت على الطاولة محدثة صوتًا!

تمتم الآن: «استمر يا جرذون، أخبرني بكل شيء. الأسوأ مضى. أنا حيوان ثانية. يمكنني تحمل الأمر».

قال الجرذ ببطء وبصورة مؤثرة: «عندما تورطت في تلك المشكلة، أعني، عندما اختفيت من المجتمع إلى حين، بخصوص سوء التفاهم حول... سيارة، كما تعلم...»

اكتفى العلجوم بالإيماء.

واصل الجرذ: «حسنًا، جرى حديث كثير هنا عن ذلك بطبيعة الحال، ليس فقط على طول ضفَّة النهر، لكن حتى في الغابة البرية. تنحاز الحيوانات كما يحدث دومًا. لزم سكان ضفَّة النَّهر جانبك وقالوا إنك عُوملت معاملة شائنة وليس هناك عدالة في الأرض هذه الأيام. لكن حيوانات الغابة البرية قالوا أمورًا قاسية، وأنك تستحق ما أصابك، وحان الوقت كي يتوقف هذا النوع من الأمور. وأصبحوا مغرورين جدًّا، وراحوا يقولون إن أمرك انتهى هذه المرة! ولن تعود ثانية أبدًا!»

أومأ العلجوم مرة أخرى محتفظًا بالصَّمت.

واصل الجرذ: «إنهم هذا النوع من الحيوانات الصَّغيرة، لكن الخلد والغرير تمسكا بفكرة أنك مهما حدث من أمر ستعود ثانية قريبًا بطريقة ما. لم يعرفا بالضبط كيف لكن بطريقة ما!»

بدأ العلجوم يستقيم في كرسيه ثانية ويتكلف الابتسام قليلًا.

واصل الجرذ: «استعانا بالتاريخ لتقديم حججهما، قالا إنه لم يعرف على الإطلاق أي قوانين جنائية تعاقب على الوقاحة والمصداقية كما في مثل حالتك، لا سيما إذا اقترنتا مع نفوذ الثروة الطائلة، لذا رتبا أمر نقل حاجياتهم إلى قصر العلجوم الريفي كي يناما فيه، ويحافظان على تهويته ويعدانه ليكون جاهزًا لعودتك في أي وقت. هما لم يخمنا بالطبع ما سوف يحدث، مع ذلك كانت لديهما شكوك في حيوانات الغابة البرية. الآن أصل إلى الجزء المأساوي والأكثر ايلامًا من قصتي. ذات ليلة حالكة، كانت ليلة حالكة السواد والريح تهب بشدة أيضًا والمطر وابل، زحفت مجموعة من أبناء عرس مدججة بالسِّلاح بصمت على الطريق الفرعي المؤدي إلى

المدخل الرئيس. في الوقت نفسه كانت مجموعة من الظرابين المتهورين تتقدم عبر حديقة الخضروات، سيطروا بأنفسهم على الباحة الخلفية وعلى المكاتب، بينما فرقة مناوشة من حيوانات القاقم الذين لم يتشبثوا بأي شيء، احتلت الحديقة الشتوية وغرفة البلياردو، وأبقوا النوافذ الفرنسية مفتوحة على المرج. كان الخلد والغرير جالسين قرب النَّار في غرفة التدخين يقصان القصص ولا يتوقعان شيئًا لأنها لم تكن ليلة يخرج فيها أي حيوان، عندما اقتحم هؤلاء الأنذال السفاحون الأبواب، واندفعوا عليهما من كل حدب وصوب. قاتلا بأفضل ما استطاعا، لكن ماذا كانت النتيجة؟ كانا أعزلين وأخذا على حين غرة، وماذا يستطيع أن يفعل حيوانان اثنان في وجه المئات؟ أخذوا هذين المخلوقين المسكينين المخلصين وضربوهما بقسوة بالعصي وعرضوهما للبرد والبلل، وأسمعوهما الكثير من العبارات المهينة وغير المبررة.

أخذ العلجوم قاسي القلب هنا يضحك ضحكًا مكبوتًا، ثم استعاد رباطة جأشه، وحاول أن يبدو جادًا.

واصل الجرذ: «وسكان الغابة البرية منذ ذلك الحين يقيمون في قصر العلجوم الريفي، والوضع مستمر على ما هو عليه بأي حال! يستلقون في السَّرير نصف اليوم، ويتناولون الفطور في جميع الأوقات، وتعم المكان فوضى عارمة. قيل لي إنه ليس مناسبًا ليرى! يتناولون طعامك، يشربون شرابك، ويطلقون النُّكات السَّيئة عنك، وينشدون الأغاني البذيئة، عن... حسنًا، عن السُّجون والقضاة ورجال الشُّرطة، أغاني مروعة خالية من الظُّرف تتناولك أنت شخصيًا. ويخبرون أصحاب المتاجر والجميع أنهم جاؤوا ليبقوا إلى الأبد».

قال العلجوم وهو ينهض ممسكًا عصا: «أوه حقًا! يسرني أن أرى بهذا الشَّأن قريبًا!»

صاح الجرذ وراءه: «لا فائدة أيها العلجوم! من الأفضل أن تعود وتجلس، حسبك أنك ستتورط في المتاعب».

لكن العلجوم كان قد انطلق وصار متعذرًا إيقافه. سار بسرعة على الطريق، عصاه فوق كتفه، يثور ويتمتم غاضبًا، إلى أن اقترب من البوابة الرئيسة عندما ظهر فجأة من خلف السِّياج الخشبي ظربان طويل أصفر اللون يحمل بندقية.

قال الظربان بحدَّة: «من هناك؟»

قال العلجوم بغضب شديد: «كلام فارغ! ماذا تعني بالتَّحدث معي بتلك الطريقة؟ اخرج من مكانك في الحال أو سوف...»

لم ينبس الظربان بكلمة، لكنه وضع بندقيته على كتفه. انبطح العلجوم بتعقل على الطريق وطاخ! صفرت رصاصة فوق رأسه.

اندفع العلجوم مجفلًا على قدميه وولى هاربًا على الطريق بما أوتي من سرعة، وفيما هو يجري سمع الظربان يضحك وضحكات أخرى صغيرة رهيبة واهية ترفع الصوت وتحمله.

عاد ذليلًا جدًّا وأخبر جرذ الماء.

قال الجرذ: «ماذا قلت لك؟ لا فائدة. لقد وضعوا حراسًا وجميعهم مسلحون. ليس عليك سوى أن تنتظر».

غير أن العلجوم لم يكن مستعدًّا للاستسلام بهذه السرعة. لذا أخرج القارب وانطلق يجذف في النهر عكس التيار إلى حيث تحدرت الحديقة أمام قصر العلجوم الريفي إلى جانب المياه.

عندما أصبح على مرمى بصر من بيته القديم، ارتاح على مجذافيه وعاين الأرض باحتراس. بدا كل شيء مسالمًا ومهجورًا وهادئًا. استطاع أن يرى واجهة قصر العلجوم الريفي كاملة تتلألأ في أشعة شمس المساء، الحمائم تستقر مثنى وثلاث على طول السطح المستقيم، الحديقة، تألق الزهور، الجدول الذي يؤدي إلى مرأب القوارب، الجسر الخشبي الصَّغير الذي يعبره، كل شيء هادئ وغير مأهول ينتظر عودته فيما يبدو. قد يبحث في مرأب القوارب أولًا، فكَّر. جذَّف بحذر شديد نحو مصب الجدول وكان يمر تحت الجسر عندما... سمعت ضجة شديدة!

وقع حجر كبير من الأعلى، وحطم قعر القارب. امتلأ وغرق ووجد العلجوم نفسه يكافح في المياه العميقة. نظر إلى الأعلى ورأى اثنين من حيوان القاقم ينحنيان من فوق سور الجسر ويراقبانه بجذل عظيم. صرخا نحوه: «سيكون رأسك في المرة القادمة أيها العلجوم!» سبح العلجوم الساخط إلى الشَّاطئ بينما ضحك القاقمان وواصلا الضَّحك يستندان بعضهما إلى بعض وضحكا ثانية إلى أن كادا يفقدا الصَّواب، كل واحد على حدة بالطبع.

انقلب العلجوم على عقبيه راجلًا في طريقه الشَّاق، وقص تجاربه المخيبة للآمال على جرذ الماء مرة أخرى.

قال الجرذ بنزق شديد: «حسنًا، ما الذي قلته لك؟ والآن انظر هنا! أنظر فيما كنت وماذا فعلت! أفقدتني قاربي الذي كنت شديد الولع به، هذا ما حققته! وببساطة أفسدت تلك البدلة الجميلة التي أقرضتها لك! حقًا أيها العلجوم من بين كل الحيوانات المتعبة، أتساءل كيف تتدبر أمر الحفاظ على أي من أصدقائك على الإطلاق!»

رأى العلجوم في الحال أنه تصرف خطأ وبحماقة. اعترف بأخطائه وبعناده وقدم اعتذارًا كاملًا للجرذ على فقدانه قاربه وإفساده ملابسه. والتف بتلك الاستكانة الذاتية الصَّريحة التي أفحمت على الدوام نقد أصدقائه وكسبتهم إلى صفه: «يا جرذون! أرى أني كنت علجومًا جامحًا وعنيدًا! صدق أني سأكون متواضعًا وخنوعًا من الآن فصاعدًا ولن أقدم على فعل أي شيء قبل أن أطلب نصحك اللطيف وموافقتك الكاملة!»

قال الجرذ الطيب وقد هدأ بالفعل: «إذا كان الأمر حقًا كذلك، إذن نصيحتي لك هي، بالنظر إلى تأخر الوقت، أن تجلس وتتناول عشاءك الذي سيكون على الطاولة في غضون دقيقة وتتحلى بالصبر الشَّديد. لأني مقتنع أننا لا نستطيع أن نفعل شيئًا قبل

أن نرى الخلد والغرير، ونسمع آخر الأنباء منهما، ونعقد مؤتمرًا ونطلب نصحهما في هذه المسألة العسيرة».

قال العلجوم باستخفاف: «أوه، آه، نعم، بالطبع، الخلد والغرير، ماذا حدث لهما، الرفيقان العزيزان؟ لقد نسيت أمرهما تمامًا».

قال الجرذ موبخًا: «حسنًا، لعلك تسأل! بينما كنت تتجول في الريف في سيارات باهظة الثمن وترمح متفاخرًا على خيول أصيلة، وتتناول الفطور الدسم على اليابسة، كان هذان الحيوانان المسكينان المتفانيان يخيمان في العراء، في ظل كل تقلبات الطقس، يعيشان في ظروف صعبة جدًّا في النهار والليل يراقبان منزلك، ويخفران حدودك، يوليان اهتمامًا مستمرًا للقواقم وأبناء عرس، يمكران ويخططان ويبتدعان ليعيدا لك أملاكك. أنت لا تستحق أن تمتلك مثل هؤلاء الأصدقاء الحقيقيين والمخلصين أيها العلجوم، لا تستحق حقًا. ذات يوم بعدما يفوت الأوان سوف تشعر بأسف شديد لأنك لم تقدرهم عندما كانوا معك!»

نشج العلجوم وهو يذرف الدموع المريرة: «أنا حيوان جحود، أعلم ذلك. دعني أخرج لأعثر عليهما في الليل البارد والمظلم وأتشارك معهما المشقات وأحاول أن أثبت... انتظر قليلًا! بالتأكيد سمعت قرقعة الأطباق على صينية! العشاء هنا أخيرًا. مرحى! هيا أيها الجرذ!»

تذكَّر الجرذ أن العلجوم المسكين كان يأكل طعام السِّجن وقتًا طويلًا، ولذلك كان لا بدَّ من تناول تلك الحصص الكبيرة. تبعه إلى الطاولة بناء على ذلك وشجعه بكرم في جهوده المجيدة على التعويض عن عوز الماضي.

أنهيا وجبتهما واستأنفا جلوسهما على الكراسي المريحة، عندما سمع قرع ثقيل على الباب.

كان العلجوم متوترًا لكن الجرذ مومئًا له على نحو غامض، ذهب مباشرة إلى الباب وفتحه.. دخل السَّيد غرير.

كان له مظهر من ظلَّ عدة ليال بعيدًا عن البيت، وعن كل ما فيه من وسائل صغيرة للراحة والرفاهية. كان حذاؤه ملوثًا بالوحل ويبدو مشوشًا جدًا وخشنًا، لكن أيضًا لم يكن الغرير يومًا رجلًا شديد الأناقة في أفضل أيامه. تقدَّم بجدية نحو العلجوم وصافحه قائلًا: «مرحبًا بعودتك إلى البيت أيها العلجوم! للأسف! ماذا أقول؟ البيت فعلًا! إنها عودة تعسة إلى البيت. أيها العلجوم التعيس!» ثم أدار له ظهره، جلس إلى الطاولة، جذب كرسيه، وتناول قطعة كبيرة من فطيرة باردة.

كان العلجوم مذعورًا تمامًا إزاء هذا الشَّكل الجدي من التحية والمنذر بالسُّوء، لكن الجرذ همس له: «لا تهتم، لا تبالي ولا تقل شيئًا له الآن. يكون مكتئبًا وفي مزاج سيئ دومًا عندما يرغب في تناول طعامه. خلال نصف ساعة سيكون حيوانًا مختلفًا تمامًا».

لذا انتظرا في صمت، وفي الحال سمع قرع آخر لكن أخف. ذهب الجرذ مومئًا للعلجوم إلى الباب وأدخل الخلد الذي كان رثًا جدًّا وغير مغتسل والقليل من القش

والحشيش عالق بفرائه.

صاح الخلد بوجه ساطع: «مرحى! ها هو العلجوم الكبير! كم جميل أن تكون بيننا ثانية!» وبدأ يرقص من حوله. «لم نحلم قط بأنك ستظهر قريبًا جدًا! عجبًا، لا بدَّ أنك تمكنت من الهرب أيها العلجوم الذكي الأريب البارع!»

جذبه الجرذ مذعورًا من مرفقه لكن كان الأوان قد فات، كان العلجوم منتفخًا ومتورمًا بالفعل.

قال: «ذكي؟ أوه لا! أنا لست ذكيًا حقًا بحسب ما يقول أصدقائي. لقد خرجت فقط من أكثر السُّجون حصانة في إنكلترا، هذا كل شيء! ولحقت بقطار وهربت على متنه، هذا كل شيء! وتنكرت وتجولت في الريف خادعًا الجميع، هذا كل شيء! أوه لا! أنا أحمق، أنا بالفعل أحمق! سأروي لك واحدة أو اثنتين من مغامراتي الصَّغيرة أيها الخلد وستحكم بنفسك!»

قال الخلد وهو يتقدم من طاولة العشاء: «حسنًا، حسنًا، يمكنك أن تتحدث بينما أتناول الطعام. لم أتناول شيئًا منذ الفطور! يا إلهي! يا إلهي!» وجلس وتناول بسخاء لحم العجل البارد والمخللات. مشى العلجوم على بساط المدفأة، أقحم كفه في جيب بنطاله، وأخرج حفنة من النقود الفضية. صاح وهو يعرضها: «انظر إلى ذلك! هذا ليس سيئًا جدًا، أليس كذلك؟ مقابل عمل استغرق بضع دقائق؟ وكيف تظن أني فعلتها أيها الخلد؟ بعت حصانًا! هكذا حصلت عليها!»

قال الخلد مهتمًا لدرجة عظيمة: «هيا أيها العلجوم».

قال الجرذ: «اصمت أيها العلجوم من فضلك! ولا تحثه أيها الخلد بما أنك تعرف طبعه، لكن من فضلك أخبرنا بأسرع ما يمكن عن الوضع، وما هو أفضل ما يمكن فعله الآن وقد عاد العلجوم أخيرًا».

أجاب الخلد مشاكسًا: «الوضع سيئ إلى أبعد حد، أما ما يمكن عمله، عجبًا، فليباركني الله إذا كنت أعلم! الغرير وأنا كنا ندور وندور حول المكان ليل نهار والحال دومًا لا يتغير. مواقع حراسة في كل مكان، أسلحة موجهة نحونا، رمينا بالحجارة، دومًا يوجد حيوان يراقب، وعندما يروننا، يا إلهي! كم يضحكون! هذا ما يزعجني أكثر من أي شيء آخر!»

قال الجرذ وهو يتفكَّر بعمق: «إنه وضع بالغ الصعوبة، لكني أظن أني أرى الآن في ثنايا عقلي ما على العلجوم حقًا أن يفعل. سأخبركما. هو عليه أن...»

صاح الخلد بفم ملآن: «لا ليس عليه! لا شيء من هذا القبيل! أنت لا تفهم. ما عليه أن يفعله هو عليه أن...»

صرخ العلجوم منفعلًا: «حسنًا، ليس عليَّ فعل ذلك مهما حدث! لن أقبل بتلقي الأوامر منكم أيها الرفاق! إنه منزلي هذا الذي تتحدثون عنه، وأعرف بالضبط ماذا سأفعل وسأخبركم. أنا سوف...»

في هذا الوقت كان الثلاثة جميعًا يتحدثون معًا بأعلى أصواتهم وكانت الضّجة مصمة عندما سمع صوت نحيل جاف يقول: «اصمتوا في الحال جميعكم!» وفي الحال كان الجميع صامتًا.

كان الغرير بعد أن أنهى فطيرته قد التفت في كرسيه وراح ينظر إليهم بحدَّة. عندما رأى أنه حاز اهتمامهم وأنهم كانوا ينتظرون مخاطبته لهم بوضوح، التفت إلى الطاولة ثانية وتناول الجبنة. وكان الاحترام المهيمن عظيمًا جدًا بخصال ذلك الحيوان الباهر، فما من كلمة أخرى نطقت حتى أنهى وجبته تمامًا ونفض الفتات عن ركبتيه. تململ العلجوم كثيرًا لكن الجرذ كبحه بحزم.

عندما انتهى الغرير تمامًا نهض من مقعده ووقف أمام الموقد يتأمل بإمعان. أخيرًا تكلم.

قال بحدَّة: «أيها العلجوم، أنت حيوان سيئ صغير مُتعِب! ألا تخجل من نفسك؟ ماذا تظن أن والدك، صديقي القديم، كان سيقول لو كان هنا الليلة وعرف بكل أفعالك؟»

العلجوم الذي كانت ساقاه مرفوعتين على الأريكة، انقلب على وجهه على الفور مهزوزًا بنشيج التَّندم.

واصل الغرير بلطف أكبر: «على رسلك، على رسلك! لا يهم. كفَّ عن البكاء. عفا الله عما مضى، ولنحاول أن نبدأ من جديد. لكن ما يقوله الخلد صحيح تمامًا. يحرس القواقم كل نقطة وهم من خيرة الحراس في العالم. التفكير في مهاجمة المكان عديم النفع تمامًا. إنهم أقوى منا بكثير».

نشج العلجوم باكيًا وهو يدفن وجهه في وسائد الأريكة: «إذن انتهى كل شيء، عليَّ أن أتطوع الآن في الجندية، فلا أرى قصري بعد الآن مطلقًا!»

قال الغرير: «هيا، ابتهج أيها العلجوم! يمكن استعادة مكان ما بسبل أخرى سوى اقتحامه. لم أقل كلمتي الأخيرة بعد. الآن سأخبرك بسرٍّ عظيم».

جلس العلجوم ببطء وجفَّف عينيه. كان للأسرار جاذبية هائلة عليه، لأنه لم يستطع مطلقًا الاحتفاظ بسر واستمتع بالإثارة الخبيثة التي اختبرها كلما ذهب وأخبر حيوانًا آخر بعد أن وعد بأمانة ألا يفعل.

قال الغرير بصورة مؤثرة: «يوجد ممر تحت الأرض، ينطلق من ضفَّة النهر، في مكان قريب من هنا تمامًا نحو وسط قصر العلجوم الريفي».

قال العلجوم باستخفاف بعض الشَّيء: «هذا كلام فارغ! أيها الغرير، لقد كنت تستمع إلى بعض الحكايات الملفقة المحاكة في الحانات المنتشرة هنا. أعرف قصر العلجوم الريفي شبرًا شبرًا قلبًا وقالبًا. أؤكد لك عدم وجود شيء من هذا القبيل».

قال الغرير بحزم شديد: «يا صديقي الشَّاب، كان والدك واحدًا من أصدقائي المميزين وهو حيوان فاضل أكثر من آخرين أعرفهم، لقد باح لي بكثير مما لم يكن ليحلم بأن يقصه عليك. اكتشف ذلك الممر، هو لم يصنعه بالطبع، الذي صُنع قبل مئات السنين من مجيئه ليعيش هناك، وأصلحه ونظفه، لأنه اعتقد أنه قد يكون مفيدًا

ذات يوم، تحسبًا من حدوث مشكلة أو خطر داهم، وأراني إياه. قال: «لا تدع ابني يعرف بشأنه، إنه صبي جيد، لكنه متقلب وخفيف الطباع، وببساطة لا يستطيع أن يمسك لسانه. إذا كان يومًا في ورطة حقيقة وأمكن للممر السري أن يكون مفيدًا له يمكنك أن تخبره بأمره، لكن ليس قبل ذلك».

نظر الحيوانان الآخران بقسوة نحو العلجوم ليريا كيف سيتلقى الخبر. كان العلجوم ميالًا لأن يكون عابسًا أولًا، لكنه أشرق في الحال لأنه كان صاحبًا طيبًا.

قال: «حسنًا، حسنًا، ربما أنا متكلم بعض الشَّيء. شخص شهير مثلي -يحيط أصدقائي بي-نتمازح ونمرح ونروي قصصًا ظريفة، وبطريقة ما يهتز لساني. لدي موهبة المحادثة. لقد قيل لي أن عليَّ أن أدير صالونًا أدبيًا، أيًا كان المقصود هذا. لا يهم. استمر، أيها الغرير. كيف سيساعدني هذا الممر؟»

واصل الغرير: «لقد وجدت مؤخرًا أمرًا أو اثنين، طلبت من أحد ثعالب الماء التَّتكر في هيئة منظِّف المداخن، لينادي عند الباب الخلفي حاملًا على كتفه الفراشي، طالبًا عملًا. ستقام مأدبة كبيرة غدًا ليلًا. بمناسبة عيد ميلاد أحدهم -أعتقد أنه زعيم أبناء عرس- وسوف يكون جميع أبناء عرس مجتمعين في قاعة الطعام، يأكلون ويشربون ويضحكون بحماس لا يلوون على شيء. ما من بنادق، ما من سيوف، ما من عصي، ما من أسلحة من أي نوع مهما كان!»

أشار الجرذ: «لكن الحراس سيكونون في مواقعهم المعتادة».

قال الغرير: «بالضَّبط، هذا ما قصدته. سيثق أبناء عرس كليًا بحراسهم الممتازين. وهنا حيث يأتي الممر. يقود النفق المفيد مباشرة إلى أسفل حجرة المؤن قرب غرفة الطعام!»

قال العلجوم: «آها! ذلك اللوح الذي يصر في حجرة المؤن! الآن أنا أفهم!»

صاح الخلد: «سوف نزحف بهدوء إلى حجرة المؤن».

صاح الجرذ: «بمسدساتنا وعصينا وسيوفنا...»

قال الغرير: «ونطبق عليهم».

صاح العلجوم في ابتهاج غامر وهو يجري ويدور في الغرفة ويقفز على الكراسي: «ونضربهم ضربًا مبرحًا، نضربهم ضربًا مبرحًا، ونضربهم ضربًا مبرحًا!»

قال الغرير مستأنفًا منهجه الجاف المعتاد: «حسنًا إذن، خطتنا تقررت ولم يعد هناك المزيد لمناقشته والتنازع حوله. لذا ما دام الوقت تأخر، فاذهبوا جميعكم إلى النَّوم في الحال. سوف ننهي جميع الترتيبات الضَّرورية غدًا في الصَّباح».

ذهب العلجوم بالطبع إلى السَّرير طائعًا مع البقية -كان أذكى من أن يرفض- مع ذلك كان يشعر بأنه في حالة من انفعال شديد ستحول بينه وبين النوم. لكنه مر بيوم طويل مزدحم بالكثير من الأحداث، وكانت الشراشف والأغطية أشياء ودودة ومريحة، بعد النوم على كمية قليلة من القش المفرود على أرض حجرية في زنزانة

معرَّضة للتيارات الهوائية، ولم تكد تمر بضع ثوانٍ بعد أن حط رأسه على الوسادة حتى راح يشخر بسعادة. بطبيعة الحال، حلم كثيرًا عن الطرقات التي هربت منه عندما أرادها، وقنوات طاردته وقبضت عليه، وعبَّارة أبحرت في قاعة الولائم مع غسيله الأسبوعي، تمامًا عندما كان يقيم حفل عشاء وكان وحيدًا في الممر السِّري يشق طريقه قدمًا، لكن الممر انثنى واستدار وترجرج وارتفع، مع ذلك بطريقة ما وجد نفسه أخيرًا في قصر العلجوم الريفي، آمنًا ومنتصرًا، يحيط به جميع أصدقائه مطمئنين إياه بشكل جدي أنه علجوم ذكي بحق.

نام حتى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي، ولدى نزوله وجد أن الحيوانات الأخرى أنهت فطورها قبل بعض الوقت. تسلل الخلد إلى مكان ما بمفرده دون أن يخبر أحدًا عن وجهته. جلس الغرير على الكرسي ذي المسندين يقرأ الصَّحيفة، غير مقلق نفسه بتاتًا حول ما كان مزمعًا أن يحدث تلك الأمسية بالذات. من جهة أخرى، كان الجرذ يجري حول الغرفة منهمكًا، محمل الذراعين بأسلحة من كل نوع، يوزعها في أربع أكوام صغيرة على الأرض ويقول بانفعال بينه وبين نفسه وهو يجري: «هذا سيف للجرذ، وهذا سيف للخلد، وهذا سيف للعلجوم، وهذا سيف للغرير! هذا مسدس للجرذ، وهذا مسدس للخلد، وهذا مسدس للعلجوم، وهذا مسدس للغرير!» واستمر على هذا النحو بطريقة منتظمة وإيقاعية فيما ازداد حجم الأكوام الأربعة الصَّغيرة تدريجيًا أكثر فأكثر.

قال الغرير من فوره وهو ينظر إلى الحيوان الصَّغير النشط من فوق حافَّة جريدته: «هذا كله جيد أيها الجرذ، أنا لا أنكر عليك ذلك. لكن ما إن نتجاوز القواقم الذين يحملون تلك البنادق الكريهة، أضمن لك أننا لن نكون في حاجة إلى سيوف أو مسدسات. نحن أربعة مع عصينا، ما إن نصبح في داخل قاعة الطعام سوف نفرغ الأرض منهم، مهما كان عددهم وفيرًا، خلال خمس دقائق. لقد أنجزت الأمر برمته بنفسي غير أني لم أرغب في أن أحرمكم من التسلية أيها الرفاق!»

قال الجرذ متأملًا وهو يلمع ماسورة المسدس على كمه وينظر نحوها: «من الجيد أيضًا أن يكون لديك هامش أمان ضد المخاطر».

تناول العلجوم بعد أن أنهى فطوره عصا متينة ولوَّح بها بعنف مهاجمًا حيوانات متخيلة. صاح: «سأعلمهم كيف يسرقون منزلي. سأعلمهم! سأعلمهم!»

قال الجرذ مصدومًا إلى أقصى حد: «لا تقل «أعلمهم» أيها العلجوم، إنها ليست إنكليزية جيدة».

استفسر الغرير بنزق بعض الشَّيء: «علام تتذمر دومًا من العلجوم؟ ما خطب إنكليزيته؟ إنها الإنكليزية نفسها التي أستخدمها بنفسي، وإذا كانت لي جيدة بما فيه الكفاية، لا بدَّ أن تكون جيدة لك بما فيه الكفاية!»

قال الجرذ بتذلل: «أنا آسف جدًّا، فقط أظن أنها كان يجب أن تكون «ألقنهم» وليس «أعلمهم»».

أجاب الغرير: «لكننا لا نرغب في أن نلقنهم، نريد أن نعلمهم، نعلمهم، نعلمهم! أضف إلى ذلك سوف نفعل ذلك أيضًا!»

قال الجرذ: «أوه، حسنًا، قلها على طريقتك». أخذ يصيبه بعض التشوش إزاءها وفي الحال تراجع إلى ركن حيث أمكن سماعه يتمتم: «نعلمهم، نلقنهم، نلقنهم، نعلمهم!» إلى أن طلب منه الغرير بحدة أن يتوقف.

في هذا الوقت دخل الخلد الغرفة متعثرًا، يبدو عليه السُّرور. بدأ في الحال: «يا لها من تسلية التي كنت أحظى بها! لقد كنت أثير غضب القواقم!»

قال الجرذ بقلق: «آمل أنك كنت شديد الحذر أيها الخلد؟».

قال الخلد بثقة: «يجب أن آمل ذلك أيضًا. خطرت لي الفكرة لدى دخولي المطبخ لأهتم بأمر تسخين الفطور من أجل العلجوم. وجدت رداء الغسالة القديم الذي عاد به إلى البيت البارحة معلَّقًا على مسند المناشف مقابل النَّار. لذا ارتديته مع القلنسوة والشَّال أيضًا، وتوجهت إلى قصر العلجوم الريفي، بجسارة شديدة، كان الحراس في مواقعهم بالطبع مع بنادقهم وعبارة «من هناك؟» وكل بقية كلامهم الفارغ. قلت باحترام شديد: «صباح الخير أيها السَّادة! هل لديكم ما تودون غسله اليوم؟» نظروا نحوي بفخر شديد وقسوة وغرور وقالوا: «ابتعدي أيتها الغسالة! نحن لا نغسل شيئًا في أثناء أداء واجبنا». قلت: «أو في أي وقت آخر؟». هو، هو، هو! ألم أكن مضحكًا أيها العلجوم؟»

قال العلجوم بعجرفة شديدة: «حيوان مسكين أرعن!». الحقيقة أنه شعر بحسد شديد تجاه الخلد لما فعله للتو. كان ما أحب أن يفعله بنفسه بالضبط لو فقط فكر فيه أولًا ولم يذهب ويستغرق في النوم.

واصل الخلد: «تورَّدت وجوه عدد من القواقم تمامًا وقال لي الرقيب المسؤول باختصار شديد: «الآن اهربي، يا امرأة، اهربي! إنك تجعلين رجالي يضيعون الوقت ويتحدثون في محارسهم». قلت: «أهرب؟ لن أكون أنا من سيهرب خلال وقت قصير من الآن!»

قال الجرذ مرعوبًا: «أوه أيها الخلد، كيف استطعت فعل ذلك؟»

أخفض الغرير صحيفته.

واصل الخلد: «استطعت أن أرى أنهم يرهفون سمعهم وينظر بعضهم إلى بعض، وقال الرقيب لهم: «لا تهتموا لأمرها، هي لا تعرف عما تتحدث». قلت: «أوه! حقًا؟ حسنًا، دعني أخبرك بهذا. ابنتي تغسل ملابس السيد غرير، وهذا سوف يريك فيما إذا كنت أعرف عمّا أتحدث أم لا، وسوف تتأكد قريبًا جدًا أيضًا! سوف يهاجم مئة من حيوانات الغرير المتعطشين للدماء مسلحين بالبنادق قصر العلجوم الريفي هذه الليلة بالذَّات. من جهة حظيرة خيل السِّباق، سوف تصل حمولة ست سفن من الجرذان، مع مسدسات وقطالس، إلى النهر ليتم إفراغها في الحديقة، فيما سوف تقتحم مجموعة البستان مختارة من العلاجيم المعروفة باسم «البواسل» أو «الموت أو المجد» ويحملون كل شيء أمامهم وهم يصيحون طلبًا للثأر. لن يكون قد بقي

الكثير منكم ليغسلوا عندما ينتهون منكم، إلا إذا هربتم بينما لا تزال لديكم الفرصة!» ثم هربت، وعندما صرت خارج مرمى النظر تواريت، وعدت زاحفًا في الحال على طول الخندق واختلست النَّظر نحوهم عبر السِّياج. كانوا جميعهم متوترين جدًّا، يجرون في كل اتجاه جميعًا في الوقت نفسه، ويتهافت بعضهم على بعض، وكل واحد يعطي الأوامر للجميع ولا يصغي، ولم يتوقف الرقيب عن إرسال مجموعات من القواقم إلى أجزاء بعيدة من الأراضي، ثم يرسل أشخاصًا آخرين ليحضروهم ثانية، وسمعتهم يحدثون بعضهم بعضًا: «هذا تمامًا مثل أبناء عرس، إنهم يرتاحون في قاعة الولائم، ويحتفلون ويشربون الأنخاب ويغنون الأغاني وكل أنواع التسلية، فيما نحن مأمورون بأن نحرس في المكان في البرد والظلام. وفي نهاية المطاف نُمزّق إلى أشلاء على يد حيوانات الغُرير المتعطشة للدماء!»

صاح العلجوم: «أوه، أنت أحمق أيها الخلد! لقد أفسدت كل شيء!»

قال الغرير بطريقته الهادئة الجافَّة: «أيها الخلد ألاحظ أنك تملك من الرشد في إصبعك الصَّغير أكثر مما تملك بعض الحيوانات الأخرى في أجسادها السَّمينة كلها. لقد تدبرت الأمر على نحو ممتاز ولقد بدأت أعقد عليك آمالًا كبيرة. خلد جيد! خلد ذكي!»

كانت الغيرة تعصف بالعلجوم، لا سيما أنه لم يستطِع أن يميز طوال عمره أن ما فعله الخلد كان ذكيًا جدًّا، لكن لحسن حظه، قبل أن يتمكن من إظهار غضبه أو يعرض نفسه لسخرية الغرير رنَّ جرس الغداء.

كانت وجبة بسيطة لكن مغذِّية؛ لحم مقدد وفول وحلوى المكرونة. عندما شعروا بالشَّبع تمامًا استقر الغرير على كرسي مريح وقال: «حسنًا، ينتظرنا عمل شاق هذه الليلة، لو أردنا أن ننجزه تمامًا من المرجح أننا سنفعل في وقت متأخر جدًا، لذا سأغفو أطول مدة ممكنة». ورمى منديلًا على وجهه وسرعان ما بدأ يشخر.

استأنف الجرذ القلق والمرهق استعداداته على الفور، وبدأ يجري بين أكوامه الصَّغيرة الأربعة متمتمًا: «هذا حزام الجرذ، وهذا حزام الخلد، وهذا حزام العلجوم، وهذا حزام الغرير!» واستمر في ذلك مع كل العتاد الموجود معه، الذي بدا أن لا نهاية له. لذا وضع الخلد ذراعه في ذراع العلجوم وقاده إلى الهواء الطلق، ودفعه إلى الجلوس على كرسي من الخيزران، وجعله يخبره بجميع مغامراته من البداية إلى النهاية، وكان هذا على قلب العلجوم أحلى من العسل. كان الخلد مستمعًا جيدا وفي ظل غياب كل من يمكن أن يتحرى صحَّة تصريحاته أو ينتقده بروح غير ودية أطلق العلجوم العنان لنفسه. بالفعل، فإن الكثير مما رواه كان يمكن وضعه بشكل أكثر ملاءمة في خانة ما كان يمكن أن يحدث، لو فقط فكر فيه في الوقت المناسب بدلًا من أن يفكر فيه بعد عشر دقائق. تلك هي دائمًا أفضل وأروع المغامرات. ولماذا لا تكون لنا بالفعل، كما تكون الأمور غير الوافية بعض الشيء التي تقع بالفعل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني عشر

عودة يوليسيس

مع بداية هبوط الظلام دعاهم الجرذ في جو من الإثارة والغموض للعودة إلى الردهة، جعل كل واحد منهم يقف إلى جانب كومته الصَّغيرة، وعمد إلى تجهيزهم من أجل الحملة القادمة. كان جادًا ومهتمًا بأدق التفاصيل، واستغرقت العملية وقتًا طويلًا. أولًا، كان هناك حزام ينبغي لفه حول خصر كل حيوان، ثم سيف يغمد في كل حزام، ثم قطلس على الجانب الآخر كي يتوازن معه. ثم زوج من المسدسات، وهراوة من هراوات الشُّرطة، عدة مجموعات من الأصفاد، بعض الضَّمادات والأشرطة اللاصقة، وقارورة ماء، وعلبة لوضع شطيرة. ضحك الغرير بخفَّة دم وقال: «لا بأس يا جرذون! إنه يجلب لك المتعة ولا يتسبب لي بالأذى. سأفعل كل ما ينبغي فعله بهذه العصا هنا». لكن الجرذ اكتفى بالقول: «من فضلك أيها الغرير. أنت تعرف أني لا أحبُّ سماعك تلومني فيما بعد وتقول إني نسيت أي شيء!»

عندما كان كلُّ شيء على جهوزية تامَّة، حمل الغرير بإحدى كفيه فانوسًا ذا شمعة، وأمسك عصاه الغليظة بالكف الأخرى وقال: «الآن إذن، اتبعوني! الخلد أولًا، لأني مسرور منه كثيرًا، الجرذ من بعده، العلجوم أخيرًا. وانظر هنا أيها العلجوم! لا تثرثر كثيرًا كالعادة وإلا ستُعاد لا محالة!»

شعر العلجوم بهلع شديد من أن يترك، حتى أنه قبل المكان الوضيع الذي عيِّن له دون أن ينبس بكلمة، وانطلقت الحيوانات. قادهم الغرير على طول النهر مسافة قصيرة، ثم انقلب فجأة وقفز من فوق الحافة نحو فجوة في ضفَّة النهر، أعلى من مستوى الماء بقليل. تبع كل من الخلد والجرذ بصمت وانقلبا بنجاح في الفجوة مقلدين ما فعله الغرير، لكن عندما حان دور العلجوم انزلق بالطبع وسقط في الماء محدثًا صوت ارتطام مرتفع وصرخ العلجوم فزعًا. سحبه أصدقاؤه، جففوه وعصروا منه الماء بسرعة، وساعدوه على النهوض، لكن الغرير كان غاضبًا بجدية وأخبره أنه إذا ارتكب حماقة أخرى سيتابعون مسيرهم دونه بالتأكيد.

وهكذا أخيرًا كانوا في الممر السِّري والحملة المتوقفة فجأة بدأت حقًا!

كان الممر باردًا ومظلمًا ورطبًا ومنخفضًا وضيقًا، وبدا العلجوم المسكين يرتعش، من ناحية خوفًا مما قد يكون أمامه، ومن ناحية أخرى لأنه كان مبللًا تمامًا. كان الفانوس بعيدًا عنه ولم يستطع إلا أن يتقاعس قليلًا في جنح الليل. ثم سمع الجرذ ينادي محذرًا: «تعال أيها العلجوم!» وتملكه رعب أن يترك وحيدًا في الظلمة، فأسرع في مشيته حتى أنه جعل الجرذ يصطدم بالخلد والخلد بالغرير وللحظة كانت الفوضى تعم كل شيء. اعتقد الغرير أنهم يُهاجمون من الخلف، ولما لم يكن هناك متسع لاستعمال العصا أو القطلس، سحب مسدسًا وكاد يطلق النار على العلجوم، واستشاط غضبًا بالفعل عندما اكتشف ما حدث وقال: «الآن هذا متعب هذه المرة، ينبغي أن نمضي دون العلجوم!»

لكن العلجوم اشتكى باكيًا، وتعهد الاثنان الآخران بضمان أن يتصرف جيدًا. أخيرًا هدأ الغرير وواصلت الحملة تقدمها، لكن هذه المرة سار الجرذ في المؤخرة ممسكًا كتف العلجوم بحزم.

وهكذا التمسوا طريقهم وساروا متثاقلين يرهفون السَّمع وأكفهم على مسدساتهم إلى أن قال الغرير أخيرًا: «لا بد أننا الآن صرنا على مقربة من الوصول تحت القصر».

ثم سمعوا فجأة من بعيد، ومع ذلك فيما يبدو قريبًا فوق رؤوسهم، صوت همهمة مشوشة كما لو أن الناس يصرخون ويهتفون ويخبطون على الأرض ويطرقون على الطاولات. عاد تخوف العلجوم المنفعل لكن الغرير اكتفى بالقول برزانة: «إنهم يحتفلون حقًا، أبناء عرس!»

بدأ الممر الآن يميل نحو الأعلى، تلمسوا طريقهم إلى الأمام أبعد قليلًا ثم اندلعت الضوضاء ثانية واضحة تمامًا هذه المرة وقريبة جدًا فوق رؤوسهم. سمعوا صيحات الاحتفال ودبيب الأقدام الصَّغيرة على الأرض وخشخشة الكؤوس المهتزة جراء خبط القبضات الصَّغيرة على الطاولات. قال الغرير: «إنهم يستمتعون بوقتهم! تعالوا!» أسرعوا على طول الممر إلى أن وصلوا إلى نهايته ووجدوا أنفسهم واقفين تحت الباب الأرضي الذي يقود إلى حجرة المؤن.

كانت الجلبة هائلة في قاعة الولائم لذا كانوا في مأمن من أن تسمع أصواتهم. قال الغرير: «الآن أيها الفتيان جميعنا معًا!» ووضع الأربعة أكتافهم على الباب الأرضي ودفعوه إلى الخلف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفيما يرفع بعضهم بعضًا إلى الأعلى، وجدوا أنفسهم واقفين في حجرة المؤن، يفصلهم باب واحد عن قاعة الولائم حيث كان أعداؤهم يحتفلون بصخب غافلين.

كانت الجلبة تصم الآذان لدى خروجهم من الممر. عندما توقف التهليل والطرق ببطء أخيرًا، أمكن تمييز صوت يقول: «حسنًا، لا أريد أن أؤخركم مزيدًا من الوقت» (تصفيق عظيم) «لكن قبل أن أعود إلى مقعدي» (هتاف متجدد) «أحب أن أقول كلمة واحدة عن مضيفنا اللطيف السَّيد علجوم. جميعنا نعرف العلجوم!» (ضحكٌ عظيم) «علجوم طيب، علجوم متواضع، علجوم صادق!» (صراخ مرح).

تمتم العلجوم وهو يجز على أسنانه: «فقط دعوني أمسكه!».

قال الغرير وهو يزجره بصعوبة: «تمهل دقيقة! استعدوا جميعكم!»

تابع الصَّوت: «دعوني أغني أغنية صغيرة، ألفتها عن موضوع العلجوم» (تصفيق مطول).

ثم بدأ زعيم أبناء عرس -لأنه كان هو المتكلم- بصوت مرتفع ثاقب:

«خرج العلجوم يسعى وراء الملذات..

يسير في الشارع بمرح...»

وقف الغرير باستقامة شديدة وأحكم قبضتيه بحزم على عصاه، ورمى رفاقه بنظرة وصاح:

«حان الوقت اتبعوني!»

وطوَّح الباب ففتحه على مصراعيه.

يا إلهي!

يا للصراخ الحاد والصَّرير والزعيق الذين عجَّ بهم الهواء!

وراح أبناء عرس المذعورون يندفعون تحت الطاولات، وينبثقون بجنون عند النوافذ! وحيوانات الظربان يهرعون بجموح نحو الموقد، ويحتشدون بيأس في المدخنة! انقلبت الطاولات والكراسي، وتحطم الزجاج والأواني الصينية على الأرض من شدة الذعر في تلك اللحظة الرهيبة عندما دخل الأبطال الأربعة الغرفة بخطوات واسعة حانقين! الغرير الجليل، شواربه منتصبة بخشونة، وهراوته العظيمة تصفر عبر الهواء، الخلد الأسود والمتجهم يلوح بعصاه ويصرخ بصيحات الحرب المريعة: «الخلد! الخلد!». الجرذ يائسًا ومصممًا، حزامه منتفخ بأسلحة من كل عصر ومن كل نوع، العلجوم مسعورًا بالإثارة والكبرياء، منتفخًا حتى ضعف حجمه، يقفز في الهواء ويصدر ذلك النقيق العلجومي الذي اقشعر له لب عظامهم! صاح: «خرج العلجوم يسعى وراء الملذات! سأريهم كيف تكون الملذات بحق!» وذهب مباشرة نحو زعيم أبناء عرس. كانوا جميعًا أربعة فقط، لكن بدت القاعة لأبناء عرس المذعورين مزدحمة بالحيوانات الضَّخمة والرمادية والسَّوداء والبنية والصفراء، تهتف وتلوح بهراوات هائلة، فاندفعوا وهربوا مطلقين صيحات الرعب والفزع، في هذا الاتجاه وذاك، عبر النوافذ، في المدخنة، في أي مكان للنجاة بأنفسهم من تلك العصي الرهيبة.

سرعان ما انتهت العملية. مشى الأصدقاء الأربعة بخطوات كبيرة جيئة وذهابًا في طول القاعة وعرضها، يضربون بعصيهم على كل رأس يرونه، وخلال خمس دقائق أفرغت الغرفة. كان صراخ أبناء عرس المذعورين عبر النوافذ المكسورة، وهم يهربون عبر المرج، محمولًا بخفوت إلى مسامعهم، كان الخلد منهمكًا في تقييد بضع عشرات أو نحو ذلك العدد من العدو سجدوا على الأرض. استند الغرير على عصاه مستريحًا من عمله، ومسح عرق جبهته الشريفة.

قال: «أنت أفضل الأصحاب أيها الخلد! فقط اذهب سريعًا إلى الخارج واعتني بأمر هؤلاء الحراس من القواقم، وانظر ماذا يفعلون. يخطر لي، والفضل لك في ذلك، أننا لن نواجه المزيد من المتاعب بسببهم الليلة!»

اختفى الخلد على الفور عبر إحدى النوافذ، وأمر الغرير الاثنين الآخرين بوضع طاولة على قوائمها ثانية، والتقاط السكاكين والشُّوك والأطباق والكؤوس من الأنقاض على الأرض، وأن يروا إن كان بوسعهم أن يجدوا شيئًا لتحضير العشاء. قال بطريقته المألوفة في الحديث: «أريد بعض الطعام، حقًّا، تحرَّك أيها العلجوم

وابحث بحيوية! لقد أعدنا لك منزلك وأنت لا تقدم لنا الشيء الكثير، ولو حتى شطيرة».

شعر العلجوم بالأذى إلى حدٍّ ما لأن الغرير لم يثنِ عليه بالعبارات اللطيفة كما فعل مع الخلد، ولم يقل له أنه كان رفيقًا ممتازًا وأنه قاتل ببسالة، لأنه كان بالأولى راضيًا عن نفسه بصورة خاصة وعن الطريقة التي توجَّه بها نحو زعيم أبناء عرس، فطيره عبر الطاولة بضربة واحدة من عصاه. لكنه انطلق بسرعة وكذلك فعل الجرذ، سرعان ما عثرا على كمية من هلام الجوافة في طبق زجاجي، ودجاج بارد، ولسان لم يمس إلا قليلاً، وبعض الأشياء

الخفيفة وكمية كبيرة من سلطة الكركند، عثرا في حجرة المؤن على سلة مملوءة باللفائف الفرنسية، وكمية من الجبن، والزبدة والكرفس. كانوا على وشك الجلوس عندما دخل الخلد متسلقًا النافذة وضاحكًا ويحمل عددًا كبيرًا من البنادق.

قال مبلِّغًا: «انتهى كل شيء من خلال ما يمكنني ملاحظته، القواقم الذين كانوا على أشدهم من الانفعال والتوتر فعلًا، حالما سمعوا الصَّرخات والصَّيحات والهرج والمرج داخل القاعة، رمى بعض منهم بنادقهم وفروا هاربين. وقف الآخرون بثبات بعض الوقت، لكن عندما خرج أبناء عرس مندفعين نحوهم ظنوا أنهم تعرضوا للخيانة، وتشاجر القواقم مع أبناء عرس، وكافح أبناء عرس للهرب وتصارعوا وتملصوا ولكم بعضهم بعضًا، وتقلب بعضهم على بعض إلى أن تدحرج معظمهم في النهر! اختفوا جميعًا الآن بطريقة أو بأخرى، وحصلت على بنادقهم. لذلك الأمور على خير ما يرام!»

قال الغرير وفمه يغص بالدَّجاج وبكعكة الفاكهة: «حيوان ممتاز ومؤهل! بقي الآن أمر واحد أريد منك القيام به أيها الخلد، قبل أن تجلس لتناول عشائك معنا، وما كنت لأزعجك سوى لعلمي أني أستطيع ائتمانك على إنجاز هذا الأمر، وأتمنى لو أني أستطيع قول الأمر نفسه لكل من أعرفه. كنت أرسلت الجرذ لولا أنه شاعر. أريدك أن تأخذ هؤلاء الأفراد على الأرض هناك معك إلى الطابق الأعلى، وتجعلهم ينظفون عددًا من غرف النوم ويرتبونها ويجعلونها مريحة حقًا. احرص على أن ينظفوا تحت الأسرة، ووضع شراشف نظيفة وأغطية وسائد، وأن يطووا إحدى زوايا مفرش السَّرير تمامًا كما تعرف كيفية القيام بذلك، وأن يضعوا في كل غرفة وعاء مملوءًا بمياه ساخنة، ومناشف نظيفة، وألواح صابون جديدة. ثم يمكنك بعد ذلك أن تجلدهم قدر ما تشاء، ثم أخرجهم من الباب الخلفي، ويخيل لي أننا لن نراهم بعد الآن. ثم تعال وتناول قدرًا من هذا اللسان البارد، إنه من الطراز الأول. أنا مسرور منك جدًّا أيها الخلد!»

تناول الخلد الطيب عصا، صفَّ سجناءه في طابور على الأرض، وأمرهم: «سريعًا سر!» وتقدم فرقته إلى الطابق الأعلى. عاود الظهور ثانية بعد حين مبتسمًا وقال إن جميع الغرف جاهزة ونظيفة، تلمع مثل مسمار جديد. أضاف: «ولم أضطر إلى جلدهم أيضًا، اعتقدت بالمجمل أنهم نالوا نصيبهم الكافي من الجلد في ليلة واحدة، واتفق معي أبناء عرس تمامًا، عندما استفضت في الحديث معهم قالوا إنهم لن

يفكروا في مضايقتي. كانوا نادمين أشد النّدم، وقالوا إنهم يشعرون بالأسف الشديد على ما اقترفته أيديهم، لكن كان كله خطأ زعيم أبناء عرس والقواقم، وإذا كان بوسعهم في أي وقت أن يقدموا لنا خدمة ليس علينا سوى أن ننوه إلى ذلك. لذا دفعتهم واحدًا واحدًا وأخرجتهم من الخلف، وهربوا بأسرع ما يمكن!»

ثم قرَّب الخلد كرسيه من الطاولة وبدأ يتناول اللسان البارد بحيوية، والعلجوم، ذلك الرجل النبيل، طرح كل ما كان يعتمل في صدره من غيرة وقال بحماس: «شكرًا جزيلًا لك يا عزيزي الخلد، على كل ما عانيته الليلة من مشقَّة ومتاعب، ولا سيما على ذكائك هذا الصَّباح!» سر الغرير لسماع ذلك وقال: «ها قد تحدَّث العلجوم الشُّجاع!» وهكذا أنهوا عشاءهم بفرح عظيم ومسرَّة، وانسحبوا في الحال كي يرتاحوا بين الملاءات النظيفة، آمنين في قصر العلجوم الموروث، المستعاد عبر خطة شاملة باسلة فريدة من نوعها، شديدة البراعة، ومهارة في استعمال العصي.

نزل العلجوم، الذي استغرق في النَّوم كعادته، صباح اليوم التالي إلى الفطور متأخرًا جدًّا، ووجد على الطاولة كمية من قشر البيض، بعض كسرات من الخبز المحمَّص البارد كالجلد، ركوة قهوة ثلاثة أرباعها فارغ، وليس سوى القليل جدًا، مما لم يسهم في تحسين مزاجه، لأن هذا كان منزله في نهاية المطاف. استطاع أن يرى عبر النوافذ الفرنسية الطراز لغرفة الفطور، الخلد وجرذ الماء جالسان على كرسيين من الخيزران على المرج، على ما يظهر يخبر بعضهما بعضًا القصص، يقصفان بالضَّحك ويرفسان بسيقانهما القصيرة في الهواء. اكتفى الغرير الذي كان جالسًا على كرسي ذي مسندين ومستغرقًا في قراءة صحيفة الصَّباح، بنظرة وإيماءة لدى دخول العلجوم الغرفة. لكن العلجوم كان يعرف الغرير جيدًا، لذا جلس وحضَّر أفضل فطور ممكن مكتفيًا بالقول لنفسه أنه سينسجم مع الآخرين آجلًا أم عاجلًا. عندما كان على وشك أن ينتهي رفع الغرير بصره وقال باختصار: «آسف أيها العلجوم، لكن أخشى أن هناك عملًا صباحيًّا ثقيل ينتظرك. كما ترى، نحن حقًا يجب أن نحظى بوليمة في الحال للاحتفال بهذا العمل. إنه أمر منتظر منك، في الواقع، إنها قاعدة».

قال العلجوم بطيب نفس: «أوه، لا بأس بذلك! كل ما يلزم لإرضائك. ولو أني لا أستطيع أن أفهم ما الذي يدفعك لأن ترغب في أن تحظى بوليمة في الصَّباح. لكنك تعلم أني لا أحيا لأفعل ما أشاء، لكن فقط لأعرف مشيئة أصدقائي، ثم أعمل على تحقيقها لهم يا عزيزي الغرير!»

أجاب الغرير بنزق: «لا تتظاهر بالغباء أكثر مما أنت عليه بالفعل، ولا تقهقه وتغمغم في قهوتك وأنت تتحدث، هذا ليس سلوكًا حسنًا. ما أقصده هو أن الوليمة ستقام ليلًا بالطبع، لكن ينبغي كتابة الدَّعوات وإرسالها في الحال، وأنت من سيكتبها. الآن اجلس إلى تلك الطاولة، يوجد عليها أكوام من ورق الرسائل المعنون «قصر العلجوم الريفي» باللونين الأزرق والذّهبي، واكتب دعوات إلى جميع أصدقائنا، ولو تتكب على عملك وتركز عليه فسنتمكن من إرسالها قبل موعد الغداء. وسوف أمد يد العون أيضًا وأساهم بحصتي من العمل. سأطلب الوليمة».

صاح العلجوم مذعورًا: «ماذا! أبقى في الداخل وأكتب عددًا لا يحصى من الرسائل الكريهة في صباح بهيج مثل هذا، في حين أني أريد الذهاب في جولة لأتفقد أملاكي كي أضع كل شيء وكل شخص في مكانه الصَّحيح، وأختال وأستمتع! بالتأكيد لا! سأكون... سأراك... انتظر دقيقة مع ذلك! عجبًا، بالطبع يا عزيزي الغرير! ماذا تشكل متعتي أو راحتي مقارنة مع تلك التي للآخرين! إذا كان هذا ما تريده فسوف يتحقق. اذهب أيها الغرير واطلب الوليمة، اطلب ما شئت، ثم انضم إلى أصدقائك الشُّبان في الخارج في جذلهم البريء، وانسَ أمري وأمر همومي ومتاعبي. إني أضحي بهذا الصَّباح الجميل على مذبح الواجب والصَّداقة!»

رنا الغرير نحوه بريبة شديدة، لكن ملامح العلجوم الصَّريحة والمكشوفة جعلت من الصَّعب افتراض وجود أي باعث تافه لهذا التغير في السُّلوك. غادر العلجوم الغرفة بناء على ذلك نحو المطبخ، وما إن أغلق الباب خلفه، أسرع إلى طاولة الكتابة. بينما كان يتحدث خطرت له فكرة ممتازة. سيكتب الدعوات ويحرص على ذكر الدَّور الرائد الذي لعبه في المعركة، وكيف طرح زعيم أبناء عرس أرضًا، ويمكن أن يلمح إلى مغامراته، ويا لها من مسيرة انتصار سوف يرويها، وعلى الورقة الغفل في آخر الدعوة سيخط نوعًا من برنامج ترفيهي للأمسية، لقد رسم في عقله شيئًا من هذا القبيل:

خطاب: يلقيه العلجوم.

(سوف يلقي العلجوم خطابات أخرى خلال الأمسية).

كلمة: يلقيها العلجوم.

ملخصات: نظام السّجون لدينا، المجاري المائية في إنكلترا القديمة، صفقة بيع حصان، وكيف تعقد الصفقات الملكية، حقوقها وواجباتها، العودة إلى البر، إقطاعي إنكليزي نموذجي.

أغنية يقدمها العلجوم. (ألَّفها بنفسه).

مؤلفات أخرى للعلجوم. سوف يغنيها المؤلف خلال الأمسية.

أسعدته الفكرة إلى حد بعيد، وعمل بجهد كبير فأنهى جميع الرسائل بحلول الظهيرة، وفي هذه السَّاعة بلغه أن ابن عرس صغير ورث المظهر إلى حدٍّ ما يقف في الباب مستفسرًا بخفر فيما إذا كان بإمكانه تقديم خدمة للسيد العلجوم. خرج مختالًا ووجد أنه كان أحد سجناء الأمسية السَّابقة، محترم جدًّا ومتشوق للإرضاء. ربَّت على رأسه وأقحم حزمة من الدَّعوات في كفِّه، وطلب منه الذّهاب على الفور لتسليمها بأسرع ما يمكن، وقال له إنه إذا أحب أن يعود ثانية في المساء، ربما قد يعطيه شلنًا، أو ربما لا. وبدا ابن عرس المسكين ممتنًا حقًا وأسرع بتوق ليؤدي مهمته.

عندما عادت الحيوانات الأخرى لتناول طعام الغداء، محدثين جلبة شديدة ومبتهجين بعد أن أمضوا صباحهم على النهر، الخلد الذي كان يعاني من وخز الضمير، نظر بارتياب نحو العلجوم متوقعًا أن يجده حزينًا محبطًا. بدلًا من ذلك، كان من التضخم

والاعتداد بالنفس حتى أن الخلد بدأ يشك في شيء ما، فيما تبادل الجرذ والغرير النَّظرات المعبِّرة.

حالما انتهت الوجبة، أقحم العلجوم كفيه عميقًا في جيبي سرواله وقال دون اكتراث: «حسنًا، اعتنوا بأنفسكم أيها الرفاق، اطلبوا كل ما تريدونه!»، ومضى متبخترًا باتجاه الحديقة حيث أراد أن يفكر في فكرة أو اثنتين من أجل خطاباته القادمة عندما أمسك الجرذ ذراعه.

شك العلجوم إلى حد ما في ما سيحدث بعدئذ، وبذل أفضل ما بوسعه للهرب، لكن عندما أمسكه الغرير بحزم من ذراعه الأخرى بدأ يفهم أن مخططاته انكشفت. قاده الحيوانان بينهما إلى غرفة التَّدخين الصَّغيرة المفتوحة على البهو، أغلقا الباب وأقعداه على كرسي. ثم وقفا أمامه وجلس العلجوم صامتًا وناظرهما بارتياب شديد ونزق.

قال الجرذ: «الآن، انظر هنا أيها العلجوم، إن الأمر يتعلق بهذه الوليمة، يؤسفني كثيرًا أني مضطر إلى التحدث معك بهذه الطريقة. لكننا نريدك أن تفهم بوضوح، مرة واحدة وإلى الأبد، أنه لن يكون هناك خطابات ولا أغاني. حاول أن تعي حقيقة أننا هذه المرة لا نجادلك، حسبنا أننا نخبرك».

رأى العلجوم أنه كان محاصرًا، لقد فهماه وقرأا أفكاره، لقد تقدما عليه وتبدَّد حلمه العذب.

توسَّل بشكل مثير للشفقة: «ألا يمكنني أن أغني لهم فقط أغنية صغيرة واحدة؟»

أجاب الجرذ بحزم: «لا، ولا حتى أغنية صغيرة واحدة»، ولو أن قلبه دمي عندما لاحظ شفة العلجوم المسكين المخيب ترتجف. «لا فائدة أيها العلجوم، أنت تعرف جيدًا أن أغنياتك كلها تفاخر وتبجح واستعلاء، وخطاباتك كلها في مديح النفس، و... حسنًا... وغلو صارخ، و... و...»

قال الغرير بطريقته الخشنة: «وثرثرة».

تابع الجرذ: «إنه لصالحك أيها العلجوم، أنت تعلم أنه ينبغي أن تبدأ من جديد عاجلًا أم آجلًا، والآن يبدو أنه الوقت المناسب جدًا لتبدأ، كنقطة تحول في مسيرتك. من فضلك لا تظن أن قولي هذا كله لا يؤلمني أكثر مما يؤلمك».

ظلَّ العلجوم وقتًا طويلًا غارقًا في التفكير. أخيرًا رفع رأسه وظهرت على أساريره آثار انفعال قوي. قال بنبرات كسيرة: «لقد غلبتم يا أصدقائي، أنا واثق من أن ما طلبته منكم لم يكن سوى أمر بسيط، حسبكم أن تمنحوني فرصة كي أزهو وأزدهر لأمسية واحدة إضافية، لأواصل سماع التصفيق الصَّاخب الذي يبدو لي دومًا أنه يبرز أفضل ما عندي من خصال بطريقة ما. مع ذلك أنتم على حق، أعرف ذلك، وأنا مخطئ. من الآن فصاعدًا سأكون علجومًا مختلفًا جدًّا. يا أصدقائي، لن يحدث ثانية أن يعلو محياكم الخجل بسببي. لكن يا إلهي، يا إلهي، إنه عالم قاس!»

غادر الغرفة بخطوات متداعية وهو يضغط منديله على وجهه.

قال الجرذ: «أيها الغرير، أشعر كما لو أني وحش، أتساءل إذا كنت تشعر بالمثل؟»

قال الغرير بكآبة: «أوه، أعلم، أعلم. لكن تحتم علينا إنجاز الأمر. يجب على هذا الرفيق الطيب أن يعيش هنا، وأن يعتني بنفسه في المواقف الصَّعبة، وأن يكون محترمًا. هل تريده أن يكون أضحوكة يستهزئ به أبناء عرس والقواقم ويسخرون منه؟»

قال الجرذ: «بالتأكيد لا، وبالحديث عن أبناء عرس، حالفنا الحظ لمصادفتنا ابن عرس الصَّغير ذاك، تمامًا عندما كان ينطلق لتوزيع دعوات العلجوم. ساورتني الشُّكوك مما قلته لي وألقيت نظرة إلى دعوة أو اثنتين، كانت مخزية ببساطة. صادرتها جميعًا والخلد الطيب يجلس الآن في المخدع الأزرق يعيد كتابة دعوات بسيطة.

أخيرًا بدأت ساعة الوليمة تقترب، والعلجوم مبتعدًا عن الآخرين، انسحب إلى غرفة نومه وكان لا يزال جالسًا هناك مكتئبًا ومستغرقًا في التفكير. مسندًا جبينه على كفه، تأمَّل طويلًا وبعمق، صفا وجهه شيئًا فشيئًا، وبدأ ثغره يفتر عن ابتسامات بطيئة وطويلة. ثم أخذ يقهقه بحياء وخجل. أخيرًا نهض، أقفل الباب، جذب السَّتائر عبر النوافذ، جمع جميع الكراسي الموجودة في الغرفة، ورتبها في نصف دائرة، ووقف أمامها ينتفخ بشكل ظاهر. ثم انحنى، سعل مرتين، وأطلق العنان لنفسه ورفع عقيرته بالغناء لجمهور طرب رآه بعيني خياله بوضوح شديد:

أغنية العلجوم الأخيرة الصَّغيرة

عاد العلجوم إلى البيت!

سرى الذُّعر في الردهات والعواء في القاعات،

سمع الصراخ في حظائر الأبقار والزعيق في الإسطبلات،

عندما عاد العلجوم إلى البيت!

عندما عاد العلجوم إلى البيت!

تحطمت نافذة وانكسر باب،

طورد أبناء عرس وأغمي عليهم وسقطوا على الأرض،

عندما عاد العلجوم إلى البيت!

طاخ! فلتقرع الطبول!

ليعزف نافخوا الأبواق وليؤدي الجنود التحية،

ولتطلق المدافع النِّيران ولتنعق السَّيارات،

عندما يأتي البطل

اهتفوا مرحى!

وليصرخ بها كل واحد من الحشد بأعلى صوته،

على شرف حيوان تفخرون به عن استحقاق،

لأنه يوم العلجوم العظيم!

غنى هذا بصوت عالٍ، وباستمتاع شديد وأسلوب معبر، وعندما انتهى رددها مرة ثانية من البداية.

ثم أطلق تنهيدة عميقة، تنهيدة طويلة، طويلة جدًا.

ثم غمس فرشاة شعره في إبريق الماء، فرق شعره من المنتصف، وألصقه وبالغ في تسويته وتمسيده على كل جانب من جانبي وجهه، وبعد أن فتح قفل الباب، هبط الدَّرج بهدوء ليحيي ضيوفه الذين عرف أنهم لا بدَّ يحتشدون في غرفة الضُّيوف.

هتفت الحيوانات جميعًا لدى دخوله وتجمهروا من حوله لتهنئته وللثناء بلطف على شجاعته وذكائه وبسالته في القتال، لكن العلجوم اكتفى بابتسامة خفيفة وتمتم قائلًا: «ليس على الإطلاق!» أو أحيانًا من باب التغيير «على العكس!» ثعلب الماء الذي كان واقفًا على بساط المدفأة يصف لحلقة من الأصدقاء المعجبين كيف كان سيتدبر أمره بالضبط لو كان موجودًا هناك، تقدَّم صائحًا ورمى ذراعه حول عنق العلجوم وحاول الطَّواف به في مسيرة انتصار حول الغرفة، لكن العلجوم بأسلوب مخفف كان يزدريه بعض الشيء، قال برفق وهو يخلص نفسه: «كان الغرير العقل المدبر، تحمَّل الخلد وجرذ الماء وطأة القتال، حسبي أني خدمت في الصُّفوف ولم أفعل سوى القليل». كان التشوش والانبهار باديًا على الحيوانات إزاء هذا السُّلوك غير المتوقع منه، وشعر العلجوم فيما كان ينتقل من ضيف إلى آخر وهو يلقي بردوده المتواضعة أنه كان يستحوذ على اهتمام الجميع.

كان الغرير قد طلب كل شيء من أجود الأنواع، وحققت الوليمة نجاحًا باهرًا. تخللها الكثير من الحديث والضَّحك والمزاح بين الحيوانات، لكن عبر هذا كله، العلجوم الذي كان جالسًا في الكرسي بالطبع، نظر باستعلاء وتمتم بعبارات لطيفة لا يُعتد بها للحيوانات الجالسة على جانبيه. وكان يسترق النظر بين الفينة والأخرى نحو الغرير والجرذ، وكلما نظر إليهما وجدهما يحدق بعضهما إلى بعض في دهشة، وهذا منحه أعظم شعور بالرضا. تهامست بعض الحيوانات الأصغر سنًا والأكثر حيوية مع تقدم الأمسية بعضها مع بعض عن أن الأمور لم تكن ممتعة بنفس القدر الذي جرت عليه العادة في الأيام الخالية الجيدة، وكان هناك بعض القرع على الطاولات وصرخات تقول: «العلجوم! خطبة! خطبة من العلجوم! أغنية! أغنية من تأليف السَّيد علجوم!» لكن حسب العلجوم أن هز رأسه برفق، ورفع كفّه في احتجاج لطيف، ملحًا بالأطايب على ضيوفه، بمحادثة صغيرة عن الأحداث الجارية، وباستفسارات جدية عن أفراد من عائلاتهم لم يكونوا في سن تسمح لهم بالظهور في مناسبات اجتماعية، استطاع أن يبلغهم أن هذا العشاء كان يسير على خطوط معتمدة بصرامة.

كان علجومًا مختلفًا بالفعل!

بعد ذروة الأحداث هذه واصلت الحيوانات الأربعة عيش حياتها بفرح عظيم وسرور بعد أن عكرت مجراها الحرب الأهلية ونغصتها، فلم تقلقهم بعدئذ انتفاضات أخرى أو غزوات. اختار العلجوم بعد مشاورة واجبة مع أصدقائه، سلسلة ذهبية جميلة مع قلادة مرصَّعة باللآلئ وأرسلها إلى ابنة السَّجان مع خطاب اعترف الغرير بكونه متواضعًا وممتنًا ومعترفًا بالجميل، وتم تقديم الشُّكر الجزيل لسائق القطار بدوره وعوض عن كل ما تكبده من عناء ومشقة. تحت إكراه شديد من الغرير بحثوا عن المرأة صاحبة الصَّندل وعثروا عليها بصعوبة بعض الشيء، وقدَّموا لها ثمن حصانها بتكتم، رغم أن العلجوم اعترض بشدة على هذا معتبرًا أنه الآلة التي أرسلها القدر لمعاقبة امرأة بدينة ذات ذراعين مرقشين لم تستطع أن تعرف الرجل الحقيقي عندما تراه. كان صحيحًا أن المبلغ المضمن لم يكن مرهقًا كثيرًا، إذ اعترف المثمنون المحليون بأن تثمين الغجري كان أقرب ما يكون إلى الصحة.

أحيانًا، خلال أمسيات الصَّيف الطويلة، كان الأصدقاء يذهبون معًا في نزهة قصيرة إلى الغابة البرية، الآن بعد أن روضت بنجاح بقدر ما يهمهم الأمر، وكان مفرحًا أن ترى كيف يحييهم السُّكان باحترام شديد، وكيف كانت أمهات أبناء عرس يجلبن صغارهن إلى ثغور جحورهن ويقلن لهم: «انظروا يا صغاري! هناك يسير السَّيد علجوم العظيم! وذلك جرذ الماء الهمام، وهو مقاتل مريع، يمشي برفقته! وهناك يأتي السَّيد خلد الشَّهير الذي سمعتم والدكم يروي عنه الكثير!» لكن عندما كان أطفالهن شكسين وخارج السَّيطرة تمامًا كن يهدئونهم، إن لم يسكتوهم أو يغظنهم، بإخبارهم كيف أن الغرير الرمادي الرهيب سوف يأتي ويأخذهم. كان هذا افتراء لئيمًا على الغرير، فمع أن اهتمامه كان قليلًا بالمجتمع، فإنه كان مولعًا بالأطفال، لكن هذا الافتراء نجح على الدوام في إحداث أثره الكامل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــاة

الفهرس..

عن الرواية..

الفصل الأول

ضفَّة النَّهر

الفصل الثَّاني

الطريق السَّريع

الفصل الثَّالث

الغابة البرية

الفصل الرابع

السَّيد غُرير

الفصل الخامس

ما أحلى الرجوع إلى البيت

الفصل السَّادس

السَّيد علجوم

الفصل السَّابع

زمار عند مطلع الفجر

الفصل الثَّامن

مغامرات العلجوم

الفصل التَّاسع

الجميع عايرو سبيل

الفصل العاشر

المزيد من مغامرات العلجوم

الفصل الحادي عشر

عصفت دموعه مثل زوابع الصَّيف

الفصل الثَّاني عشر

عودة يوليسيس